بخط عباس البغدادي

الإهداء

إلى الوالدين الكريمين، اللّذين دفعاني إلى معترك الحياة بثقة واعتزاز.
إلى أختي الغالية، رحمها الله، التي كانت سرّ نجاحي في حياتي الدراسية.
إلى ابنتيّ آية وضحى، اللّتين أرى في عيونهما نور المستقبل ...
إلى كل أبناء الجزائر والعروبة.
إلى كلّ أولئك، أهدي هذا العمل.

شكر وتقدير

أتقدم بالشكر الجزيل إلى الدكتور علي بن حويدقة، الذي لم يبخل بوقته للأخذ بيديّ، وتتبّع خطواتي من أوّلها إلى آخرها في إنجاز هذه المذكرة.
كما أشكر جميع الأصدقاء والزملاء على تشجيعاتهم ومعونتهم الطيبة.

قائمة المختصرات

باللغة العربية	
م.د.و.ع	مركز دراسات الوحدة العربية.
د.م.ج	ديوان المطبوعات الجامعية.
ب ت	بدون تاريخ
د.إ.ك.ع	دار إحياء الكتب العربية
م.ش.ج	مؤسسة شباب الجامعة.
د.ف.ن.ت	دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع
م.ع.د.ن	المؤسسة العربية للدراسات والنشر
أ.ن.ت	الأهلية للنشر والتوزيع
د.ق.ط.ن	الدار القومية للطباعة والنشر
د.خ.ن.ت	دار الخلدونية للنشر والتوزيع
د.ت.ن	الدار التونسية للنشر
م.ف.ط.ن	مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر
م.ل.ت.ت.ن	مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
د.و.د.ط.ن	دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر
باللغة الأجنبية	
N.C	Nourrit et Cie
D.C	Déssaint et Cie
P.U.F	Presse Universitaire de France.
O.P.U	Office de Publication Universitaire

مقدمة

اتفق المؤرخون والكتّاب على تسمية القرن التاسع عشر "عصر القوميات" فقد عرف سلسلة من التغييرات والانقلابات السياسية الخطيرة التي نمت بسرعة، وقد نقلت هذه الأخيرة أوربا إلى فجر جديد ومرحلة أفضل من مراحل التطور.

أما العامل الأساسي الذي أنتج هذه التحولات السياسية وبهذه السرعة، فكان نشأة الفكرة القومية واختمارها بما سما بها إلى مرتبة العقيدة والمذهب، وبما انتهى بالشعور الذاتي القومي إلى السرعة لإقامة الدولة القومية نظاما يجسّد إرادة الأمّة السياسية.

وفي ظل المبدأ القومي أخذت دولتان عظيمتان في الانحلال وهما الإمبراطورية النمساوية والدولة العثمانية، ونشأت دولتان على أساس الاتحاد وهما ألمانيا وإيطاليا. كما قامت دول أخرى على أساس الاستقلال والانفصال عن السلطنة العثمانية كدول البلقان. ومضت التطورات السياسية قُدُماً في الفترة التي سبقت الحرب العالمية الأولى حتى صارت سياسة أخذت بها الدول في مؤتمر الصلح، تقوم على حقّ كلّ أمة في تقرير مصيرها.

وتتلخص هذه الفكرة في وجوب تأسيس الدول على أساس القوميات، لأن كل أمة لها كيانها الخاص يحق لها أن تستقلّ في إدارة شؤونها دون أن تخضع لمشيئة أمة أخرى، وأن تؤسس دولة خاصة بها مستقلة ومنفصلة عن غيرها.

إنّ اتصال المشرق العربي بالغرب سهّل انتقال هذه الأفكار إليه، وأخذ دُعاتها يكشفون أصولها في المجتمع العربي، وبدأ الشرق يأخذ من الغرب في شكل انتقائي من بنائه الفكري الجديد ممّا نمّى الفكرة القومية فيه، حتّى ما انتهى القرن التاسع عشر كانت هذه قد بدأت

عهداً جديداً من الاختمار السياسي الذي أخذت مراحله بعد ذلك تنمو وتتطوّر بتسرّب الثقافة الجديدة، وتجدّد المجتمع العربي، وعدوان الغرب عليه. حتى أصبح الشعور القومي فيما بعد نضالاً ثوريًّا من أجل الوجود القوميّ الحرّ، وإقامة الدولة القومية العربية الحديثة.

يرجع اهتمامنا بهذا الموضوع لعدّة اعتبارات أوّلها، نزولاً عند رغبة الأستاذ المشرف وثانيها لما لمسناه من الحاجة لدراسة القومية العربية، دراسةً جديدةً. فقد زخر العالم العربي طوال نصف القرن الماضي بالكتب والمقالات التي تطرقت للموضوع، غير أننا إذا استثنينا بعض الكتب القليلة التي ظهرت، لرأينا أنّ أحداً لم يحاول من قبل أن يضع دراسة منظّمة لفكرة القومية العربية. هذا بالإضافة إلى أنّ موضوع القومية العربية – سواء من الناحية التاريخية أو النظرية – لم يحظ بعد بالعناية الكافية. وكان من حقّ هذا الموضوع الحيويّ أن يحظى بدراسة أكاديمية تتماشى والتطورات السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي يعيشها العالم العربي بأسره، خاصة في هذه المرحلة التاريخية العصيبة.

إنّ دراسة الحركة القومية العربية وتتبّع أصولها التاريخية ومراحل سيرها ونموّها يُعدّ ضرورة ملحّة في الوقت الحالي وذلك لأسباب عديدة لعلّ من أهمّها، الرغبة في لمّ شمل العرب وجعلهم قوّة واحدة للوقوف في وجه التحدّيات الأجنبية التي استكملت عمليةَ بنائها القوميّ ودخلت مرحلة القوميّات المُعتدية. كما أنّ هذا الاتحاد قد يمكّن العرب من استغلال موقعهم الاستراتيجي على جميع الأصعدة، والتفطّن للخطط الغربية التي هدفت دوماً إلى زعزعة استقرار العالم العربي خدمة لمصالحها الخاصّة. فبالأمس القريب عملت على تغذية هذا

التيّار –القومية– لضرب العرب والأتراك بعضهم ببعض، وها هي اليوم تعمل على تغذية الحركات الإسلامية التي أصبحت تنمو كالفطريات مستهدِفة بلداناً عربيةً يشهد لها التاريخ بتطوّرها العلمي وقوّة الإبداع الثقافي. كما أنّه من شأن القومية أن تقوّي لحمة الأمة العربية وتجاوز النظرة الوطنية الخاصة أو الإقليمية الضيقة.

لقد حظيت الحركة القومية العربية بالكتابة عنها من عدّة كُتّاب ومؤرخين، بعضهم من الأجانب وبعضهم من المستشرقين، إن كان قسمٌ من هذه الكتابات يذكر الحقيقة، فإنّ قسماً آخر منها لم يخلُ من تحيّز بعيد عن الإنصاف للحركة. أمّا الكتّاب العرب فقد تأثّروا بما قرأوه من كتب الغربيين فتجنّوا على الحركة في بعض مراحلها –عن غير قصد– بينما أصدر البعض الآخر بحوثاً تمتزج فيها النظرية بالحقيقة. لذلك كان لا بدّ من دراسةٍ موضوعيةٍ تتّخذ بين هؤلاء وهؤلاء سبيلاً وسطاً، تُنصف الحركة القومية العربية من التحيّز سواء لها أو عليها، وتحاول أن تحدّد المؤثرات الحقيقيّة التي أثّرت على الحركة في مراحل مدّها وتراجعها وظلّت تحكم سيرها.

وهنا تجدر الإشارة إلى ملاحظة مهمّة، أنّ بذور القومية العربية ظهرت أوّل ما ظهرت في المشرق العربي، في حين لم تظهر ملامحها في بلدان المغرب العربي إلاّ في بداية القرن العشرين. وهذا يمكن ردّه إلى عدّة أسباب لعل من أهمّها العامل التاريخي. ففي الوقت الذي شدّدت فيه السلطة العثمانية قبضتها على ولايات المشرق، كان حكّام ولايات المغرب العربي يعرفون نوعاً من الحريّة في إدارة شؤون ولاياتهم، فضلاً عن عامل الهجمةِ الغربية المبكرة

التي كانت الجزائر أوّل ضحاياها سنة 1830م.

ومن أهمّ العراقيل التي واجهتنا أثناء إعداد هذه المذكرة أنّه قد صعُب علينا إيجاد وثائق أرشيفية أو منشورات تثبت أعضاء الجمعيات القومية العربية في مراحلها الأولى، وحتّى تلك القصائد التي كانت تندّد بمساوئ الحكم العثماني والداعية إلى وحدة الأمّة العربية. هذه الأخيرة كانت تحفظ عن ظهر قلب نتيجة سياسة السلطان عبد الحميد الثاني القائمة على الجوسسة وقمع الحريّات.

لقد دفعتنا رغبة شديدة لإنجاز هذه المذكرة، وذلك قصد الإجابة عن إشكالية مهمّة، ظلّت تطرح نفسها في أذهان شريحة واسعة من أفراد المجتمع العربي، ألا وهي :

ما هي العوامل الحقيقية الكامنة وراء نشأة الحركة القومية العربية؟ وللإجابة عن هذه الإشكالية، كان لا بدّ من طرح الفرضيات التالية:

- ما هي أصول الفكرة القومية العربية؟ أهي مجرّد امتداد لتلك الانقلابات السياسية والاجتماعية التي عرفها العالم في أوائل القرن التاسع عشر تحت تأثير المبدأ القومي، أم هي ذات أصولٍ أعمق من ذلك؟
- هل كان لسياسة الحكم العثماني والهجمة الغربية دوراً في إثارة المشاعر القومية لدى الشعوب العربية؟
- وما هو سرّ تدعيم الدول الغربية خاصّة فرنسا وبريطانيا لهذا التيّار في الوطن العربي؟

أما منهج البحث فقد تأثر بموضوعه وأهدافه، فاشتمال الموضوع على الحركة القومية العربية

وتأثيرات الصراع الاستعماري على دول حوض المتوسّط جعلنا نعالج المسألة القومية من ناحيتها النظرية والفلسفية. كما حرصنا على مراعاة الصلة بين التاريخ والسياسة، لأنّ الحوادث التاريخية تعتبر مادّة أولية لابدّ منها للباحث والسياسي، فبعض الحوادث التاريخية كانت مصدراً لاستحداث بعض النظريّات السياسية. كما أنّ بعض النظريات ساعدت على في وقوع بعض الأحداث. ومن هذا المنطلق يظهر أنّنا لم نضفي على الموضوع المنهج التاريخي الخالِص، لكنّنا استعننا ببعض الحوادث التاريخية كركائز للتحليل فقط.

ولما كانت خطة البحث تقوم على ترتيب المنهج ترتيباً منطقياً تتماشى مع تطوّر الحركة القومية، فقد ارتأينا تقسيمه إلى مقدّمة ومدخل وثلاثة فصول، ثمّ خاتمة.

مقدّمة جاءت فيها معالجة الإطار التاريخي للفكرة القومية ومراحل تسرّبها إلى الأقاليم العربية العثمانية. أمّا المدخل فقد تناول دراسة ذلك الغموض والالتباس الذي لازم المفهوم القوميّ عند بعض المفكّرين، وعلاقته الوطيدة مع فكرة الوطنية والأمّة. ثمّ تطرّقنا إلى إبراز تأثيرات ذلك المفهوم على واقع الأقاليم العثمانية ومنها العربية، مع إبراز في شكل مقارنة وتحليل الأسس التّي قامت عليها الحركات القوميّة في تراب الدولة العثمانية.

أما الفصل الأوّل فحاولنا من خلاله الإشارة إلى مدى تأثير سياسة الحكم العثماني وحِدّة الصراع الأوربي في حوض المتوسّط على دفع التيّار القومي في الولايات العربية، إذ بدا جليّاً أنّ ضعف التسيير العثماني وخوف العرب على مصير بلدانهم كانا وراء تأجيج الحسّ القومي العربي، والتأكيد على روح الاتحاد القوميّ والرغبة في بناء الدولة القومية العربية.

وجاء الفصل الثاني ليعالج العوامل الأساسية التي هيّأت للبعث العربي الجديد، حتى أصبحت للولايات العربية أرضية خصبة تساعد على النهوض العربيّ رغم ما ساد من اختلاف في الاتجاهات والإيديولوجيات في العالم العربي خلال هذه الفترة.

وخُصّص الفصل الثالث لدراسة تلك التطوّرات السياسية التي عرفتها الولايات العربية في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وكان من مقوّمات هذا التطوّر إسهامات مفكّري عصر اليقظة العربية في توجيه الفكرة القومية مع إبراز ما شكّله التراث اللامادي من أهميّة في الكشف وإعادة الاعتزاز بالهويّة العربية دون إنكار ما كان للهجمة الغربية من أثر في هذا المجال.

وتمّ إنهاء هذه الدراسة بخاتمة كحوصلة لمختلف الاستنتاجات المتوصَّل إليها من خلال هذا البحث.

وليُسمح لي في الأخير، أن أتقدّم بالشكر الخالص والاعتراف العميق لأستاذي "عليّ بن حويدقة" الذي لا أجد الكلمات المناسبة التي أعبّر بها لحضرته عن شكري وامتناني وعظيم تقديري، فقد لقيت من حضرته خلال إعداد المذكرة كلّ رعاية وحسن توجيه، فقد فتح لي صدره للسؤال والاسترشاد وحسن الاستفادة طوال فترة إشرافه.

هذا ولا يفوتني أن أقدّم شكري وتقديري إلى مسؤول المكتبة البلدية بدائرة سفيزف وكذا مركز التوثيق للعلوم الاقتصادية والاجتماعية.

وأرجو أن يغتفر لي قارئ دراستي هذه فيما يمكن أن أكون قد قصرت فيه ملتمسا لي العذر

في أنني أعالج موضوعا شائكا متشابكا في خيوط طوائفه ومعتقداته، إذ أنه على الرغم من المجهودات التي بدلناها للإحاطة بهذا الموضوع فإننا نشعر أننا لم نستوف كلّ ما كان يجب أن يُكتب عن الحركة القومية العربية، ويبقى باب البحث مفتوحاً ونرجو أن يوفّق غيرنا إلى ما لم نستطيع الوصول إليه. وعلى الله قصد السبيل.

الطالب: قرين عتو

سيدي بلعباس بـ 24 ماي 2015.

المدخل

تمهيد

تعتبر القومية من أهم التيارات الفكرية التي ميزت القرن التاسع عشر، وقد أثار هذا المفهوم جدلا واسعا بين مفكري وساسة ذلك العصر، وذلك لاقترانه بمفهومين آخرين وهما الوطنية والأمة. وقد صعب في الكثير من الأحيان التمييز فيما بينها، فكيف تناول مفكري ذلك العصر تفسير هذه المفاهيم؟ وفيما تجلت تأثيراتها على مختلف الأمم خاصة تلك التي كانت خاضعة للحكم العثماني لا سيما العربية منها؟

1 – القومية والوطنية

الوطنية والقومية من أهم الخصائص الاجتماعية التي تربط الفرد البشري بالجماعات وتجعله يحبها ويفتخر بها ويعمل من أجلها ويضحي في سبيلها.

غير أنه قد ساد المفهومين اِلتباس كبير من قبل شريحة واسعة من مختلف فئات المجتمع وحتى لدى بعض المفكرين، ولمحاولة إزالة هذا الغموض الذي لازم هذين المفهومين لا بد من التطرق إلى مدلول كل كلمة ثم البحث عن نقاط التقارب والانفصال (التباعد) بين المفهومين.

إن الوطنية (Patriotisme) هي حب الوطن والشعور بارتباط باطني نحوه، والقومية (Nationalisme) هي حب الأمة والشعور بارتباط باطني نحوهما[1]. والوطن – من حيث

[1] **ساطع الحصري، الأعمال القومية لساطع الحصري (م.د.و.ع)، ج1، بيروت، 1985، ص9.**

المبدأ– يعني قطعة من الأرض، والأمة (Nation) في حقيقة الأمر إنما هي جماعة من البشر.

وبناءً على ذلك إن الوطنية هي ارتباط الفرد بقطعة من الأرض تعرف باسم الوطن، والقومية: هي ارتباط الفرد بجماعة من البشر تعرف باسم الأمة.

ومن خلال هذه التعريفات الموجزة يتضح أن مفهوم الوطنية لا يختلف عن مفهوم القومية اختلاف كبيرا♦.غير أننا إذا أردنا الإلمام بماهية هذين المفهومين يجب علينا أن نلاحظ علاقة كل منهما بمفهوم ثالث، وهو مفهوم الدولة (Etat).

فالدولة قبل كل شيء هي هيئة سياسية وقد عرفها علماء الحقوق والاجتماع بقولهم "جماعة من البشر يعيشون في أرض معينة مشتركة مشكلين هيئة سياسية مستقلة ذات سيادة"[2].

يتضح من خلال هذا التعريف أن مفهوم الدولة يرتبط بمفهوم الوطن من جهة ومفهوم الأمة من جهة أخرى، بل أصبح يشكل حلقة وصل بين هذين المفهومين، غير أن المشكل الذي يعترض بديهية هذا الترابط، هو أن هذا الارتباط لا يكون على شاكلة واحدة في كل الدول والأمم وعبر مختلف ادوار التاريخ، وهذا يزج بنا إلى البحث عن الأشكال السياسية التي من شأنها تحديد علاقة الأمة بالدولة والوطن، وتعيين علاقة القومية بالوطنية. ففيم تتلخص هذه الأشكال؟

♦ ذلك لأن حب الوطن يتضمن بطبيعته حب المواطنين الذين ينتمون إلى ذلك الوطن، كما أن حب الأمة يتضمن حب الأرض التي تعيش عليها تلك الأمة.

[2] ساطع الحصري، مرجع سابق، ص10.

أ – قد تؤلف الأمة دولة واحدة مستقلة لها كل خصائصها (علم، حكومة خاصة، وجيش خاص)، فالأرض التي تقوم عليها تلك الدولة تصبح وطنا للأمة برمتها. في هذه الحالة تنطبق الوطنية على القومية كل الانطباق، ولا تختلف أهدافها وغايتها عن أهداف القومية اختلافا فعليا، بل تصبح الوطنية تتماشى مع القومية ولا تخالفها أو تعارضها.

ب – غير أن الأمة قد تؤلّف دولا عديدة كل واحدة منها مستقلة بنفسها، ففي هذه الحالة تنشئ كل دولة من هذه الدول وطنية خاصة بها، وتعمل بشتى الأساليب على تقوية هذه الوطنية، في حين نجد القومية تتجاوز حدود هذه الدول المتفرقة وتسعى إلى ربطها برباط معنوي عام. ويمكن القول أنّ القومية في مثل هذه الحالات تنبذ الوطنيات الضيقة وتصبح من أولى أولوياتها إنشاء دولة جامعة لتلك الدول المتعددة والمتفرقة•.

ج – قد تكون الأمة محرومة من دولة خاصة بها وتابعة لدولة أجنبية عنها وفي هذه الحالة تفرض تلك الدولة الأجنبية على جميع أفراد الأمم التابعة لها وطنية عامة، وتفرض عليهم أن يرتبطوا بها وبسائر الأمم الخاضعة برباط هذه الوطنية "الواسعة النطاق". أّما القومية فتعارض ذلك تماما، ففي هذه الحالة تسعى إلى تكوين

• يبدو واضحا –خلال هذه الحالة– أن القومية لا تنطبق كل الانطباق على الوطنية، بل تختلف عنها تمام الاختلاف، لأنها تنزع إلى تقديم مصالح الأمة العامة على مصالح الأوطان الخاصة.

دولة خاصة بهؤلاء الأفراد وتولد في نفوس الأفراد نزعة للاستقلال عن الدولة الأجنبية الحاكمة لجميع تلك الأمم♦.

د – قد تكون الأمة مجزأة وموزعة بين عدة دول أجنبية عنها وتكون محرومة من استقلالها، وفي مثل هذه الحالة تقوم كل دولة من هذه الدول الأجنبية الحاكمة بفرض على جزء الأمة التابع والخاضع لها وطنيّتها هي، ويكون الترابط بين أفراد هذه الأمة على أساس هذه الوطنية. غير أننا نجد أن القومية تعارض ذلك اعتراضا شديدا، إذ تدعو جميع أفراد الأمة في كافة تلك الأقسام المجزأة للاستقلال عن تلك الدول الأجنبية المتعددة وبالاتحاد فيما بينها لتكوين دولة قومية جديدة (Etat nation).

يتبين من خلال هذا التشخيص لأشكال العلاقة بين الأمة، الدولة والوطن، أن القومية تنطبق على الوطنية تارة وتختلف عنها تارة أخرى، وينضم تأثيرها إلى تأثير الوطنية أحيانا، ويضطرب ذلك التأشير أحيانا أخرى غير أن المتتبع لسير الوقائع التاريخية يكاد يجزم أن القومية أصبحت من أهم العوامل التي تؤثر في تطور الدول وتكوين الأوطان منذ أوائل القرن التاسع عشر.

لقد كان مبدأ القوميات من أهم العوامل التي أدت إلى تلك الانقلابات السياسية التي برزت منذ أوائل القرن التاسع عشر، ومنذ هذا التاريخ أخذت النزاعات القومية تتقوى وتسير بسرعة

♦ في هذه الحالة تكون مرامي القومية أضيق نطاقا من أهداف الوطنية، لأن الوطنية التي تغذيها الدول تطلب من أفراد الأمة الارتباط بجميع أراضي الدولة، في حين القومية تحمل هؤلاء الأفراد على الاهتمام فقط بالقسم الخاص بهم دون غيره.

هائلة، فكثير من الأمم أفاقت من سباتها وأصبح بعض الناس يشعرون بأنهم أبناء أمة واحدة متميزون عن أبناء الأمم الأخرى. غير أن السؤال الذي أصبح يطرح نفسه بإلحاح منذ هذا التاريخ ألا وهو :

1) ما هي الأسباب التي تدفع بعض هذه الجماعات إلى مثل هذه الرغبة وتولد فيهم مثل هذه الإرادة؟

2) لماذا يرغب الأفراد أن يعيشوا متحدين كأمة واحدة ومتميزة؟ ولماذا يريدون أن يؤلفوا دول مستقلة؟

وللإجابة عن هذه الإشكالات، لا بأس أن نستعرض بعض النماذج من هذه الحركات القومية التي طبعت فترة القرن التاسع عشر.

2 – نماذج من الحركات القومية: (بلاد البلقان)

لقد تم اختيار منطقة البلقان كنموذج لهذه الدراسة ليس لأنها الحركات القومية الوحيدة التي ظهرت في مطلع القرن التاسع عشر، أو لأنها اشتملت على خصائص قد تعطيها أهمية خاصة، وإنما كان الهدف من ذلك يتلخص في الأسباب التالية :

أولا: إن منطقة البلقان كانت من الأقاليم التي سيطرت عليها الدولة العثمانية طيلة قرون عديدة.

ثانيا: بهدف مقارنة خط سير هذه الحركات وعوامل نشأتها مع الحركة القومية العربية، على اعتبار أن الدول العربية كانت تدخل أيضا ضمن جغرافية الدول

العثمانية.

ثالثا: للإجابة عن إشكالية جوهرية والتي تتلخص في: هل كانت الحركة القومية العربية مجرد حركة امتداد لتلك الحركات القومية التي شاهدتها منطقة البلقان، أم أنها حركة أصيلة في جوهرها وذات أصول عميقة؟

لقد كانت منطقة البلقان تضم شعوب وقوميات مختلفة تتمثل في اليونان والبلغار ورومانيا ويوغسلافيا، كما كانت تضم العرب والأتراك، ولكنها رغم تعددها قد جمعتها وحدة الخضوع والتبعية[3] للسلطة العثمانية منذ نهاية القرون الوسطى حتى استقلت جميعها في شكل دول قومية في نهاية القرن التاسع عشر. وقد تمكنت الدولة العثمانية طيلة عهود طويلة أن تحافظ على وحدة هذه الشعوب، لكن هذا الوضع بدأ يتغير في مطلع القرن التاسع عشر، تاريخ تفجر الشعور القومي لدى هذه الشعوب وبالتالي تعددت الحركات الثورية في مختلف هذه الأقاليم تدعيما لكيان الوحدة القومية في إطار الدولة القومية المستقلة.

أ – الحركة القومية في اليونان

كانت الأمة اليونانية البلقانية التي استفاقت من سباتها وشعرت بقوميتها وثارت على السلطة ونالت استقلالها. لقد حافظت الأمة اليونانية على قوميتها نتيجة المحافظة على اللغة الخاصة بها وتقاليدها الأصيلة، كما ضلت تتمتع بنوع من الكيان القومي بفضل

[3] طعيمة الجرف، أبحاث في المجتمع العربي، مكتبة القاهرة الحديثة، ط 1962–1963، ص91.

تشكيلات الكنيسة الأرثوذكسية• التي ساعدت مساعدة كبيرة على بقاء الروح القومية متغلغلة في نفوس اليونانيين منذ الفتح العثماني، كما سهل لهم ذلك مهمة القيام بالثورات الاستقلالية منذ أوائل القرن التاسع عشر.

وساعد على إثارة الوعي الجديد عدة عوامل أهمها: إثارة أمجاد التاريخ القديم، وارتفاع منزلة أدباءها القديمة، بالإضافة إلى تأثير المتنورين في أوربا بالأدب اليوناني وتجميد تاريخ اليونان القديم وعطفهم على أحفاد اليونان القدماء♦.

إنّ تجمّع العوامل السابقة الذكر، جعل اليونان أسبق للاستقلال عن سائر الدول البلقانية كلها، ولقد اختمرت فكرة الاستقلال القومي الاختمار الكافي في نفوس اليونانيين فحملهم ذلك إلى القيام بثورة مسلحة ضد السلطنة العثمانية.

وهكذا وجدت الأمة اليونانية جميع العناصر التي تحفظ لها وحدتها القومية كاللغة والدين والتاريخ والثقافة وطبقة الزعماء والقادة، كما وجدت عند صحوتها وتحركها المساعدة الخارجية• بما شاعت على ميلاد الدولة القومية اليونانية وانفصالها عن الدولة العثمانية.

• كان للكنيسة أثر كبير في المحافظة على القومية، وقد تعدى أثرها حدود اليونان، حيث شملت دولا أخرى كبلغاريا ورومانيا، وكانت الطقوس الدينية تجري فيهما وفق لطقوس اليونانية، وقد ازدادت قوة سلطة الكنيسة بدرجة كبيرة، ورغم ذلك لم تحاول السلطة العثمانية الحد من هذه السلطة.

♦ تجدر الإشارة إلى أن اتصال اليونان بالأوربيين واطلاعهم على مبلغ اهتمام هؤلاء بتاريخ اليونان وشغفهم بآداب اليونان القديمة كانت نتيجة تفاخر اليونانيين بأمجاد الأجداد.

• تجدر الإشارة إلى أن الدول الأوربية تحمست للثورة اليونانية وساعدتها، ومن أكبر الشواهد على ذلك، مشاركة أساطيلها فعلا في موقعة "نافارين" الشهيرة عام 1827.

ب – الحركة القومية في بلغاريا

سارت الحركة القومية في بلغاريا في مسار يختلف عن سيرها في الأمة اليونانية، فبينما نشأت الفكرة القومية عند اليونان وترعرعت بسهولة وسرعة – نتيجة تضافر العوامل السابقة الذكر – نجد أن البلغار يختلفون عن اليونان في أنهم فقدوا الكثير من مقومات الأمة♦.

لقد كان البلغار في الحقيقة يخضعون لسلطتين أجنبيين الأولى سلطة الدولة العثمانية التي جردتهم من الكيان السياسي، والثانية سلطة الكنيسة اليونانية التي تمس كيانهم القومي مباشرة•. هذه الوضعية المزدوجة رسمت خط الكفاح، فكان عليهم أولا إثبات الكيان القومي وذلك بالتحرر من سيطرة الكنيسة، ثم الحصول على الاستقلال السياسي وذلك بالتحرر من السيطرة العثمانية.

رغم هذه العوائق فقد بدأ الاتجاه القومي يظهر من خلال الاهتمام باللغة البلغارية، إذ تم تأسيس مدارس يتم التعليم فيها باللغة البلغارية، ثم حاولوا التنقيب عن تاريخ من شأنه أن يوقظ الشعب من سباته العميق ويشعره

بأنه له كيانه الخاص وقوميته الخاصة أيضا.

وعندما سعى المفكرون القوميون لبث الفكرة القومية بين الرهبان، ظهر صراع عنيف بين

♦ لعل من أبرز هذه المقومات أنهم كانوا محرومين من تاريخ عريق ومن لغة أدبية راقية... كما أنهم كانوا محرومين أيضا من كنيسة خاصة بهم تساعدهم على حفظ كيانهم القومي.

• الجدير بالذكر أن أثر الكنيسة على البلغار لم يقتصر فقط على إجراء الطقوس الدينية باللغة اليونانية التي تتبعها كنيسة بلغار، بل امتد إلى المدارس التي كانت تعتبر كملحقات للمعابد، وبذلك فالتعليم أيضا كان يتم باللغة اليونانية. وهذا يعني غياب أهم عامل في البناء القومي وهو اللغة.

زعماء القومية وبين رؤساء الدين واختلفت الاتجاهات بين تغيير المذهب الديني وبين الإبقاء على هذا المذهب مع تكوين كنيسة منفصلة لعدم إحداث فرقة بين الوطنيين. وبعد أخذ ورد تم الأخذ بالفكرة الثانية والتي لاقت تأييدا، حتى من طرف الدول الأوربية خاصة روسيا التي كانت تساند القومية البلغارية.

بعد القضاء على السيطرة الدينية اليونانية وتحقيق الاستقلال الثقافي، ركز الوطنيون البلغار جهوده على تحقيق الاستقلال السياسي، إذ أعلنوا الثورة على الدولة العثمانية لتحقيق هذه الغاية. وقد عملت روسيا على تدعيم هذه الثورة ماديا ومعنويا منذ بدايتها وبصورة رسمية♦ تتحقق منها في النهاية إيجاد دولة بلغارية تحت سيادة السلطنة العثمانية، ولكنها تطورت وقويت في مدة قصيرة وأخذت تسير في طريق الدولة المستقلة بأتم معنى الكلمة.

ولم تكف الدولة البلغارية سواء عندما كانت تحت السلطة العثمانية أو مستقلة عن الاهتمام بمصير الجماعات التي بقيت خارج حدودها السياسية•. وقد أصبحت تلك الجماعات ميدانا خصبا لشتى وسائل الدعاية والوعظ والإغراء لزعماء كلا الفريقين، وقد تم اللجوء في العديد من الأحيان إلى أساليب الإكراه والإرهاب وتولدت عنها جمعيات سرية وعصابات مسلحة لإرهاب المعارضين للفكرة القومية أو الخارجين عنها. كما قوبلت تلك الأعمال بأعمال

♦ يرجع سبب عطف روسيا على البلغار لكونهم من الأمم السلافية مثلها، لذلك كانت تحبذ ثورتهم وتشجعها ثم تدخلت في القضية بصفة رسمية عن طريق الاحتجاج على أعمال العنف التي ارتكبتها الدولة العثمانية لإخماد الثورة. هذا ما دفع روسيا للتدخل مباشرة. وإعلان الحرب على الدولة العثمانية سنة 1878.

• للعلم أن تلك الجماعات كانت متذبذبة القومية يشدها تيار القومية اليونانية تارة ويجدبها البريق الجديد للقومية البلغارية الصاعدة تارة أخرى.

مماثلة من عصابات تدعيم القومية الأخرى وبذلك أصبحت هذه الجماعات ملتقى النزاع الدموي بين قوميتين كان مركز الثقل لكل منهما الكنيسة والمدرسة – أي لغة العبادة والتعليم – وبذلك اعتبرت اللغة المقوم الأصلي للقومية والمعيار الوحيد للتفرقة والتمييز بين القومية البلغارية والقومية اليونانية.

جـ – الحركة القومية في رومانيا

كانت الأوضاع في رومانيا تشبه لحد كبير الأوضاع في بلغاريا، فكان الشعب الروماني خاضعا لسلطتين أجنبيتين هما: السلطة العثمانية الإدارية والسياسية من جهة وسيطرة البطريركية (الفنار) من جهة أخرى. كما كانت اللغة اليونانية هي لغة التعليم والعبادة، هذه المظاهر أصبحت توهم بأن رومانيا جزء من بلاد اليونان[4]، لذلك كان الكفاح القومي في أوائل القرن التاسع عشر يتجه إلى مقاومة السيطرة اليونانية ممثلة في الكنيسة الأرثوذكسية بأكثر مما يتجه إلى مقاومة الحكم العثماني بهدف تحقيق الاستقلال السياسي.

بدأت الحركة القومية في هذا البلد أولا بجهود للنهوض باللغة الرومانية. ثم بأبحاث في التاريخ الخاص بالأمة الرومانية مع نشر نتائج هذه الأبحاث بين عامة الناس لإثارة الحس القومي في نفوسهم، فبدأوا بإنشاء المدارس والمراكز الثقافية وتنشيط حركة الآداب الرومانية والاهتمام بالتربية القومية.

---

[4] مما يؤيد مظاهر هذه الغريبة، أن زعيم الثورة اليونانية المشهورة "إيبسلانتي" قام بثورته الأولى في رومانيا قبل أن ينتقل إلى بلا د اليونان نفسها.
أنظر: ساطع الحصري، مرجع سابق، ص88.

لقد لقي هذا الاتجاه معارضة شديدة من قبل اليونانيين فقام نضال بينهم لم يستمر مدة طويلة[5]. بهذه الثورة تمكنت القومية الرومانية من إنهاض لغتها الخاصة، ثم اتجهت إلى تصفية أمر خضوعها للسلطنة العثمانية حتى تتمكن من تحقيق استقلالها السياسي وقد وجدت هذه الثورة الدعم الكامل من روسيا♦.

لم ينسى الرومان الجماعات الرومانية خارج الحدود السياسية للدولة الناشئة بل بذلوا جهود كبيرة من أجل جذبهم للانضمام إلى الجزء المستقل من أمتهم الأصلية وقد لعبت الدعاية وسياسة الترغيب وفتح المدارس ونشر الدعوة القومية دورا فعالا في سبيل تحقيق ذلك.

د – الحركة القومية في ألبانيا

تختلف ألبانيا عن بقية دول البلقان رغم اشتراكها معها في وحدة التبعية للسيادة العثمانية، فألبانيا أصغر شعوب البلقان دخلوا تحت حكم السلطنة العثمانية في أواسط القرن الخامس العشر ويعتنق معظم سكانها الدين الإسلامي مع ارتباطها بالخلافة ارتباطا شديدا. ولكن الشعور القومي سرى بين السكان وبدأوا يشعرون بكيانهم القومي إثر تعدد الثورات الانفصالية

[5] توفرت عدة عوامل ساعدت على تقليص مدة الثورة، لعل من أهمها: أن رومانيا اكتسبت مبكرا كيانا سياسيا دعم فكرة القومية، كذلك موقعها الجغرافي ووجودها في أقصى الحدود الشمالية من أوربا العثمانية حيث لم ينتشر بها الإسلام ولم يكن بين سكانها عناصر أجنبية. كل ذلك ساعد على اندفاع الحركة القومية فيها. أنظر: عبد الغني البشري، أثر سياسية القوميات في الحركة القومية العربية، 1966، ص80.

♦ عطفت وساندت روسيا الثورة الرومانية هذه المرة ليس لأنها تمثل أمة سلافية بل بحكم تزعمها الحركات الانفصال في البلاد البلقانية، بهدف تحقيق انتصاراتها على الدولة العثمانية من جهة وبقصد إعادة مجد الإمبراطورية البيزنطية من جهة أخرى.

بين البلغار والرومان واليونانيين•. غير أن هذا التيار القومي سرعان ما اعترضه مشاكل أثرت على سير الحركة وكان في مقدمتها المحاولة الجدية في النهوض باللغة الخاصة وإحلالها محل التركية التي كانت تمثل اللغة الرسمية في المدارس الرسمية واللغات الأوربية المختلفة في المدارس الأجنبية. وقد أحدث عدم وجود لغة المدونة في ألبانيا والبحث عن أفضل الحروف التي تكتب بها تلك اللغة انقساما في الفكر، فبعضهم كان يتابع الحروف العربية بينما الضغط الأجنبي كان يؤيد الاتجاه إلى اللغة اللاتينية، كما أن تعرض السلطنة العثمانية لهذه الحركة القومية قد فرض على ألبانيا الدخول معها في صراع مسلح عجزت تركيا في النهاية عن إخماده.

أدت هذه العوامل مجتمعة إلى تعثر الحركة القومية في ألبانيا حتى هزمت الدولة العثمانية في حرب البلقان سنة 1913م، ومنذ هذا التاريخ أخذت ألبانيا تعزز قوميتها بكل ما لديها من قوة.

هـ – الحركة القومية في يوغسلافيا

إن نشوء الحركة القومية في يوغسلافيا كان أكثر تعقيدا من نشوئها في النماذج السابقة، ذلك لأنّ الأمة اليوغسلافية نفسها كانت اعقد تركيبا من الأمة اليونانية والرومانية♦.

• يمكن إرجاع ذلك لسببين اثنين: أولهما خشية أن تؤدي هذه الثورات الانفصالية إلى إذابتهم في واحدة منها، وثانيهما عندما لاحت لهم بوادر الانهيار الكامل للدولة العثمانية، فخافوا أن يلقوا معها نفس المصير إن هم ظلوا مرتبطين بها.

♦ للعلم أن الدولة اليوغسلافية ضمت شعوب مختلفة: الكروات، السلوفن والبوشناق وهي وإن جمعتها وحدة اللغة اليوغسلافية إلا أنها قد عاشت زمنا طويلا في حوزة سلطات سياسية مختلفة أكسبتها تقاليد وحضارات متباينة.

ورغم ذلك فقد بدلت جهود حثيثة في النهوض باللغة القومية من ناحية وإحياء التاريخ من ناحية أخرى.

أما اللغة فقد قاموا بتدوين قواعدها وجمعوا كلماتها في قاموس محيط وترجموا الكتاب المقدس إليها وألفوا بها كتبا أدبية وعلمية. وبذلك هيئوا الرسائل اللازمة لجعلها لغة علم وأدب، ولغة التعليم والعبادة.

وفي ظل هذا الاتجاه في بناء المقومات اليوغسلافية تزعمت الصرب الدعوة إلى القومية اليوغسلافية وقد بدأت حركتها باسم "القومية الصربية" منذ سنة 1817م حتى تحصلت على الاستقلال الذاتي تحت السيادة العثمانية سنة 1830م[6]. وفي سنة 1876م سارعت الصرب لمساعدة ثوار البوسنة والهرسك وأعلنت الحرب على تركيا، غير أنها منية بهزيمة قاسية، عندئذ تدخلت روسيا وأعلنت الحرب على تركيا في ابريل 1877م وبذلك قررت قوة روسيا العسكرية استقلال الصرب في مؤتمر برلين سنة 1878م[7] في إطار الملكي الوراثي عرف باسم المملكة الصربية.

غير أن زعماء الحركة القومية لو يكتفوا بهذه النتيجة واتجهوا بأبصارهم إلى الكروات والسلوفين باعتبار أن هؤلاء يكونون معهم أمة سلافية واحدة، فاخذوا يعملون على تحرير هذه الولايات وتوحيدها معهم في دولة واحدة وكونوا لهذا الغرض الجمعيات السرية. وعندما

---

[6] طعيمة الجرف، مرجع سابق، ص104.

[7] هافز كوهن، القومية (معناها وتاريخها)، تر، أمين محمود الشريف، مطبعة نهضة مصر، (ب ت)، ص90.

انتهت الحرب العالمية الأولى تم إلحاق الكروات والسلوفين والبوشناق والبوسنة والهرسك بالمملكة الصربية، وتكون من جميع دولة سلافية مركبة باسم "الدولة الصربية الكرواتية السلوفينية".

تعرضت هذه الدولة الناشئة نتيجة تباين العادات والتقاليد إلى بعض العقبات التي كادت تعترض نموها، إذ كان أخطرها إثارة النزاعات الإقليمية ولكن الشعور بالوحدة القومية كان أقوى من هذه النزاعات التي زالت في ظل الاتجاه القومي وولدت دولة موحدة باسم "يوغسلافيا" والتي تعتبر عن تمام الانصهار والاندماج في إطار الوحدة القومية.

بهذه الصورة تكونت في شبه جزيرة البلقان خمس دول مستقلة مؤسسة على أسس قومية. ويظهر من خلال الوقائع والإحداث التي تطرقنا إليها أن الحركات القومية في جميع هذه الدول بدأت بالاهتمام بالغة القومية وبالتاريخ القومي.

ونستطيع القول أنّ اللغة كانت العامل الأصلي من جهة والهدف الأساسي من جهة أخرى في جميع هذه الحركات القومية، وأما تأثير الأديان والمذاهب في هذه الحركات فكان أضعف بكثير من تأثير اللغات فيها وخلاصة القول صارت اللغة العامل الأساسي في تحديد القوميات وتكوين الدول في جميع بلاد البلقان، لكن هل يمكن إسقاط صورة تكوين الدول القومية في منطقة البلقان على البلدان العربية؟ وهل سيكون للغة العربية والتاريخ ذلك الدور الذي لعبته في منطقة البلقان؟

اختلف المفكرون كثيرا في تحديد أسس القومية العربية، كما اختلفت النظرة باختلاف العصور

والأزمنة، غير أن الآراء اتفقت على أنه من الضروري أن يكون بين الأفراد الذين يؤلفون قومية واحدة، شعور عام مشترك يمكّنهم من العيش معا. ولكن ما هو هذا الشعور المشترك؟ ومما يستمد وجوده وقوته؟

يرى بعض المفكرين أن الوحدة الجغرافية تعتبر من أهم العوامل التي تكون القوميات، وقد زعم البعض أن الأمة وليدة البيئة الجغرافية، ويتحدث بعض أعداء القومية العربية عن اختلاف الأقطار العربية في المناخ، والأحوال الطبيعية، والعوامل الجغرافية ويزعمون أن هذا الاختلاف يستلزم تعدد الدول ويحول دون اتحاد البلاد العربية. هناك أدلة عديدة تنفي هذا الاتجاه، فاليونانيون في الوقت الحالي يسكنون بلادا مختلفة السطح في أجزائها ومع ذلك احتفظوا بوحدتهم القومية. في حين أن سهل هنغاريا (المجر) الذي يشكل وحدة جغرافية لم يؤدي إلى خلق أمة هنغارية من الشعوب المختلفة الساكنة فيه.

ويظن الناس عادة أن كل أمة من الأمم تنحدر من أصل واحد، ويزعمون أن جميع أفراد الأمة الواحدة يكونون بمثابة الأشقاء المنحدرين من صلب أب واحد.

غير أن هذا الاعتقاد لا أساس له من الصحة، لأن جميع الأبحاث العلمية المستمدة من حقائق التاريخ تؤكد، أنه لا يوجد على وجه الأرض أمة تنحدر من أصل واحد فعلا، ولا توجد أمة خالصة الدم تماما[8]، كما أن جميع الأمم التي نعرفها اليوم، قد تكونت نتيجة تداخل عشرات العروق والأجناس في مختلف أدوار التاريخ. وبذلك فإن الاعتقاد بوحدة

---

[8] ساطع الحصري، آراء وأحاديث في الوطنية والقومية، (م.د.و.ع)، بيروت، 1992، ص18.

الأصل والدم في الأمم إنما هي من الأوهام التي استولت على العقول والأذهان.

إن العامل الرئيسي في تكوين القومية والذي انعقد عليه الإجماع، هو اللغة، ويرى ساطع الحصري أن الأمم تتميز بعضها عن بعض على أساس اللغة[9]، وهو إذ قرر ذلك إنما يستند إلى تجارب الأمة العربية أكثر مما يعتمد على نظريات المفكرين الغربيين.

إن اللسان المشترك عظيم الأهمية للفكرة القومية، وقد لعبت اللغة العربية دورا هاما في تاريخ العرب فهي سجل إبداعهم ورمز وحدتهم وتعبير كفاءاتهم العقلية والفنية.

تلي اللغة من حيث الأهمية في نشأة القومية العربية التاريخ ويصف ساطع الحصري التاريخ بأنه "الذاكرة الحية للأمة" ويقول "ان وحدة هذا التاريخ توّلد تقاربا في العواطف والنزعات، إنها تؤدي إلى تماثل في ذكريات المفاخر السالفة وذكريات المصائب الماضية، وإلى تشابه في أماني النهوض وآمال المستقبل"[10].

فالتاريخ بوصفه خزانا لتجارب الأمة جميعها، ضروري لبناء الحاضر ووضع خطط المستقبل وفق أسس الماضي، ومن المعروف أن استمرار الاتصال بين الماضي والحاضر يولد قوة.

ولكن العوامل التي تؤثر في تكوين الأمم وتميز بعضها عن بعض، لا تنحصر في اللغة والتاريخ بل هناك عوامل أخرى أهمها الدين:

لم يسبق لموضوع قط أن آثار من الجدال ما أثاره الدين على صعيد البحث القومي، ذلك

---

[9] ساطع الحصري، مرجع سابق، ص20.

[10] ساطع الحصري، مرجع نفسه، ص22.

لحساسية هذا العامل خاصة بالنسبة للعالم العربي.

فقد ساهم العنصر المسيحي العربي رغم قلة قوته العددية، مساهمة فعالة في الحركة القومية العربية• لذا أصبح مقررا لدى قادة الفكر وجوب إبعاد الدين عن الحياة السياسية لتنصهر الأمة في بوتقة تقدمية واحدة، ولا يمكن إقناع العناصر غير المسلمة بأن تساهم إسهاما فعالا في عملية تشكيل الأمة إلا بهذا الطريق.

ومن خلال مما سبق يتبين أنه صحيح كان للعوامل السابقة الذكر تأثير في تكوين القومية العربية إلا أن اللغة والتاريخ يعتبران أس الأساس في تكوين القومية العربية.

3. العرب

كانت شبه جزيرة العرب هي مهد العرب بل ومهد الساميين، ويرى كثير من المؤرخين الأوربيين أن العرب والساميين شيء واحد، فقال "سبرنجر" أن «...جميع الساميين عرب، وكان منهم المستقرون في الأراضي الخصبة ومنهم البدو المتنقلون، وكان هؤلاء البدو إذا عجزت جزيرة العرب عن مدّهم بحاجاتهم الاقتصادية تنقلوا إلى بلاد الهلال الخصيب في الشمال على شكل هجرات واسعة، فيستقرون فيها ويمتزجون بسكانها الأصليين...».

خرجت هذه الهجرات إلى الهلال الخصيب (الشام والعراق) لوفرة الماء والكلأ والموارد الاقتصادية وقد بدأت هذه الهجرات في وقت مبكر جدا، فمنها ما يرجع عهده إلى أربعة

• يبين جورج انطونيوس عند نطرق لحركة القومية العربية ذلك الدور الرئيسي الذي لعبه العرب المسيحيون غي طورها الأول، كما أن نصف المؤلفات التي اعتمدنا عليها في هذا الموضوع هي من تأليف عرب مسيحيين.

ألاف سنة قبل الميلاد مثل الأكاديين إلى العراق حيث استقروا في جنوبي العراق وامتزجوا بالسومريين مكونين الحضارة السومرية الأكادية، ثم حل محلهم العموريون الذين امتدوا إلى شمال سوريا، ثم الأشوريون الذين أسسوا في شمال العراق إمبراطورية امتدت إلى ضفاف النيل ثم الفينيقيون الذين استقروا في سواحل الشرقية من البحر المتوسط (سنة 2600 ق.م)، والعبرانيّون الذين سكنوا في فلسطين فترة طويلة وهذا يوضح لنا أن جيوش المسلمين العربية عندما سارت لفتح الشام والعراق ومصر وجدوا معظم سكانها إما عربا وإما أقواما من أصول سامية(عربية قديمة)، لذلك تفاهم الفاتحين مع السكان الأصليين وحدث اختلاطهم واندماجهم في قومية عربية واحدة.

لقد أقبلت شعوب البلاد المفتوحة على الإسلام♦ كما اقبلوا على اللغة العربية وتخلوا عن لغتهم القديمة، وبدأت عملية تعريب واسعة النطاق• وامتزجت دماء هذه الشعوب بالدماء العربية عن طريق التزاوج والتخلق بأخلاق العرب ونظمهم الاجتماعية.

لقد استغرقت عملية التعريب زمنا طويلا، فقد ظل أثر العنصر العربي ضعيفا في برقة وطرابلس إلى القرن الحادي عشر، حيث كان البربر يمثلون غالبية السكان، على أن هجرة

♦ أقبلت البلاد المفتوحة على اعتناق الإسلام لعدة اعتبارات، فالبعض كلن يدفعه في ذلك الإعجاب بالدين الجديد والبعض الأخر للتخلص من الجزية المفروضة على غير المسلمين، وهناك من دفعه إلى ذلك محاولة الخلاص من الاختلافات الدينية والمذهبية في الكنيسة المسيحية.

• للإشارة أن عملية التعريب لم تسر جنبا إلى جنب مع حركة إدخال الناس في الإسلام لأسباب أهمها: أن استقرار العرب في البلاد المفتوحة لم يكن بأعداد متساوية، فقد استقروا في بعض الأقطار (الشام والعراق) بأعداد كبيرة في حين استقر العرب في مصر وشمال إفريقيا بأعداد أقل، ولذا كانت عملية التعريب أكثر بطئاً.

قبائل بني سليم وبني هلال المصرية النجدية التي استقرت في مصر في أوائل الفتح العربي إلى برقة وطرابلس وتونس، أدت إلى التعجيل بالتعريب أعداد ضخمة من البربر، فعززت القومية العربية. ومما قوى عملية التعريب في شمال إفريقيا وخاصة بمراكش نزوح جماعات وافرة العدد من العرب من اسبانيا بعد سقوط الأندلس في يد الإسبان.

أخذ العرب يتسرّبون إلى السودان بعد فتح مصر مباشرة♦ وحدث الامتزاج العرب الحاميين الساكنين في الأقسام الشمالية والشرقية من السودان والبربر الحاميين النازحين من إفريقيا الشمالية والزنوج الإفريقيين، وتوّلد الشعب العربي المسلم الذي يؤلف أغلبية السكان في الأقسام الشمالية والوسطى من السودان، وقد كملت عملية تعريب السودانيين وإدخالهم في الإسلام حوالي القرن السادس عشر الميلادي بزوال آخر بقايا دولة النوبة المسيحية.

ثم بدأت طور جديد فقد بدأ امتزاج دماء أخرى بالدماء العربية، فقد تدفقت على العالم العربي شعوب مختلفة منها من أتت مسالمة مثل الفرس والهنود والأكراد والأرمن والزنوج والأتراك الذين قدموا عمالا وصناعا وجواري ورقيقا، ومنها من أتت غازية فاتحة مثل البويهّيين الفرس والسلاجقة الأتراك والمغول وأخيرا الأتراك العثمانيين الذين حكموا العالم العربي طيلة أربعة قرون. وقد خلفت هذه الشعوب نسلا يتميز بدمائه إلى سلالات غير سامية، وأصبح يشكل أقلية وبقي الدم العربي سائدا في البلاد العربية لشدة تأصله ولم يتمكن شعب من الشعوب التي ذكرت أن يخلّف وراءه طابعه الخاص في البلاد العربية لان كل الثقافات غير العربية

♦ للتوضيح أن هجرة القبائل العربية الجماعية ترجع إلى القرنيين الثالث عشر والرابع عشر ميلادي.

كانت تمر فيها مرّ الكرام كما كانت الثقافة العربية تتغلب عليها وتطويها طيّا.

وعلى الرغم من أن سيادة العثمانيين البلاد العربية كانت طويلة الأمد فإنهم لم ينجحوا في عملية التتريك. لقد استعمروا البلاد العربية سياسيا ولكن العرب أثناء هذا الاستعمار استعمروهم أدبيا وثقافيا[11].

إن كل من ينتسب إلى البلاد العربية ويتكلم اللغة العربية فهو عربي مهما كان اسم الدولة التي يتبعها، ومهما كانت الديانة التي يدين بها والمذهب الذي ينتمي إليه. والعروبة ليست خاصة بأبناء الجزيرة العربية ولا مختصة بالمسلمين وحدهم، بل إنها تشمل كل من ينتسب إلى البلاد العربية ويتكلم اللغة العربية سواء أكان مصريا أو لبنانيا أو جزائريا، وسواء أكان مسلما أو مسيحيا، فهو من أبناء العروبة مادام ينتسب إلى بلاد عربية ويتكلم اللغة العربية.

4. العالم العربي

العالم العربي هو الموطن الذي يسكنه العرب، ويمتد من الخليج العربي شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا، ومن جبال طوروس في جنوب تركيا شمالا إلى المحيط الهندي ومنابع النيل والصحراء الكبرى جنوبا. وينقسم العالم العربي جغرافيا إلى قسمين قسم في غرب أسيا وقسم أخر في شمال إفريقيا. يضم القسم الأول جزيرة العرب (نجد، الحجاز، اليمن، عدن، حضر موت، عمان، قطر، البحرين، والكويت) والعراق والشام (سوريا، لبنان، فلسطين، والأردن). أما القسم الثاني فيشمل على مصر والسودان وليبيا (طرابلس وبرقة)

[11] علي حسين الخربوطلي، القومية العربية من الفجر إلى الظهر، (د.إ.ك.ع)، (ب ت)، ص20.

وتونس والجزائر والمغرب الأقصى. كما هناك بلاد بعض سكانها عرب ويتكلمون العربية مثل زنجبار وبلاد صومال وأواسط إفريقيا وغيرها. وبذلك نستطيع القول أنّ الوطن العربي يشكل كتلة جغرافية متكاملة ومتجانسة رغم وجود بعض العقبات الطبيعية (التضاريس).

لم تعد العوامل الطبيعية وحدها تعيّن حدود الدول وتتحكم في مصائر الشعوب بعد أن تقدمت وسائل المواصلات، فربطت الأقطار المتباعدة وأتاحت للدول الكبيرة أن تتوحد رغم ما بين أجزائها من اختلاف في طبيعة الأرض والمناخ والموارد الاقتصادية، وقضت على جميع الموانع الطبيعية. فالدول الحديثة إنما تقوم على إرادة شعوبها في المعيشة المشتركة المستندة إلى المصالح المادية المتبادلة، والعقليات المتقاربة والآمال والأهداف الواحدة وليس على أسس جغرافية بحته•.

لقد استطاع الإنسان في القرن الحالي السيطرة على العوامل الطبيعية والجغرافية، إلا أن أجزاء العالم العربي مازالت تعاني من تحديات هذه العوامل وذلك نتيجة نقص وسائل التقارب (المواصلات) التي تسهل عليها الاتصال السريع. ولا شك أن صعوبة الاتصال تؤدي إلى ظهور النزعات الإقليمية في بعض الأقطار العربية فيطبع كل قطر بطابع خاص، فيصبح له عاداته وتقاليده ولهجته وقوانينه وظروفه الاجتماعية الخاصة به. وهذه الصعوبات قد تؤدي إلى منع امتزاج بعض الشعوب وانصهارها في بوتقة واحدة، وقد تؤدي أيضا إلى

• هذا لا يعني التقليل من شأن أثر الاتصال الجغرافي في بناء القومي للأمم لأن فقدان الاتصال الجغرافي قد يؤدي إلى بقاء أجزاء الأمة الواحدة منفصلة عن بعضها البعض رغم اتحادها في اللغة والتاريخ وقد يؤدي –بمرور الزمن– إلى تباعد وتباين في اللغة والتاريخ أيضا.

ظهور أقليات قويمة ودينية.

تتصل أقطار العالم العربي اتصالا مباشرا مستمرا دون أن تخل بانسجامها الإثنولوجي دولة غريبة، سوى إسرائيل التي أصبحت (شوكة سامة في الجسم العربي)، ومصيرها الفناء إن شاء الله حتى يتم الاتصال والانسجام بين جميع أجزاء العالم العربي.

5. التيارات والنزعات الفكرية والسياسية في الولايات العربية العثمانية

في أوائل القرن التاسع عشر عندما بدأت "الفكرة القومية" تلعب دورا هاما في السياسة الأوربية، كانت البلاد العربية خاضعة تحت السيطرة العثمانية منذ قرون عديدة♦، هذا الاستيلاء على البلاد العربية لم يكلف الدولة العثمانية حروبا عديدة لأن الوضع لم يكن يتطلب محاربة السكان وإنما كان يستلزم فقط محاربة الدول المسيطرة عليها.

ومع نهاية الفتح الأول لم تتعب الدولة العثمانية لتثبيت أقدامها في البلاد العربية، لأن الأهالي كانوا يخضعون لحكمها خضوعا طوعيا، لكونها دولة إسلامية•.

غير أنه في النصف الأول من القرن التاسع عشر حدث في البلاد العربية حادثان مهمان خلقا اضطرابا في السلطنة العثمانية وهما: ثورة الوهابيين في نجد، وثورة محمد علي في

♦ يستثنى من ذلك، المغرب الأقصى من جهة، وحضرموت وقلب الجزيرة العربية من جهة أخرى.

• يجب الإشارة هنا إلى أن هذه الحالة لا تنطبق على بلاد اليمن، لأن الجيش العثماني افتتحها عنوة وبمحاربة أهل البلاد مباشرة. ولعل السبب في ذلك لكونهم زيديون ولاعتقادهم، أن الخلافة الإسلامية لقريش ولأبناء الإمام زيد بصفة خاصة.

مصر.

فقد كانت الحركة الوهابية حركة دينية في المقام الأول، هذا لم تؤثر في نشوء الفكرة القومية العربية تأثيرا كبيرا. أما ثورة محمد علي فإنها لم تستمد قوتها من نزعة قومية♦. لذلك فعند دراسة فكرة نشوء القومية العربية، يجدر بنا التركيز على دراسة أوضاع العراق وبلاد الشام بصفة خاصة منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

كانت الدولة العثمانية دولة إسلامية بكل معنى الكلمة، لذلك كانت تعامل المسلمين العرب عكس معاملتها للمسيحيين. فالمسلمون كانوا يدعون للخدمة العسكرية ويشتركون في حروب الدولة، لذلك كانوا يندمجون في الدولة العثمانية ولا يعتبرونها دولة أجنبية.

أما المسيحيون من العرب، فكانوا من رعايا الدولة شأنهم في ذلك شأن سائر المسحيين، فلا يدعون للخدمة العسكرية ولا يشتركون في حروب الدولة ولا يبالون بانتصاراتها أو هزائمها، غير أنهم كانوا يتمتعون بتشكيلات طائفية وحقوق طائفية تعترف بها الدولة.

إذا كان ذلك حالهم مع السلطنة العثمانية فإنهم كانوا أكثر اتصالا بالغربيين، وبالبلاد الغربية، لأن اعتقاداتهم الدينية وأحوالهم الاجتماعية ما كانت لتضع بينهم وبين الغربيين حواجز معنوية. لذلك كان تأثير الأوربيين في هؤلاء أقوى من تأثيرهم في العرب المسلمين.

لهذه العوامل نشأت الفكرة القومية عند المسلمين على شكل يختلف من نشأتها عند

♦ من باب الإنصاف أن نشير إلى أنه رغم نقائص هذه الثورة إلا أنها خدمت القومية العربية خدمة كبيرة ولو بطريقة غير مباشرة، لأن إنجازاتها فتحت المجال واسعا لقيام نهضة فكرية وأدبية.

المسحيين، وبعد مرور مدة طويلة التقى الطرفان في تصور مشترك للفكرة القومية العربية.

فما هي مظاهر الفكرة القومية العربية عند كل طرف؟

كان العرب المسلمون التابعون للدولة العثمانية ينظرون إلى التاريخ بنظرة إسلامية محضة، فقد كانوا يرون أن الخلافة الإسلامية انتقلت من الراشدين إلى الأمويين والعباسيين فالعثمانيين، ومن هنا ما كان يجب تسمية التاريخ بتاريخ الأمة العربية.

ولكن بعد أن بدأت الأذهان تستيقظ بدأ التفكير في أمور الخلافة الإسلامية وبدأ التشكيك في صحة اعتبار العثمانيين خلفاء للمسلمين، وظهر عندئذ تيار يرى أن الخلافة الإسلامية من حق العرب ويجب أن تعود للعرب.

لم يقف هذا التيار العربي الإسلامي الجديد عند هذا الحد، بل أخذ بعض المتنورين يفكرون في القومية العربية بتفكير مستقل عن الاعتبارات الدينية، فراحوا يصفون سوء الأحوال في البلاد العربية ويطالبون بالإصلاحات. وقد تزامن ذلك مع قيام جماعة من المتنورين الأتراك بالتنديد بمساوئ الحكم ويطالبون بإصلاح الأوضاع. وقد رأى المفكرون العرب ن ضرورة الاشتراك مع هؤلاء في هذا الاتجاه آملين أن ما يحدث من الإصلاح العام في جهاز السلطنة العثمانية بفضل هذه المساعي المشتركة لابد أن يفيد البلاد العربية ويخدم مصالح العرب[12].

أما العرب المسيحيون فكانت نظرتهم تختلف عن ذلك اختلافا واضحا، فهم لم يكونوا يرتبطون بالدولة العثمانية ارتباطا قلبيا، فقام من بينهم جماعة من المتنورين بدراسة التاريخ

---

[12] ساطع الحصري، مرجع سابق، ص123.

من الكتب الغربية تم يرجعون إلى التواريخ العربية، وبعد دراسات عميقة، توصلوا إلى حقائق مفادها أن الأمة العربية كانت لها حضارة عظيمة قبل الإسلام وبعده، وأن المسيحيين ساهموا في بناء هذه الحضارة، ولذا يجب على العرب المسحيين أن يفتخروا بالتاريخ العربي وبالحضارة العربية مثل المسلمين منهم، ويجب عليهم أن يتحدوا مع هؤلاء لإعادة بعث الأمة العربية. وقد كان هذا التفكير بمثابة البذور الأولى لفكرة القومية العربية الخالصة والمجردة من الاعتبارات الدينية.

لقد نشأت الفكرة القومية العربية عند المفكرين المسيحيين قبل أن تنشأ بين المسلمين، غير أن انتشار الفكرة بين المسحيين جرى ببطء واستغرق وقتا طويلا، ولعل ذلك يرجع إلى مطامع الدول الأوربية في البلاد العربية. فقد كانت تطلب من ساستها ومبشريها بذل كل الجهود لإبعاد المسحيين عن فكرة العروبة[13] حتى تتمكن من ضرب العرب والأتراك بعضهم ببعض خدمة لمصالحها الخاصة في المنطقة.

لم تظل النظرة القومية سواء عند العرب المسيحيين أو المسلمين على هذا الحال من التباين والاختلاف، إذ أنه بحلول القرن العشرين أخذت المساعي العربية تتوحد، وأخذت الفكرية القومية العربية ترسم طريقها نحو المستقبل رغم الاختلاف الإيديولوجي الذي ميّز عمل مختلف الجمعيات والأحزاب القومية العربية.

---

[13] كانت لهذه الدول خاصة فرنسا وإنجلترا يد طويلة في إذكاء نيران التعصب الديني الطائفي بينهم في البلاد العربية. أنظر: ساطع الحصري، مرجع سابق، ص124.

الفصل الأوّل

الفصل الأول:

أثر الحكم العثماني والغزو الغربي على نمو الوعي القومي العربي

أولا: أوضاع البلاد العربية في ظل الحكم العثماني

1 – الأوضاع السياسية

أ – استمالة العرب إليه

ب – دعم فكرة الجامعة الإسلامية

2 – الأوضاع الاقتصادية

3 – الأوضاع الثقافية والاجتماعية

ثانيا: الصراع الأوربي على الحوض المتوسطي وتأثيراته على المنطقة العربية

1 – ظروف قيام الصراع

2 – أسبابه

أ – الأسباب الجيوإستراتجية

ب – الأسباب السياسية

جـ – الأسباب الاقتصادية

3 – مجالاته

شهدت الدولة العثمانية منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر تحديات داخلية وخارجية خطير امتدت أثارها حتى إلى فترة حكم عبد الحميد الثاني (1876 – 1909)، فقد اشتد الغزو الغربي وتمثل – جنب الغزو التجاري والرأسمالي – في خضوع بعض الكيانات لديون غربية ضخمة حتى أعلنت السلطنة العثمانية عجزها المالي سنة 1875 ومصر في 1876. هذا إلى جانب نتائج الحرب الروسية العثمانية (1877 – 1878) التي أفقدت هذه الدولة معظم ولاياتها الأوربية وفي دخول بريطانيا مصر سنة 1882 واستيلاء فرنسا على تونس سنة 1881. أما على الصعيد الداخلي، فقد عرفت الولايا ت العثمانية ومنها العربية حالة من التخلف وسوء الحكم، هذه الأوضاع صارت مصدر إثارة وخوف بالنسبة للعناصر الوطنية العربية.

أولا: أوضاع البلاد العربية في ظل الحكم العثماني

1 – الأوضاع السياسية

رغم كل الاحتياطات الإدارية والعسكرية التي اتخذتها الدولة العثمانية لتستقر أحوال البلاد العربية ومنع كل حركة تمرد شعوب المنطقة على حكمها، فقد اشتدت حركات العصيان والتمرّد واستفعل خطرها منذ القرن الثامن عشر الميلادي، وبذلك اختل التوازن الذي رسمته الدولة العثمانية. وقد تجسد هذا الاختلال في التوازن بين السلطة المركزية التي يمثلها الباشا أو الوالي، وبين مختلف أجهزة المؤسسة العسكرية خاصة القوات أو الزعامات المحلية، هذا فضلا عن عمليات النهب والغزو والتمرد على السلطة المركزية التي كانت

تقوم بها الزعامات المحلية والإقطاعيين، وكانت رغبتهم في ذلك الاستقلال والانفراد بالحكم في مناطقهم.

عندما كانت الدولة العثمانية في أوج قوتها ومتحكمة في مؤسساتها السياسية العسكرية والدينية والإدارية، كانت البلاد العربية تتمتع بنوع من الأمن والاستقرار، غير أنه لما أصاب الدولة العثمانية الضعف والتراجع تراخت قبضتها على ولاياتها فأصبحت الزعامات المحلية تتصرف في الأقاليم الخاضعة لها حسب أهوائها. مما أدخل الدولة في دوّامة من الصراعات انعكست آثارها سلبا على الأهالي، وقد كانت الدولة العثمانية تواجه هذه المستجدات أحيانا بعدم الاكتراث.

ففي العراق أدى فساد الإدارة إلى ضعف قبضة الولاة على البلاد وإلى انتشار موجة العداء بين السلطة العثمانية والمواطنين[14] وإلى مقاومتهم لحكمها. وقد نجم من الحكم العثماني تمزق وحدة الوطن نتيجة اشتداد العصبيات وبروز العديد من الولاءات التي كان أبرزها العصبية للدم والمال. وقد واكب هذا التفكك اشتداد وزيادة الخلافات الطائفية والمحلية، وتنافست العصبيات من أجل امتلاك السلاح للحفاظ على ممتلكاتها، وبذلك هجرت الزراعة وسادت حالة من التدهور الاقتصادي والاجتماعي. كما ساءت الأحوال الصحية• واختل الأمن وازدادت الضرائب.

---

[14] شوقي عطا الله الجمل، وآخرون، تاريخ العالم العربي الحديث والمعاصر منذ الفتح العثماني للعالم العربي حتى الوقت الحالي، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1998، ص43.

• في سنة 1831 تفشى في العراق مرض الطاعون وحصد نحو 80 % من سكانها.

أما بلاد الشام وتحديدا لبنان، فكانت تعيش في وضعية خاصة نتيجة الصراع الديني حيث خلف انتقادات اتجاه إظهار المشاعر الدينية ضد السلطة العثمانية، فقد شهدت هذه المنطقة صراع عنيف ومستمر بين الكنائس المسيحية، وقد كان للدول الأوربية خاصة فرنسا يد طويلة في إثارة مثل هذه الصراعات الطائفية، وذلك حتى تتخذها ذريعة للتدخل في شؤون الولاية. وقد نجحت في تنفيذ مخططاتها بعد المذابح التي حدثت بين الدروز والموارنة عام 1860م♦. وعلى إثر هذه الأوضاع تم تكوين لجنة دولية في جوان 1861 لوضع نظام سياسي جديد يحكم لبنان أصبح بمقتضاه تحت حكم ذاتي برئاسة حاكم مسيحي يخضع للباب العالي مباشرة عرف باسم المتصرف يساعده مجلس إداري مكون من 12 عضوا، عضوان لكل طائفة من الطوائف الدينية الكبرى[15].

أما مصر فكانت أوضاعها تختلف تماما عن أوضاع باقي الولايات العثمانية، فقد حافظت على استقلالها الذاتي ولم تقم الدولة العثمانية بأي محاولة للتقليل من سيادة مصر في عهد محمد سعيد. وفي عهد إسماعيل باشا توثقت العلاقات بين مصر والدولة العثمانية، إذ حصل إسماعيل باشا على فرمان من السلطان العثماني في شهر ماي 1866 يقضي بنقل ولاية مصر مع ما هو تابع لها من الأراضي في السودان إلى أكبر أولاده الذكور بطريق الورث غير أن إسراف الخديوي دفع مصر للاستدانة من الدول الأوربية، هذه الأخيرة وجدت

♦ كانت وضعية الدروز المالية سيئة للغاية مقارنة بالموارنة الذين كانوا تجارا أغنياء.

[15] رأفت الشيخ، تاريخ العرب الحديث، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، طبعة معدلة ومزيدة، الكويت، 2005، ص ص54، 70.

في ذلك فرصة لإحكام سيطرتها على اقتصاديات مصر وأدت زيادة الاستدانة وعدم القدرة على التسديد إلى تحكم اللجان المالية الإنجليزية والفرنسية خاصة في شؤون الحكم وكانت نهاية المنافسة بين الدولتين. إلى احتلال الإنجليز لمصر سنة 1882 وانتقلت السلطة بعد ذلك وبطريقة غير مباشرة إلى ممثل بريطانيا في مصر أو القنصل البريطاني، وأصبح الخديوي في مصر في حيرة من أمره بين الخضوع للسلطان العثماني أو اضطراره لتنفيذ التعليمات البريطانية. وقد مال المصريون حينذاك إلى تأييد رابطة الولاء للسلطان العثماني[16].

ومنذ منتصف القرن التاسع عشر وخاصة في الربع الأخير فيه، اتجهت الدولة العثمانية نتيجة الظروف الداخلية والخارجية التي كانت تشهدها إلى إحكام سيطرتها على ما تبقى لها من ولايات عربية، فأصدرت قانون الولايات. إذ عمدت على بسط الحكم المركزي في ولايات الشام، ففرضت تبعية الولاة للحكومة المركزية في إستانبول. وفي عام 1864 نظمت الولايات في الشام بطريقة تساعدها على السيطرة على كل فروع العمل الحكومي بها، ثم قسّمت بلاد الشام إلى ولايتين هما ولاية سوريا وقد ضمت أجزاء من أيالتي طرابلس وصيدا القديمتين، وولاية حلب التي توسعت وضمت أجزاء من الجزيرة والأناضول. أما القدس فقد

[16] لقد رأى المصريون في هذا الولاء الخلاص الوحيد من براثن الاستعمار البريطاني، وعلى هذا أيدّ الوطنيون حركة الجامعة الإسلامية التي نادى بها السلطان عبد الحميد الثاني على عكس بلاد المشرق العربي الأخرى وخاصة سوريا التي قاومت هذا الاتجاه، إذ رأت في الدولة العثمانية أداة استبداد. أنظر: شوقي عطا الله الجمل، مرجع سابق، ص39.

انفصلت عن ولاية سوريا عام 1874 وأصبحت متصرفية ترتبط بالباب العالي مباشرة وعرفت باسم قدس شريف متصرفي إدارة مستقلة[17]. أما ولاية بيروت فقد انفصلت عم ولاية سوريا عام 1887 وضمت كل من بيروت، عكا، البلقاء، طرابلس، اللاّذقية[18].

لقد انصاع ولاّة الشام لتعليمات الدولة العثمانية منذ صدور نظام الولايات عام 1864، فقد أصبحوا يبعثون بتقارير دورية إلى الباب العالي بخصوص أعمال الإدارة وتصرفات كبار موظفي الدولة وتحركات القناصل الأجانب في دمشق. وقد تضمنت تلك التقارير أيضا بعض الاقتراحات لتنظيم الإدارة، لكن السلطة العثمانية كانت تتجاهل ذلك بل كثيرا ما كانت تخضع هؤلاء الولاة تحت رقابة جواسيس السلطان، وقد اتهموا في مناسبات عديدة بتدبير محاولات الاستقلال بولاياتهم.

وقد ظل العنصر العربي المسيحي يعاني التّهميش رغم تلك التنظيمات الخيرية التي أعلنتها الدولة العثمانية عام 1856 والتي تضمنت مبدأ المساواة القانونية والمدنية لكافة رعايا الدولة، غير أن هذا المبدأ لم يطبق تماما، فقد ظلت الخدمة العسكرية مقصورة على العرب المسلمين في حين يدفع المسيحيون الإعانة المالية بذلا من الخدمة العسكرية. وبهذا الأسلوب ازداد العرب المسيحيون ميلا إلى الدول الأوربية بحثا عن الأمن والحماية، إذ لم تفوت هذه الأخيرة

---

[17] شوقي عطا الله الجمل، مرجع سابق، ص47.

[18] لقد بررت الدولة العثمانية ذلك أنه كان نتيجة ازدياد أهمية مدينة بيروت وحساسيتها، والوقوف في وجه النفوذ الأجنبي. بالإضافة إلى اتساع ولاية سوريا واتخاذ ولاتّها (دمشق مركز لهم)، الأمر الذي جعل بيروت في وضع دون أهميتها. أنظر: شوقي عطا الله الجمل، مرجع نفسه، ص47.

الفرصة فادّعت حمايتها لمختلف الأقليات غير الإسلامية التي ستكون الثغرة التي تسربت من خلالها الدول الأوربية في تراب الدولة العثمانية، إذ عملت باستراتيجيتها على تعفين العلاقات وإثارة الضغائن بين العرب والأتراك وضرب بعضهم ببعض لتحقيق مصالحها في المنطقة.

لقد عاشت البلاد العربية في بداية القرن التاسع عشر أوضاع سياسية متوترة صعبت نوعا ما من مهمة السلطان عبد الحميد الثاني في إعادة الأمن والاستقرار لها، لكن بحنكته وذكائه الحادين استطاع التصدي لهذه الصعوبات الداخلية والخارجية، كما تمكن من إطالة عمر الدولة العثمانية. فأقدم على تطبيق جملة من الإصلاحات السياسية والاقتصادية وحتى الثقافية وقد اعتمد في عمله على المتنورين العثمانيين كان أبرزهم "خير الدين باشا التونسي" إذ أعجبته الأفكار التي جاءت في كتابة "أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك"، فعمل السلطان على تعيينه "صدراً أعظم".

لم يكن السلطان عبد الحميد الثاني مّيالا إلى الحكم الدستوري بالمعنى الغربي[19]، رغم أنه وعد في بداية حكمه بإقامة الحياة الدستورية، غير أن الظروف التي أحاطت بالدولة العثمانية دفعته إلى تركيز السلطة في يديه وتطبيق نظام الحكم المطلق.

[19]. كان يرى أن أسباب هذا الحكم وتأثيراته لا يصلح أن تطبق في الولايات العثمانية لأنها وضعت أساسا للشعوب الأوربية التي تختلف ظروف حياتها عن ظروف حياة الرعايا العثمانيين. أنظر: محمد سهيل طقوس، تاريخ العثمانيين من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2008، ص496.

في ظل هذه الظروف تزعمت جماعة من المثقفين العثمانيين وعلى رأسهم مدحت باشا[20] مهمة نشر الحكم الدستوري وعمدت لإدخاله في الدولة لوقف انهيارها. فكشلت لجنة عامة برئاسة مدحت باشا ولجان فرعية لدراسة مشروع الدستور قبل إصداره في 23 ديسمبر 1876[21]، وبعد عدة محاولات انتهت اللجنة بوضع هيكل للنظام البرلماني[22]، غير أن العمل بهذا الدستور لم يدم طويلا، إذ أنه نتيجة الخلاف الحاد الذي دار بين أعضاء المجلس البرلماني والسلطان، أقدم هذا الأخير على إيقاف العمل به وحل البرلمان في فبراير 1878[23]. يعد تعطيل الدستور وحل البرلمان، عادت الدولة إلى نظام الحكم الفردي المطلق، هذا النظام الذي أصبح يشتد نتيجة الظروف الداخلية والخارجية التي كانت تحيط بالدولة العثمانية، كما ركز السلطان جهوده لإبعاد المصلحين والليبراليين أبرزهم مدحت باشا. رغم ذلك ازداد نشاط المعارضين لسياسة الحكم الجديد – الاستبدادي – وظلوا متمسكين بالأخذ

---

[20] تقلّد مناصب إدارية وسياسية عديدة قبل أن يتولى منصب الصدارة العظمى في عامي 1872–1876، ويعدّ من أشهر الداعين للاقتباس من الغرب، ورأى في تبني أساليب الثقافة والمدنية الغربية وسيلة أساسية لنهضة الدولة العثمانية. أنظر: محمد سهيل طقوس، مرجع سابق، ص479.

[21] Montran. R, Histoire de la Turquie, P.U.F. 3eme éd, Paris, 1968, p 105.

[22] يقوم على مجلسين: مجلس الشيوخ ويطلق عليه اسم "مجلس الأعيان" ومجلس النواب يطلق عليه اسم "مجلس المبعوثان"، أنظر: محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق احسان حقي، دار النفائس، بيروت، ط2، 1983، ص590.

[23] يرى بعض المؤرخين أن الخلاف نشب بين أعضاء البرلمان والسلطان عندما دعا هذا الأخير مجلسي الأعيان والمبعوثان ليبديا رأيهما في الطلب من الحكومة البريطانية إرسال أسطولها إلى بحر مرمرة للدفاع عن العاصمة – إستانبول – ضد هجوم روسي محتمل عليها. والواقع أنه تضافرت عدة عوامل دفعت السلطان إلى تعطيل الدستور، أهمها أن السلطان عبد الحميد الثاني كان يميل بطبعه إلى الحكم الفردي المطلق. إذ كان يعتقد أن الأمة لم تكن قد وصلت بعد إلى الحالة الضرورية من الرشد. أنظر: مذكرات السلطان عبد الحميد، تر، محمد حرب، دار القلم، دمشق، ط3، 1991، ص196.

لمبادئ الحضارة الأوربية وقيام الحكم الدستوري، وتطبيق نظام الحكم الذاتي في الولايات العربية.

لم تتقبل الولايات العربية فكرة عودة الحكم الفردي المطلق، فخلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر بدأت تنشط في العراق وغيره من الولايات العربية الأخرى أساليب الحكم الاستبدادي الذي مارسه السلطان عبد الحميد الثاني[24]، وفشلت محاولات مدحت باشا في تنظيم الحكم على أسس نيابية، ونما نوع من المقاومة الخفية للحكم العثماني في العراق. إذ شهدت هذه الولاية عدم استقرار في أوضاعها[25]، وقد ظلت الأمور على هذه الحالة إلى غاية إعلان الدستور مرة أخرى عام 1908 أين شهدت المنطقة استقرارا نسبيا لتعود بعد ذلك موجة السخط والاضطراب في فترة حكم الاتحاديين[26].

بالإضافة إلى تعطيل الحياة الدستورية أقام السلطان عبد الحميد الثاني نظاما استخباراتيا قويا اعتمد فيه على الكبت والجاسوسية، وقد ازداد فساد هذا النظام مع ازدياد عدد هؤلاء

---

[24] شوقي عطا الله الجمل، مرجع سابق، ص44.

[25] ما يدل على ذلك، فقد تم إحصاء أربعة ولاة حكموا بغداد بين عامي 1904–1908، وقد تم إحصاء أيضا اثني عشر واليا تولوا إدارة البصرة بين عامي 1909–1913. أنظر: شوقي عطا الله الجمل، مرجع نفسه، ص44.

[26] انتسب العراقيون لعضوية جمعية الاتحاد والترقي التي أطاحت بحكم السلطان عبد الحميد الثاني، ظنا منهم أنها ستحقق مطالبهم الأساسية. غير أنه سرعان ما اصطدمت أمانيهم بسياسة التتريك التي ظهرت بوادرها عند إخفاق محاولة استرداد الحكم لصالح السلطان ورجاله في 31 مارس 1909. ومما زاد من نقمة العراقيين أن سياسة الحكم الجديد قد بنيت على أساس إقصاء العرب واضطهادهم، وقد أدى هذا إلى نمو حركة القومية العربية، فتألفت في العراق النوادي والجمعيات السياسية التي دعت إلى استقلال العرب وإنشاء الدولة العربية والانسلاخ من الدولة العثمانية.

أنظر: شوقي عطا الله الجمل مرجع نفسه، ص ص44–45.

الجواسيس وزيادة سلطتهم في الدولة. حيث وضع نظام محكم للرقابة، كما عمل السلطان على قمع كل محاولة إقامة صحافة حرة خشية أن تنفضح سياسة حكمه المستبدة المطلقة[27]. وقد فسّر السلطان عبد الحميد الثاني استعماله لهذه الأجهزة الاستخباراتية رغبته في القضاء على كل الخونة المتعاملين مع الدول الأجنبية، إذ يقول «لا يمكن للدولة أن تكون آمنة إذا تمكنت الدول الكبرى أن تجند لخدمة أهدافها أشخاصا في درجة "وزير أعظم"...»، ذلك لأنه قد وصلت إليه أخبارا من "موسو روس باشا" سفير الدولة العثمانية في لندن مفادها أن الصدر الأعظم "حسين عوني باشا" قد تسلّم نقودا من الإنجليز مقابل خدمته لهم ضد سلطانهم. وبناءً على هذا يقول «قررت إنشاء جهاز مخابرات يرتبط بشخصي مباشرة»[28]. نتيجة هذه الأعمال التي بادر بها السلطان عبد الحميد الثاني لاسيما تعطيل الحياة الدستورية ومطاردة العناصر الليبرالية – التقدمية –، ظهر استياء شعبي خاصة لدى الطبقة المثقفة الليبرالية. ومن أجل تفويت الفرصة أمام هؤلاء من جهة وضع حد للتغلغل الأجنبي الأوربي في العالم العربي خاصة والإسلامي عامة من جهة أخرى، انتهج خطة تقوم على:

أ – استمالة العرب إليه

أدرك السلطان عبد الحميد الثاني أهمية العنصر العربي ودوره الثقافي والحضاري

---

[27] علي محمد الصلابي، الدولة العثمانية، عوامل النهوض وأسباب السقوط، مكتبة الإيمان، المنصورة، الجزائر، ط1 (ب ت)، ص446.

[28] حلمي محروس إسماعيل، تاريخ العرب الحديث من الغزو العثماني إلى نهاية الحرب العالمية الأولى، (م.ش.ج)، الإسكندرية، (ب ت)، ص446.

والديني، وأن هدف الدول الأوربية الاستعمارية هو إثارة الضغائن وإحداث فجوة عرقية تؤدي إلى سلخ العرب عن الدولة العثمانية. فقد دفعه ذلك إلى التقرب منهم، وعين بعضهم في وظائف الدولة والقصر السلطاني كما أوكل لهم مهمة القيام بشؤونه الخاصة كان أشهرهم عزت باشا العابد• وأبو الهدى الصّيادي♦ وسليم باشا ونجيب باشا ملحمة. كما اختار السلطان نخبة من العرب وكوّن منهم فرق عسكرية أدخلها في حرسه الخاص، كما خصّص أموالا لإصلاح المسجد الحرام في مكة والمسجد النبوي في المدينة والأقصى في القدس، وهي كلها أماكن مقدسة للمسلمين وبحوزة العرب. وقد ذهب السلطان عبد الحميد إلى أبعد من ذلك حين عمد إلى مصاهرتهم، فزوّج أميرتين من أسرته بشابين عربيين هما الأميران عبد المجيد ابن الشريف علي حيدر، وصالح بك خير الدين التونسي[29]. كما دعا عبد الحميد الثاني الزعماء والمفكرين المسلمين العرب أمثال محمد عبده ومحمد رشيد رضا[30] وغير العرب كجمال الدين الأفغاني للاستعانة بهم والاستفادة من أفكارهم في مجال دعم حركة الجامعة الإسلامية.

• عربي من بلاد الشام، توصل إلى وظيفة السكرتير الثاني للسلطان عبد الحميد الثاني.

♦ هو من حلب حظي بمكانة عالية لدى السلطان، فكان من أكبر ثقاته وقلّده مشيخة المشايخ في دار الخلافة، وصار يلقب بمستشار الملك وحامي العثمانيين وسيد العرب.

[29] محمد فريد بك، مصدر سابق، ص746.

[30] ولد في سوريا عام 1865، ونفي إلى مصر عام 1897، أسّس سنة 1898 مجلة "المنار" التي ستصبح منبر العمل السياسي الإسلامي، توفي عام 1935. أنظر: Maghreb – Machrek, monde arabe, nov.– déc., 1974, Nº 66, p.49.

ب – دعم فكرة الجامعة الإسلامية

لقد ظهر تيار الجامعة الإسلامية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي كرد فعل للغزو العسكري الأوربي للعالم الإسلامي والعربي بصفة خاصة ولدعوات التخريب والإصلاح والدستور، هذا إلى جانب تردي الأوضاع والفساد في الدولة العثمانية، كل ذلك زاد من أطماع الدول الأوربية بها. فقد وقعت معظم الدول العربية في قبضة الاستعمار الأوربي تونس عام 1881، ثم مصر في العام الموالي 1882. هذا وقد حمّل المسلمون الغرب مسؤولية الاضطرابات المالية التي وقعت فيها الدولة العثمانية.

حين اعتلى عبد الحميد الثاني عرش السلطنة برزت في العالم الإسلامي فكرتين، وقد كانتا كرد فعل ضد الاستعمار وازدياد السيطرة الأجنبية، إحداهما فكرة الجامعة الإسلامية والأخرى فكرة القومية العربية التي سادت العالم العربي خاصة عند نصارى بلاد الشام.

ظهرت فكرة الجامعة الإسلامية على يد السيد جمال الدين الأفغاني الذي يعتبر من رواد حركة الإصلاح الديني والاجتماعي في العالم الإسلامي، وقد ترك هذا المصلح والمفكر أثرا كبيرا على المسلمين في الأقطار الإسلامية خاصة في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، وقد دعا إلى هذه الفكرة أيضا مصلحون آخرون أمثال محمد عبده ومحمد رشيد رضا.

تبنى عبد الحميد الثاني فكرة الجامعة الإسلامية رغم الإخلاف الذي كان بينه وبين جمال

الدين الأفغاني بشأن جوهر الفكرة ومنطلقاتها[31]، فقد علّق عليها آمال كبيرة في إعادة إحياء الدولة العثمانية وإنقاذها، خاصة بعد أن أصبحت تهددها الأطماع الغربية لا سيما منها الفرنسية الإنجليزية، وقد استطاع بواسطتها كسب ولاء العناصر غير التركية داخل السلطنة والمحافظة على ما تبقى للدولة من الأقاليم العربية بعد ضياع تونس ومصر، لأنه لو سلخ قطر عربي آخر من الدولة العثمانية فسيكون ذلك ضربة قاضية لحركة الجامعة الإسلامية.

حاول عبد الحميد الثاني الاحتماء بعطف العالم الإسلامي في وجه التعصب الأوربي المطبق عليه من كل جانب والتصدي له بتوحيد المسلمين واكتسابهم لصفّه وتدعيم السلطة العثمانية واعتبارها دولة الخلافة التي تحمي الإسلام والمسلمين. وفي هذا الصدد نجد أن السلطان عبد الحميد الثاني أدرك أهمية العنصر العربي في دعم فكرة الجامعة الإسلامية. فقد كان يبحث برسله إلى البلاد العربية لمحاولة إقناع العرب أن الجامعة الإسلامية تحت زعامة الخلافة العثمانية هي أملهم الوحيد للنجاة من الاستعمار الأوربي.

لم يكتب لفكرة الجامعة الإسلامية أن تصبح حقيقة واقعة وذلك رغم المجهودات التي بذلها دعاة هذا الاتجاه لإنجاحها. ويمكن إبراز عوامل هذا الإخفاق فيما يلي :

أولا: كانت الفكرة الإسلامية هي الفكرة البارزة بين الشعوب الإسلامية والعربية، فلم

---

[31] فقد اشترط جمال الدين الأفغاني لتحقيق فكرة الجامعة الإسلامية بزعامة السلطان عبد الحميد الثاني أن يستعرب العثمانيون، وأن يعدلوا في أهل هذه الدولة وأن تخوّل المماليك الإسلامية القائمة إلى مماليك دستورية. ومن ثمّ تصبح الدولة الاتحادية الإسلامية دولة دستورية. في حين استغل السلطان الفكرة من أجل تقوية مركزه كسلطان للإمبراطورية العثمانية، ويتمتع بمكانة خاصة في قلوب رعاياه المسلمين باعتباره خليفتهم.
أنظر: رأفت الشيخ، مرجع سابق، ص ص280–286.

يتضايق المسلمون عربا كانوا أو فرسا أو هنودا من أن يحكمهم حكاما أتراكا طالما كانوا مسلمين، رغم ذلك لم يتحمس هؤلاء لهذه الفكرة بسبب سلبيات الحكم العثماني في المنطقة العربية.

ثانيا: كان من أهم أهداف الفكرة مواجهة الأطماع الاستعمارية الأوربية مع العلم أن الدول الأوربية خاصة فرنسا بريطانيا وروسيا اتبعت منذ مؤتمر برلين 1878 سياسة تقطيع أوصال الإمبراطورية العثمانية وتحقيق الأطماع الاستعمارية في الأقطار العربية والإسلامية. لذلك عملت هذه القوى على عدم تحقيق الفكرة وهدمها من أساسها.

ثالثا: قامت بعض التيارات الجديدة على تأكيد الروح الوطنية وعدم الأخذ بفكرة الجامعة الإسلامية مثل حزب الأمة المصري الذي أخذ يروّج لفكرة القومية المصرية، ومثل سكان جبل لبنان من الموارنة والدروز وغيرهم[32]، هذا إلى جانب المسحيين المتعصبين (الأقباط) في مصر الذين نادوا بالقومية الفرعونية كرد على فكرة الجامعة الإسلامية.

رابعا: موقف السلطان عبد الحميد الثاني الذي أراد استخدام فكرة الجامعة الإسلامية لتحقيق أغراضه هو، ولم يعمل على وضعها موضع التنفيذ. فلم يحقق مبدأ الحكم الدستوري كما لم يتحرر المسلمين من استبداد الحكام، ومن هنا انصرف الناس عن

[32] **رأفت الشيخ، مرجع سابق، ص288.**

الفكرة رغم تعلق بعض المثقفين بها أمثال زعماء الحزب الوطني المصري، وكان ذلك بهدف ضرب المحتلين البريطانيين.

ومن أجل دعم حركة الجامعة الإسلامية شرع السلطان عبد الحميد الثاني في إنجاز خط سكة حديد الحجاز من دمشق إلى المدينة المنورة في مطلع القرن العشرين[33]، وقد روّج لهذا الخط أنه جاء خصّيصا لخدمة الحجاج. وقد شكل هذا المشروع بالفعل حدثا هامّا بالنسبة للعرب والمسلمين وحتى الدول الأوربية، وقد دلّ ذلك على ذكاء عبد الحميد الثاني في تنفيذ الفكرة[34].

لقد كانت فكرة الجامعة الإسلامية مظهر من مظاهر اليقظة العربية الإسلامية، كما كانت إحدى الوسائل التي من خلالها حاولت الدولة العثمانية تحقيق هدفين، أولهما جمع العرب والمسلمين حول مصلحة الأمة الإسلامية بغض النظر عن الخصائص العرقية، وثانيهما وضع حد لتلك المطامع الأوربية التي أصبحت تتجه خلال هذه الفترة إلى تغذية النزاعات القومية بهدف إحداث خلخلة داخلية في المجتمع العثماني، وبالتالي تسهيل مهمة الإحلال لتلك الأقطار كما هو الحال بالنسبة للأقطار العربية.

---

[33] يذكر أنه ابتدأ في تنفيذ المشروع عام 1900، ووصل إلى المدينة المنورة عام 1908.أنظر: محمد سهيل طقوس، مرجع سابق، ص488.

[34] كان صاحب هذه الفكرة عزت باشا العابد الذي أصبح بعد ذلك رئيسا للجنة المشروع. والواقع أن التفكير في إنشاء هذا الخط بدأ في عام 1880 عندما قدّم وزير الأشغال العثماني إلى الحكومة فكرة هذا المشروع، الذي حال دون تنفيذه آنذاك صعوبات مالية. أنظر: Pino, René, L'Europe et l'empire ottoman, Paris, 1916, pp385, 388.

2 – الأوضاع الاقتصادية

كان للأوضاع السياسية التي عاشتها البلاد العربية أثرا كبيرا على الحياة الاقتصادية خاصة مع ظهور التكالب الاستعماري على البلاد العربية من أجل تحقيق أكبر استفادة من خيرات هذه البلاد وجعلها تعيش في أزمة اقتصادية لكي يحق لها التدخل في شؤونها والسيطرة عليها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.

كانت الأوضاع الاقتصادية للبلاد العربية في بداية القرن التاسع عشر سيئة للغاية نتيجة سيطرة الأجانب على اقتصاد البلاد خاصة بعد قيام الثورة الصناعية في بريطانيا في أواخر القرن الثامن عشر. فقد أدى ذلك إلى زيادة التنافس الاستعماري على الأسواق التجارية، وظهور أهمية العالم العربي كمصدر المواد الخام، وكسوق واسع الصناعات الأوربية. وكانت الامتيازات الأجنبية بين الدولة العثمانية والدول الأوربية عاملا مساعدا على وقوع العالم العربي في قبضة الاستعمار الأوربي، فقد كان دخول البضائع الأوربية إلى البلاد العربية سببا في سقوط المراكز الصناعية القديمة فيها وانقراض الكثير من الحرف الصناعية[35].

ومنذ منتصف القرن التاسع عشر وبالضبط في 18 فبراير 1856 سمح السلطان العثماني عبد الحميد الأول (1839 – 1860) للأجانب تحت ضغط فرنسا وبريطانيا تملك العقارات، وبعد عشر سنوات أصدر فرمانا منحهم فيه حق تملك الأراضي داخل الإمبراطورية العثمانية. وتكونت شركات عقارية اشترت الأراضي بأسعار بخسة جنت من ورائها أرباحا طائلة،

---

[35] **شوقي عطا الله الجمل وآخرون، مرجع سابق، ص29.**

وتأسست شركات احتكارية صناعية وتجارية كان أهمها شركة قناة السويس عام 1865. على إثر هذا وقعت البلاد العربية في دائرة الديون الأجنبية كما حدث للمصر في عهد سعيد وإسماعيل باشا، وتونس. وكانت فوائد الديون باهظة للغاية، فقامت الدول الدائنة بالسيطرة على ميزانيات الدول المدينة، كما سيطرت البنوك الأجنبية على مالية الدول العربية[36].

إن هذه الحالة التي وصل إليها الاقتصاد العربي أثرت تأثيرا كبيرا على السكان خاصة مع تزايد عبء الضرائب التي أثقل كاهل السكان، فأدى بهم ذلك إلى الهجرة خاصة لدى السوريين. فقد دفع الانخفاض في الإمكانيات الاقتصادية للمناطق الداخلية للإمبراطورية العثمانية بعض الأسر إلى الهجرة وتخلّيهم عن أراضيهم بحثا عن حياة أفضل في مناطق أخرى، وكان أغلب الذين هاجروا من الإمبراطورية مسيحيين، إذ لم يكن سبب هجرتهم راجعا لظلم الحكام العثمانيين لهم ولكن أرادو أن يحسّنوا من وضعيتهم المادية فاختاروا الهجرة. والدليل على ذلك أن ثلث هؤلاء السكان عادوا إلى المناطق التي خرجوا منها وذلك بعد أن تمكنوا ممّا يكفيهم للعيش في حياة كريمة. وبالإضافة إلى ذلك فقد هاجر عدد قليل من المسلمين من الإمبراطورية، فاضطروا إلى تغيير دينهم في أمريكا واعتناق المسيحية حتى يتجنبوا الاضطهاد أو العنصرية، وكان عدد الذين هاجروا من سوريا ولبنان سنة 1870 هو 600.000، ومن دول عربية أخرى بحوالي 100.000 مهاجر[37].

---

[36] شوقي عطا الله الجمل وآخرون، مرجع سابق، ص31.

[37] محمد مزالي، الولايات العربية ومصادر وثائقها في العهد العثماني، المجلة التاريخية المغاربية، ط1، تونس، 1989، ص ص26–27.

لقد كان لهذه الأوضاع أثر واضح على سلوكات الناس في البلاد العربية في أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، حيث انتشر الإسراف والتبذير في الإنفاق على الأحياء والأموات، فقد كان العرب يخسرون أموالهم وممتلكاتهم التي يأخذها الأجانب، إلى جانب التواكل الذي كبّل عقولهم عن التفكير وأرجلهم وأيديهم عن السعي والعمل، كما أسلموا أمرهم للأجنبي وصاروا يتمسكون بأمثال مثبطة للهمم مؤدية للشلل الاجتماعي مثل قولهم "سبها على الله" و"لا تفكرولها مدبّر" وقولهم "وإذا أعيتكم الأمور فعليكم بأصحاب القبور"[38]. على العموم فقد وصلت الدولة العثمانية وخاصة الأقاليم العربية إلى حالة اقتصادية مزرية مما خلف حالة من التذمر والإحباط في نفوس العرب، هؤلاء الذين أرجعوا سبب نكستهم ومحنتهم إلى العنصر التركي الدخيل. كل ذلك سيساهم وبطريقة غير مباشرة في ظهور توجه سياسي جديد ستلعب القومية فيه دورا حاسما.

عند وصول السلطان عبد الحميد الثاني إلى الحكم في أوت 1876[39] كان عليه إيجاد حل لعدة مشاكل، فالنسبة للمشاكل الخارجية تم حلها خلال مؤتمر برلين أما الداخلية فقد ركز جهوده على إدخال إصلاحات وفتح باب القروض والاستدانة من الخارج.

لقد كانت الدولة تشرف على الإفلاس فقام عبد الحميد الثاني بتأسيس ما يعرف "بمؤسسة الديون العمومية" في 20 سبتمبر 1881[40] ولجأ إلى الاقتراض من البنوك الأجنبية. ففي سنة

---

[38] رأفت الشيخ، مرجع سابق، ص ص54-70.

[39] Montran. R. op. cit. pp.104, 105.

[40] أوزطونا، يلماز، تاريخ الدولة العثمانية، تعريب عدنان محمود سليمان، منشورات مؤسسة فيصل للتموين، استنبول، ج2، 1990، ص127.

1892 تحصل السلطان على قرض قدره أربعة ملايين ليرة تركية، وثلاثة ملايين سنة 1896، أما في سنة 1897 فقد وصل القرض إلى خمسة ملايين ليرة[41]. ثم ازدادت القروض الأجنبية على الدولة العثمانية حتى بلغت قيمة القروض الخارجية للدولة خلال هذه الفترة 252 مليون قطعة ذهبية.

لقد تراكمت الديون الخارجية على الدولة العثمانية، كما ازدادت ضغوطات الدائنين، فأرغمت الدولة العثمانية على الدخول في مفاوضات مع الدول الأوربية انتهت بصدور مرسوم محرم (Le décret de mouharam) في 20 ديسمبر 1881[42]. الذي نصّ على تخفيض وتثبيت الديون العثمانية، وبموجبة تمّ إسقاط 146 مليون وتسديد 106 مليون ليرة ذهبية الباقية.

لخدمة هذا الدين رصدت الدولة العثمانية بعض مداخيلها كدخل احتكار الملح والضريبة على الكحوليات ورسوم الدمغة وضريبة العشر على الحرير، والضريبة المفروضة على عوائد التبغ، كما سمحت للدول الدائنة خاصة فرنسا وبريطانيا بإقامة استثمارات واسعة في تراب الدولة العثمانية. فكان من نتائج ذلك استنزاف خيرات الدولة، إذ أن عائدات تلك الاستثمارات لم تكن تذهب مباشرة إلى خزائن الدولة بل كانت تحوّل إلى بنوك لندن، باريس، فيينا وبرلين[43] وللتحكم في تيسير الاقتصاد العثماني أنشئت مؤسسة الديون العامة التي أشرف عليها مجلس متكون من سبعة أعضاء يمثلون حملة السندات، إنجليزي، فرنسي،

[41] Benoist, Méchin, Mustapha Kamel ou la mort d'un empire, Ed. Albin Michel, France, 1954, pp.78,79.
[42] Montran, R. op. cit. p.105.
.[43] Benoist, Méchin. Op. cit. p79.

إيطالي، ألماني، وعثماني، وممثل عن صيارفة جالتا، ويرأسه بالتناوب المندوب البريطاني والمندوب الفرنسي[44]، وقد كانت هذه المؤسسة مؤسسة مالية ثانية في تراب الدولة العثمانية. ولتوضيح مدى التحكم والسيطرة التي فرضتها هذه المؤسسة، نذكر أنه في أواخر القرن التاسع عشر كانت هذه الأخيرة تمتلك حوالي 720 فرعا لجباية الضرائب في الولايات العثمانية وتستخدم حوالي 5500 شخصا وهو عدد أكبر من موظفي وزارة الشؤون المالية، وتحكمت في 30 % من إيرادات الدولة[45].

إلى جانب هذه التحديات المالية كان هناك تحد آخر كانت أثاره مدمّرة للاقتصاد العثماني ألا وهو الامتيازات الأجنبية، وقد حاول السلطان عبد الحميد الثاني في العديد من المرات التخلص أو على الأقل التخفيف من شروطها، غير أنه لم يتمكن من ذلك، إذ أنه فشل في رفع الرسوم الجمركية على الواردات الأوربية إلى الإمبراطورية بنسبة 3 % حتى في سنة 1908، كما عجزت عن استرجاع وبسط سيطرتها على عدة قطاعات حيوية أخرى. وهكذا فكلما حاولت الدولة العثمانية التخلص من قيود معاهدة الامتيازات إلاّ واحتجت الدول الأوربية بهدف حماية مصالحها وكثيرا، وكثيرا ما كانت تلوّح باستخدام القوة العسكرية.

وللنهوض باقتصاد البلاد أولى السلطان عبد الحميد الثاني اهتماما كبيرا لمشاريع السكك الحديدية خاصة مشروع سكة حديد برلين بغداد الذي اقترحته الدولة الألمانية في إطار

---

[44] مونتران روبير وآخرون، تاريخ الدولة العثمانية، ج2، تر، بشير السباعي، (د.ف.د.ن.ت)، القاهرة، 1989، ص181.

[45] مونتران روبير وآخرون، مرجع نفسه، ص182.

سياسة التقارب التي حصلت بينهما، وذلك بعد أن تخلت بريطانيا عن سياستها التقليدية اتجاه الدولة ودخلت في إطار التنافس مع بقية الدول الأوربية الأخرى على ممتلكات ما عرف "بالرجل المريض".

فقد ظهرت ألمانيا كقوة عظيمة على الساحة الدولية، إذ رأت في الدولة العثمانية حلاّ لمشاكلها خاصة الاقتصادية وسوق ضخمة لتسويق منتوجاتها التي هي في تطور مستمر خاصة المنتوجات الصناعية والحربية[46]. فتطورت العلاقة بين الطرفين إلى درجة أن أرسلت الدولة العثمانية ضباطها للتحصيل العسكري في ألمانيا، ثم قيام القيصر الألماني "وليام الثاني" بزيارة إلى السلطان عبد الحميد وعرض عليه إقامة مشاريع اقتصادية بين الطرفين، مبينا له ما ستجنيه الدولة العثمانية من ازدهار في اقتصادها من جراء ذلك. ومن بين هذه المشاريع إنشاء طريق للمواصلات الحديدية بين أوربا والشرق الأوسط حتى الخليج العربي. وقد أطلق على هذا المشروع اختصارا طريق ب.ب.ب[47]، كما يسمى هذا الخط أيضا بسكة حديد بغداد. وقد زاد هذا المشروع اهتمام القيصر الألماني فقام بزيارة ثانية إلى الدولة العثمانية عام 1898، وخلالها تحصل على الامتياز المنشود الذي وقّع سنة 1903.

كان يمتد هذا الخط (سكة حديد بغداد) من قونية في الأناضول ويمر بحلب والموصل فبغداد والبصرة وينتهي عند الكويت، ويمتد فرع آخر منه من حلب إلى الإسكندرية. وكان

---

[46] الهاشمي عبد المنعم، الخلافة العثمانية، ط1، دار بن حزم، بيروت، 2004، ص504.

[47] لأنه يبدأ ببرلين ويمر ببيزنطة تم بغداد، كما يسمى هذا الخط أيضا بسكة حديد بغداد. أنظر: محمد سهيل طقوس، مرجع سابق، ص465.

صاحب هذا المشروع المهندس "ألفون بروسل" وعندما رأى السلطان عبد الحميد ما سيجلبه هذا المشروع له والدولة من مصالح قبل به[48] ونشر له الدعاية بين المسلمين، وقد كان المشروع يهدف إلى تحقيق ما يلي:

1) خدمة الحجاج وتسهيل وصولهم إلى مكة والمدينة بعد أن كانوا يستغرقون مدة طويلة للوصول إليها.
2) الاستفادة من الخبرات ورؤوس الأموال الألمانية وتنفيذ إصلاحات ملموسة يؤكد بها للدول الأوربية أن الدولة العثمانية دخلت فعلا عصر الإصلاحات والمشروعات الإصلاحية [49]
3) تسهيل نقل القوات العسكرية عن طريق الخط إلى الجزيرة العربية وخاصة إلى الحجاز، وبالتالي إخضاع الولايات المتمردة هناك عن سلطة الدولة العثمانية.
4) ربط أجزاء الدولة العثمانية وتشديد قبضتها على الدول التي بدأ الوعي القومي يستيقظ بها مثل سوريا، العراق، الحجاز[50]. أما ألمانيا فقد هدفت من وراء هذا المشروع،

---

[48] كان عبد الحميد يرى في هذا المشروع أنه يتيح لدولته انفتاحا على هذا البلد – ألمانيا – كما يمكنه من الاستفادة من الخيرات ورؤوس الأموال الألمانية، وينفذ إصلاحات ملموسة يشعر بها رعايا الدولة وساسة أوربا، ليدرك الجميع أن الدولة العثمانية دخلت فعلا عصر الإصلاحات والمشروعات الإنتاجية. أنظر: عبد العزيز الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، مكتبة الانجلومصرية، ج 3، القاهرة، 1983، ص1355.

[49] حلمي محروس إسماعيل، مرجع سابق، ص335.

[50] يريد عبد الحميد تجهيز آسيا الصغرى بشبكة من السكك الحديدية الاستراتيجية الكاملة لا لصد عدوان خارجي بل لسحق الثورات الوطنية في إمبراطوريته الأسيوية. إن سكة حديد بغداد تتيح له قمع الأكراد والأرمن ونشر سيطرته على قبائل العراق ونجد والخليج الفارسي. وخط دمشق–مكة يستعبد كافة قبائل الصحراء السورية والحجاز واليمن. وهكذا يتوصل الأتراك إلى استعباد الأمة العربية بأسرها. أنظر: نجيب عازوري، يقظة الأمة العربية، تعريب وتقديم: أحمد بو ملحم، (م.ع.د.ن)، بيروت (ب ت)، ص212.

الزحف باتجاه الشرق لتجسيد تسللها الاقتصادي واستغلال موارد الدولة العثمانية الطبيعية، وتحقيق أغراضها العسكرية.

3 – الأوضاع الثقافية والاجتماعية

وقع المجتمع العربي تحت السيطرة العثمانية وعان منها طويلا، ولكن من خلال هذه المعاناة أخذ هذا المجتمع يبرز كجزء من الإمبراطورية العثمانية المترامية الأطراف، بل هو يمثل قومية مضطهدة محرّم عليها التطور والنهوض، وممنوع عنها ممارسة طموحاتها المشروعة. ولم تكن الخلافة العثمانية إلاّ ستارا يخفي تحته واقع اضطهاد قومية مسيطرة لقومية مضطهدة[51].

فقد أنتشر الجهل والأوهام والبدع بين العرب كما انتشر داء الفرقة والاختلاف، فلا رابطة اجتماعية تجمعهم لتحقيق الخير لهم، فأخذهم الفقر داء للفرقة على غنى بلادهم واتساعها وخصبها، ولكنهم بجهلهم لا يعملون على الانتفاع بها، وتسلمهم الذل والهوان على قوتهم وكثرة عددهم، وتركوا بلادهم نهبا مقاسما بين الأوربيين ورضوا بان يكونوا لهم خداما طائعين.

كما انتشر عدد من رجال الدين الأدعياء الجهلاء يوهمون الناس بالباطل ويدعونهم إلى حج قبور الأولياء، وانتشرت الطرق الصوفية. إذ أصبحوا يزينون للناس الشفاعة من دفناء

[51] **محمد مزالي، مرجع سابق، ص25.**

القبور وغابت عن الناس فضائل القرآن الكريم، وبذلك بعدوا. عن جوهر الدين الإسلامي[52]. أمام هذه الأوضاع السيئة كان لابد من يقظة فكرية واجتماعية، فمع بداية القرن التاسع عشر ظهرت معالم نهضة فكرية وأدبية في كل من مصر وسوريا، حيث قامت المدارس الحديثة على أيدي الإرساليات التبشيرية الأجنبية وعلى أيدي الهيئات الوطنية المحلية على السواء. وقد تميز القرن التاسع عشر بظهور حركة تعليمية رائعة خاصة مع ازدياد النفوذ الأجنبي مثل فرنسا، واتساع اهتماماتها بسوريا. فمنذ سنة 1860 ازدهرت الحركة الثقافية ازدهارا كبيرا وظهر الكثير من الكتاب العرب من أبرزهم بطرس البستاني وناصف وإبراهيم اليازجي وأحمد فارس الشدياق وعبد الرحمن الكواكبي ومحمد عبده. كما شهدت لبنان حركة فكرية وثقافية كبيرتين تمثلت في إنشاء المدارس والكليات والجامعات الوطنية والأجنبية، ففي سنة 1860 أنشأت السيدة بوين طومسون "الكلية الإنجيلية الأمريكانية للبنات"، وفي العام الموالي أنشأت "الكلية الإنجليزية للبنات"، وأنشأ المطران السيد يوسف الديس مدرسة" الحكمة" للطائفة المارونية عام 1865[53]. كما أنشأ المرسلون الأمريكيان" الكلية الأمريكية" (الجامعة الأمريكية حاليا) في بيروت عام 1865 بفضل مساعي دانيال بلس♦ وأسس الآباء اليسوعيون "الكلية اليسوعية" في عزير ثم نقلت إلى بيروت عام 1874 وكانت تنفق عليها

[52] رأفت الشيخ، مرجع سابق، ص ص238، 239.

[53] جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، ج4، دار الهلال، القاهرة (ب ت)، ص ص48 ،49.

♦ هو أول رئيس للكلية.

الحكومة الفرنسية[54].

ونشطت الإرساليات في ميدان الترجمة وتحديث اللغة، فقد ترجم بطرس البستاني التوراة إلى العربية بالاشتراك مع المستشرق الدكتور عالي سميت وألف معجم "محيط المحيط" ومعجم قطر المحيط ودائرة المعارف في سبعة أجزاء، كما قام سليمان البستاني (1856 – 1925) بترجمة إلياذة هوميروس إلى العربية شعرا.

وكان من أبرز مظاهر النهضة الفكرية العربية هو إنشاء الجمعيات السياسية والأدبية والعلمية، حيث تشكلت في العالم العربي والإمبراطورية العثمانية قبل إعلان دستور 1876 خمسة عشر جمعية ذات أهداف خيرية أهمها "الجمعية العلمية" في بشكتاش بإسطنبول، كما أنشأ المبشرون الأمريكيون ناديا في بيروت. ثم تحول إلى ما عرف باسم "الجمعية الدستورية" ما بين 1874 – 1850، وفي جانفي 1868 تم فتح أبوابها للمسلمين والدروز.

وكان من أهم هذه الجمعيات في بيروت "الجمعية الشرقية الكاثوليكية" التي أسّسها اليسوعيون عام 1850 وفتحت في دمشق أول جمعية عام 1874 باسم "جمعية رباط المحبة" والتي ضمّت أربعين عضوا، كما فتحت فرعا لها في بيروت واقتصرت أعمالها غلى نشر مبادئ الدين المسيحي ومكافحة الرذيلة وعمل الخير[55].

والواقع أن الهدف الأسمى لأعضاء هذه الجمعيات التنصيرية لم يكن تنصير السكان ن بل

---

[54] جرجي زيدان، مصدر سابق، ص ص50، 51.

[55] عبد الكريم محمود غرايبة، تاريخ العرب الحديث، (أ.ن.ت)، ط2، بيروت، 1987، ص60.

كان لأعضائها أهداف سياسية واقتصادية واجتماعية عملوا على تحقيقها لصالح الدول الأوربية التي بعثت بهم إلى بر الشام، وكان هؤلاء المنصّرون يكنّون العداوة والبغضاء نحو العرب المسلمين، وعداوة أخرى اتجاه المسحيين المختلفين عنهم مذهبيا. وما تجدر الإشارة إليه أن اليسوعيين كانوا أشد المنصّرين تعصبا تأججت في نفوسهم الروح الصليبية العنيفة[56].

لقد تميزت الساحة الثقافية في العلم العربي مع نهاية القرن التاسع عشر ن بظهور وعيا عربيا تجسد في إطارين قومي وإسلامي، وكان بينهما تداخل كبير في كثير من الأحيان. ونتيجة الحركة والحيوية أخذ يتبلور إلى وعي قومي عربي خالص خاصة منذ مطلع القرن العشرين.

إن الانهيار والضعف الذي أصاب الدولة العثمانية في أواخر القرن التاسع عشر نتج عنه حالة من الشعور باليأس بين صفوف المجتمع العثماني خاصة لدى الطبقة المثقفة في قدرة الحكام على إنقاذ الدولة من مصيرها، هذا الذي بدأت صوره تظهر من خلال المشاريع الاستعمارية الأوربية الهادفة إلى تجزئة ممتلكاتها.

لقد تقوّى هذا الإحساس بعد أن أصبحت عاصمة الخلافة العثمانية مهدّدة بالسقوط في يد الجيش الروسي، وقد وصف أحد الأوربيين المعاصرين الوضع الداخلي في الدولة العثمانية فقال «...كان على السلطان أن يواجه مشكلة صعبة في أوائل حكمه، ففي عام 1880 – 1881 كان يعّم المجتمع التركي في الأناضول بأسره شعورا باليأس وفقدان الأمل في مستقبل

---

[56] **عبد العزيز الشناوي، مرجع سابق، ص207.**

البلاد، وقد انتشرت تنبؤات ذهبت إلى أن نهاية سلطة الأتراك وشيكة الوقوع، وكان على عبد الحميد أن يوجد شعورا بالأمل لدى رعاياه...»[57] وقد كان الشعور ذاته في البلاد العربية.

بدأت بعض الأطراف المثقفة تدرس الوضع وتفكر في مصير البلاد العربية في حالة سقوط الخلافة. إن هذا الوضع المتأزم وبداية تنامي الوعي القومي في سوريا كان حسب بعض المؤرخين عاملان دفعا بعض الوجهاء المسلمين من مختلف أنحاء بلاد الشام إلى عقد سلسلة من الاجتماعات، وتوجت باجتماع دمشق[58].

وفيه تمّ الاتفاق على مشروع يرمي إلى استقلال بلاد الشام عن الدولة العثمانية وإقامة دولة عربية يكون على رأسها الأمير عبد القادر[59].

بعد مشاورات ومجهودات كثيرة توصل الوطنيون الشوام إلى القرارات التالية:

---

[57] غربي الغالي، دراسات في تاريخ الدولة العثمانية والمشرق العربي، (د. م. ج)، ط2، 2011، ص228.

[58] شارك في الاجتماعات نحو ثلاثين شخصا من صيدا، بيروت ودمشق وحمص وحماة واللاّذقية ومن حوران وجبل الدروز. وبينهم سنة وشيعة ودروز وعلويون. وممن شارك في الاجتماعات أحمد باشا الصلح من صيدا الذي بلغ مراكز عالية في الإدارة العثمانية، وهو قائد الحركة. والسيد محمد أمين بن علي الحسيني المفتي الشيعي لبلاد بشارة (قائمقامية صور)، وعلي عسيران من أعيان الشيعة في صيدا، وشبيب باشا الأسعد الوائلي العين الشيعي البارز في بلاد بشارة، والشيخ أحمد عباس الازهري من علماء بيروت الذي كان تلميذ الأفغاني في القاهرة حتى سنة 1874. وهناك مؤيدون مهمون للقرارات التي توصلت إليها الاجتماعات مثل إبراهيم الجوهري رئيس بلدية صيدا لعدة سنوات، وحسين أفندي بيهم ممثل بيروت في مجلس المبعوثان الأول، وحسين تقي الدين الحصني من أعيان الشيعة في دمشق. أنظر: عبد العزيز الدوري، التكوين التاريخي للأمة العربية، (م. د. و. ع)، ط1، بيروت، 1984، ص153.

[59] تعود أسباب اختيار الأمير عبد القادر إلى المكانة التي اكتسبها من خلال دوره الإنساني في حوادث دمشق عام 1860 لما داهمت الدولة العثمانية أحداث 1877، أخذ اسمه يروج كقائد للحركة الوطنية. أنظر: عادل الصلح، سطور من رسالة: تاريخ حركة استقلالية قامت في المشرق العربي سنة 1877، بيروت، 1966، ص ص93، 94.

1) اختيار الأمير عبد القادر رئيسا لهذه الحركة.

2) الاعتراف بالخلافة العثمانية[60].

أما عن طبيعة الاستقلال، فقد ظهر إجماع على إقرار مبدأ السعي لتحقيق استقلال بلاد الشام وتأجيل الفصل في شكل هذا الاستقلال إلى غاية إنهاء الحرب الروسية العثمانية واتضاح وضع الدولة ومصيرها. وقد تدارس المجتمعون خلال هذا الاجتماع وضعية الدولة العثمانية وما سيترتب عن قرارات مؤتمر برلين بخصوصها، وفي هذا الصدد يذكر عادل الصلح :«... كان على رجال مؤتمر دمشق أن يراقبوا ما يجري في برلين ليتخذوا على ضوء ذلك موقفهم الأصوب، كان يروج أنه إذا تبين أن إحدى الدول الأجنبية تهدف إلى الاستيلاء على بلادنا كما كانت نيّة النسا في البوسنة والهرسك وروسيا في بعض المناطق الشرقية من الأناضول، ونية بريطانيا في قبرص، فلا بد من طلب الاستقلال التام [61].أما إذا تبين أنه ليس ثمّة من عزم على احتلال البلاد، فتكون الغاية تحقيق الاستقلال الذاتي[62] كما هو الحال في مصر وبعض بلدان البلقان»[63].

---

[60] كان ذلك تلبية لمطلب الأمير عبد القادر الذي تمسك ببقاء الارتباط الروحي بين البلاد الشامية والخلافة العثمانية قائما، وأن يبقى الخليفة العثماني خليفة للمسلمين، وأن يتم للأمير البيعة من أهل البلاد جميعا. أنظر: عادل الصلح، مرجع سابق، ص100.

[61] كان نجيب عازوري أبرز من نادوا بهذا المطلب، إذ دعا إلى إنشاء دولة عربية مستقلة عن الدولة العثمانية تضم سوريا، لبنان، العراق، الحجاز، اليمن. وكانت أول دعوة انفصالية عن جسم الدولة، وهي دعوة صدرت من مسيحي الشام، ثمّ طالبت به جمعية "العربية الفتاة" التي تأسست في 24 نوفمبر 1909. أنظر: شوقي عطا الله الجمل، مرجع سابق، ص ص53، 55.

[62] مطلب نادى به أعضاء حزب "اللامركزية" برئاسة رفيق العضم فيما بعد، وحسبهم أن اتباع لامركزية الحكم هو سبيل لتفادي انهيار الدولة. أنظر: شوقي عطا الله الجمل، مرجع نفسه، ص56.

[63] عادل الصلح، مرجع سابق، ص182.

هذا الموقف السياسي أصبح يدل أكثر من وقت مضى على تلك الرغبة الجامحة التي ميزت الوطنيين السوريين في تغيير الوضع السائد في البلاد العربية، والحصول على استقلال أو استقلال ذاتي يمكنهم من إقامة كيان عربي – دولة – تستطيع الوقوف إلى جانب الدولة العثمانية في مواجهة التحديات والتحرشات الأجنبية الأوربية. هذا الموقف ازداد صلابة بعد تلك السياسة الجديدة التي بدأت تنتهجها الدولة العثمانية في عهد السلطان عبد الحميد الثاني خاصة في البلاد المشرقية باعتبارها المنطقة الوحيدة التي مازالت باقية لها رغم المحاولات والدسائس الخفية من جانب الدول الأوربية لتثبيت وجودها في المنطقة. هذه السياسة كانت ترمي إلى تقوية إيمان العرب خاصة والمسلمين عامة في إمكانية استعادة الدولة العثمانية قوّتها، وكان من النتائج المهمة في كل ذلك، ظهور تطور ملحوظ في الوعي القومي العربي والإسلامي.

ثانيا: الصراع الأوربي على الحوض المتوسطي وتأثيراته على المنطقة العربية

منذ مطلع القرن التاسع عشر بدأ الاستعمار الأوربي في السيطرة المباشرة على بعض ولايات السلطنة العثمانية أو كما سمّي – الرجل المريض – وذلك باختيارهم نقاطا استراتيجية على البحر الأبيض المتوسط ستكون فيما بعد منطلقا لتوسعهم الشامل داخل السلطنة بعد أن سهّل نظام الامتيازات الأجنبية المعمول به في معظم أرجاء الدولة العثمانية وولايتها الطريق أمام هذا التوسع. فقد تأكد تفوق أوربا في هذا القرن، وظهر إلى الوجود كما

يقول "مكسيم رودنسون" السيطرة الاستعمارية المباشرة.

كتب الدكتور وجيه كوثراني حيث قال «... فالمشروع الفرنسي الذي كان يطمح إلى إنشاء دولة بين الأناضول التركي ومصر منذ 1860 كان لا يزال يشغل الدبلوماسية الفرنسية... ولعل الحرب الروسية العثمانية (1877 – 1878) وما فتحته من أبواب عن طريق تقسيم الإمبراطورية... قد أحيت في الدوائر الاستعمارية الفرنسية مشاريع تقسيميه من هذا النوع... لذلك أصبحت مراصد الاستعمار في المشرق العربي في ذلك الوقت أكثر دقة في التقاط أصوات التّذمر ومشاعر النفحة ضد الأتراك، وأكثر اهتماما في التركيز على الخصوصيات الإثنية والطائفية في المناطق التي يسعى لتركيز الهيمنة عليها وفصلها عن الدولة العثمانية...»[64].

وقد كان للمنافسة الدولية حول بسط الدول الأوربية نفوذها على هذه المنطقة الأثر الكبير في تكوين الكيانات السياسية في مطلع القرن العشرين، وهكذا أصبحت مطامع ومصالح الدول الاستعمارية (فرنسا – إنجلترا) هي العامل الحاسم في تنظيم وتقسيم دول المستقبل•. وفي ظل هذه التوازنات الدولية أصبحت بلدان المشرق الأوسط وخاصة البلاد العربية المطلة على البحر الأبيض المتوسط أحد المحطات الأساسية لهذا التنافس الأوربي الحاد، وذلك

---

[64] وجيه كوثراني، الاتجاهات السياسية والاجتماعية في جبل لبنان والمشرق العربي 1860–1920، معهد الإنماء العربي، ط2، 1978، ص222.

• هنا يجب الإشارة إلى أن الاتفاق الودي الذي عقد بين فرنسا وإنجلترا عام 1904. جمّد تنافس كل منهما ضد الآخر وأعقب ذلك زيادة التفاهم بين الدولتين على اقتسام أملاك الإمبراطورية العثمانية.

بسبب ضعف الدولة العثمانية من جهة، ولمحاولة إنجلترا وفرنسا من جهة أخرى إحياء طريق البحر الأحمر ومصر وإعادته إلى مكانته السابقة قبل الانقلاب التجاري حتى يستخدم في المواصلات والتجارة بين أوربا وجنوب شرقي آسيا.

1 – ظروف قيام الصراع

تعتبر نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر من أهم فترات الحركة الاستعمارية، حيث اشتدت بشكل كبير نتيجة تضارب المصالح وظهور النزعة الاستعمارية التي أدت بأوربا إلى الدخول في حلبة الصراع والتنافس من أجل الظفر بمناطق النفوذ في مختلف المناطق الاستراتيجية، ومن أهم الظروف التي أدت بفرنسا وإنجلترا إلى الدخول في مجال التنافس الاستعماري نذكر:

1) الثورة الصناعية التي سادت أوربا خاصة فرنسا وإنجلترا، خلال الجزء الأول من القرن التاسع عشر، إذ مكّنتهم من توجيه أنظارهم نحو الخارج[65].
2) هزيمة نابليون بونابرت في معركة "واترلو" عام 1814 سمح بعودة الرجعية وتمكنها من استعادة مكانتها في أوربا.
3) انعقاد مؤتمر فيينا عام 1815 الذي أهم ما تناولت جلساته محاربة القرصنة في البحر الأبيض المتوسط. وقد اعتبر ذلك إشارة إلى تقسيم ممتلكات الدولة العثمانية المتنازع

[65] **زاهر رياض، استعمار إفريقيا، (د.ق.ط.ن)، القاهرة، 1965، ص192.**

عنها بين القوى الأوربية[66].

4) الضعف اللامتناهي التي أصبحت تعيشه الدولة العثمانية، إذ أصبح في غير مقدراتها الوقوف في وجه الأطماع الأوربية، خاصة وأن هذه الأخيرة عملت على نخرها من الداخل عن طريق إثارة الصراعات الإثنية والطائفية.

2 – أسبابه

أ – الأسباب الجيوإستراتجية

إن الموقع الاستراتيجي الذي تحتله الدولة العثمانية ساعد على نمو الأطماع الاستعمارية الأوربية خاصة الأطماع الفرنسية والإنجليزية، إذ حاولت كلا القوتين السيطرة على هذه الأقاليم لما لها من إشراف بحري (سوريا – مصر) وإطلالهما على البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر. هذه الخصائص وغيرها جعلت الأقاليم العربية محل صراع وتكالب كبيرين بين الدولتين، فرنسا التي لا تطمح إلى الاكتفاء بدول الشمال الإفريقي الواقعة على جنوب البحر الأبيض المتوسط فحسب، بل تريد أن تكون كل حدود تلك المنطقة خاضعة لسيطرتها. أما إنجلترا فهمها ليس فقط الوقوف في وجه الأطماع الفرنسية بل تريد كذلك إحياء أمجاد الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس، ولا يكون ذلك إلا بالسيطرة على البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر[67].

---

[66] البطريق، ونوار، التاريخ الأوربي الحديث من عصر النهضة إلى مؤتمر فيينا، دار النهضة العربية، بيروت، 1971، ص ص480، 481.

[67] وهيبة قطوش، الصراع الفرنسي البريطاني في المشرق العربي (1798 – 1899)، (د.خ.ن.ت)، الجزائر، 2013، ص18.

وقد كان التنوع الطائفي في بلدان المشرق العربي مفتاح السياسة الاستعمارية، إذ اعتمدت عليه الدول الأوربية لتجد لها موقعا مناسبا ضمن منطقة معينة تسكنها أقلية مسيحية معينة، وقد اعتمدت عليها لبسط نفوذها وسيطرتها على تلك الدول.

ب – الأسباب السياسية

إن حتمية الصراع بين فرنسا وبريطانيا تعكسه المصالح المتضاربة بينهما والنزعة الاستعمارية التي طبعت كل منهما، فالرغبة في التوسع والزعامة تدفع كل دولة إلى العمل على مختلف الأصعدة واللعب على كل الأوتار من أجل بلوغ أهدافها بالاعتماد على خطط قد تتشابه أحيانا وتختلف أحيانا أخرى[68].

وقد سجل التاريخ الأوربي الحديث أمثلة عديدة لتضارب المصالح الفرنسية الانجليزية، لاسيما ما حدث مع مصر أثناء شق قناة السويس، إذ تمكنت بريطانيا سنة 1875 من شراء أسهم مصر دون إشراك فرنسا صاحبة الامتياز لحفر القناة، أو حتى في مسألة الدّين المترتب عنها آنذاك.

ج – الأسباب الاقتصادية

عرفت القارة الأوربية تحولات كبيرة تمثلت في الكشوفات الجغرافية، تبعته الثورة الصناعية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر. فقد كانت هذه الأخيرة عاملا زاد من حدة الصراع والتنافس الأوربي خاصة بين فرنسا وبريطانيا خلال القرن التاسع عشر. فقد

---

[68] وهيبة قطوش، مرجع سابق، ص14.

دفعت القوى الأوربية إلى البحث عن المواد الأولية ومصادر الطاقة الجديدة للدفع بعجلة التصنيع، فراحت تبحث عنها في الأقاليم الغنية بالمواد الأولية وبالتالي مثّل ذلك محركا قويا للبقاء والاستمرار والسيادة بالنسبة لكل الدول الاستعمارية[69] وفي مقدمتها فرنسا وإنجلترا. وقد اعتبر المشرق العربي هدفا استراتيجيا وخزانا اقتصاديا طبيعيا للعديد من الدول للاستحواذ على خيراته والتي تشبع حاجيات هذه الدول الاقتصادية والبشرية. إن زيادة وتيرة النمو الاقتصادي في أوربا نتيجة الثورة الصناعية أدت إلى زيادة حاجياتها من المواد الأولية والبحث عن مناطق نفوذ استراتيجية. وفي هذا الصدد صرّح الاقتصادي الإنجليزي "هويسن" «... أن الاستعمار كان يعزّى إلى قوة اقتصادية جديدة كانت تعمل في معظم الدول الصناعية في وسط أوربا وغربها، وأن الدافع الحقيقي كان دوما الجشع إلى المواد الخام الرخيصة...»[70].

لقد كان الموقف الأوربي اتجاه الدولة العثمانية يقوم على شقين، فقبل مؤتمر برلين 1878 كانت الخطة الأوربية تقوم على الإبقاء على الدولة العثمانية متواجدة على الساحة الدولية بشرط أن تفرض سيطرتها عليها، ففي هذه الحالة بقاؤها خير من زوالها وفنائها، لكن بعد المؤتمر أصبحت هذه الدول تتجه نحو ضرورة تفكيكها وتقسيم ممتلكاتها. وقد تأثرت الدول العربية كثيرا من هذا التغيّر في الاستراتيجية الأوربية خاصة وأن الدولة العثمانية خلال هذه

---

[69] وهيبة قطوش، مرجع سابق، ص23.

[70] وهيبة قطوش، مرجع نفسه، ص24.

الفترة أصبحت عاجزة عن الدفاع عنها.

3 – مجالاته

لم تتمكن الدولة العثمانية رغم نجاحها في إغلاق البحر الأحمر أمام السفن الأوربية في إعادة نشاط التجارة إلى المشرق العربي وظلت التجارة تسير عبر طريق الرجاء الصالح. وعند نهاية القرن الثامن عشر الميلادي تفجّر الصراع بين إنجلترا وفرنسا، ودخل العالم العربي في إطار التنافس الاستعماري بين الدولتين، ومن أبرز مجالات هذا الصراع في العالم العربي ما يلي :

1 – مصر :

لقد احتلت مصر مركز الصدارة في المنافسة الاستعمارية بين فرنسا وإنجلترا بسبب قربها من الهند، ونشطت المشاريع الخاصة بإعادة شق قناة عبر برزخ السويس لتصل بين البحرين المتوسط والأحمر لإعادة حركة التجارة العالمية عبر البحار الشرقية مجددا بسبب قصر هذا الطريق من جهة، وانخفاض تكلفة النقل من جهة أخرى. فقد أدى هذا العامل الاستراتيجي إلى زيادة التنافس بين الدولتين للسيطرة على بحر العرب ومنطقة الخليج العربي. وقد نجحت الدول الأوربية في حث السلطان العثماني على فتح طريق البحر الأحمر أمام التجارة الأوربية، فوافقت الدولة العثمانية على ذلك إرضاءً لهذه الدول وتجنبا للمواجهة معها بعد أن استفحلت مظاهر الضعف في كيانها نتيجة ضعف نظامها الإداري والاقتصادي، وخروج الأقليات عن سلطانها وخاصة في منطقة البلقان التي كانت تلقى

الدعم والتأييد من الدول الأوربية المجاورة كالنمسا وروسيا، وانتشار الحركات الانفصالية في العالم العربي.

لقد علم الفرنسيون مدى أهمية مصر للتجارة الهندية إذ قال "تاليران" Taléran في خطابه لنابليون في 13 سبتمبر 1797 «...إن مصر كطريق تجاري ستعطينا تجارة الهند لأن المعمول في التجارة هو الوقت، وبالتالي عند الاستيلاء على مصر نستطيع أن نقوم بخمس رحلات بدل ثلاث بالطريق المعتاد حول رأس الرجاء الصالح...»[71]. وفي هذه الفترة كان الصراع على أشده بين فرنسا وإنجلترا حول مناطق النفوذ، خاصة وأن فرنسا قد فقدت مستعمراتها في الحروب مع انجلترا، ففكرت في الاستيلاء على مصر لضرب إنجلترا في الهند ضربة قاضية، هذا إلى جانب أن فكرة احتلال مصر قد راودت الساسة الفرنسيين منذ زمن بعيد. وهذا ما اتضح لدى "سورال" Sorel في مقدمة كلامه عن مصر حيث يقول:

«...Un rêve qui depuis les croisades hante les imaginations françaises...»[72].

وفضلا عن ذلك، فإن احتلال هذه البلاد وإحياء طريق السويس من شأنه أن يحدث انقلابا في تجارة أوربا ويلحق أضرارا عظيمة بإنجلترا التي تعتمد على تجارة الهند في استمرار تفوقها السياسي في أوربا[73].

كل هذه العوامل مهدت الظروف للزحف الفرنسي نحو مصر بقيادة نابليون بونابرت سنة

---

[71] حسن مؤنس، الشرق الإسلامي في العصر الحديث، مكتبة الثقافة الدينية، 1992، ص98.

[72] نقلا عن حسن مؤنس، مرجع نفسه، ص73.

[73] هند فتال، ورفيق سكري، تاريخ المجتمع العربي الحديث والمعاصر، ط1، 1988، ص208.

1789، كما عقدت معاهدات تحالف وصداقة مع حكام منطقة الخليج العربي، وبهذا فقد خلقت الحملة الفرنسية ما يسمى باسم (المسألة المصرية) في تاريخ المسألة الشرقية[74].

إن حدوث الغزو الفرنسي نحو مصر عام 1798 – 1801 قد نبه الإنجليز إلى ضرورة الاهتمام بمصر ومنذ ذلك الحين أصبح العامل الهندي "Le facteur indien" يشكل محور السياسة الإنجليزية نحو مصر والبحر الأحمر، كما كان سببا دفع السياسة الخارجية الإنجليزية إلى تقدير أهمية مصر من الناحية الجغرافية وكذا تقدير أهمية موقعها بالنسبة للإمبراطورية البريطانية في الهند♦.

قامت إنجلترا بعدة محاولات لتثبيت أقدامها في هذا البلد، إذ عملت على كسب بعض الأمراء المماليك وعلى رأسهم محمد بك الألفي ليكونوا رجالها في مصر، وقد توسط الإنجليز إلى السلطان العثماني لأن يعهد الحكم إلى الألفي لكن دون جدوى•. ثم حاولت مرة أخرى لاحتلال مصر فيما عرف بحملة "فريزر" سنة 1807 وكان الفشل نصيبها أيضا.

رغم هذه الإخفاقات فإن إنجلترا لم تقف موقف المتفرج إزاء المشروع التحديثي الذي شرع فيه محمد علي باشا، إذ كانت ترى في هذا الأخير تهديدا حقيقيا على مصالحها، فهو الستار الذي يختفي وراءه الفرنسيون، فلِمَ بقاؤه؟ فمنذ ذلك الحين أصبحت إنجلترا تعرقل كل

---

[74] شوقي عطا الله الجمل وآخرون، مرجع سابق، ص29.

♦ هذه الأسباب كانت وراء اتخاذ إنجلترا موقفا حازما اتجاه فرنسا، والمشاركة في إجلاء قوتها من مصر بالقوة سنة 1801، ثم عملت بعد ذلك لأن يكون لها النفوذ الأعلى في مصر في أوائل القرن التاسع عشر.

• يبدو وأن السلطان العثماني كان على علم بتلك العلاقات التي كانت تربط محمد الألفي بإنجلترا، وأن هذه الأخيرة كانت تلح على السلطان لتعيينه حاكما على مصر إنما كان لخدمة مصالحها في البلاد.

محاولة إصلاح في مصر لأنها كانت تعلم أن كل محاولة إصلاح من شأنها أن تقوي الدولة، وتجعلها قوة في طريق الهند. وانطلاقا من ذلك فهي لم تتردد في القضاء ومحاربة الإصلاحات والنّهضات في المشرق، وهذا هو مفتاح السياسة الإنجليزية إلى يومنا هذا[75]. وما دام عيون الشرقيين قد تفتحت على الإصلاحات وسعوا إليها، فذلك يعني إعلانا للحرب على إنجلترا، وعلى هذا الأساس عملت بريطانيا على تأليب الدول الأوربية ضد مشروعات محمد على، حتى انتهى الأمر بفرض معاهدة لندن سنة 1840 على هذا الأخير، إذ أفقدته جهوده ومشروعاته العربية.

لقد ظلت إنجلترا حريصة على إنجاح مشروعها في مصر حتى تمكنت من ذلك حين استغلت حاجة الخديوي إسماعيل إلى الأموال لتحقيق مشروعات طموحة في مصر، فزادت من إقراضه حتى تمكنت اللجان المالية الإنجليزية–الفرنسية من التحكم في شؤون مصر والذي كانت نهايته حدوث الاحتلال الإنجليزي لمصر عام 1882.

2 – بلاد الشام :

بقدر ما أحرزت إنجلترا تفوقا في مصر أحرزت فرنسا تفوقا في الشام (سوريا – لبنان) والذي اعتبر منطقة نفوذ استعماري لها. وترجع علاقتها بهده المنطقة إلى أيام شارلمان والحروب الصليبية التي قلمت فيها بدور كبير، وخلّفت هناك آثارا واضحة ما تزال حتى اليوم تتمثل في القلاع والكنائس المختلفة خاصة وأن معظم الإمارات الصليبية بالشرق كان أمراؤها

[75] **حسن مؤنس، مرجع سابق، ص230.**

فرنسيين.

وبعد حملة نابليون على مصر أصيب نفوذ فرنسا في الشام بتدهور مؤقت سرعان ما استعادته أثناء حوادث لبنان الطائفية سنة 1860 بين الموارنة والدروز.[76]

لقد سهل الوضع الذي ميز بلاد الشام بعد انسحاب الجيش المصري لتدخل الدول الأوربية وفي مقدمتها فرنسا وإنجلترا، بعدما تحولت من القتال فيما بينها إلى التنافس للحصول على مناطق النفوذ. فقد استغلت الدول الأوربية سوء العلاقة بين الدروز والموارنة، إذ لم تقف هذه الدول خاصة فرنسا وإنجلترا موقف المتفرج من هذه التطورات بل أيدت فرنسا الموارنة فيما أيدت إنجلترا الدروز، فكان من أبرز نتائج ذلك حدوث "مذابح" لبنان 1860.

لقد كانت الموارنة يتمتعون بمكانة خاصة في المنطقة نتيجة التي كانوا يقومون بها ضمن مدارس إرساليات وارتباطهم بروما وتدعيم فرنسا لهم، هذا إلى جانب إقرار الحكم المصري لبلاد الشام الذي اوجد مبدأ المساواة بين الطوائف في المعاملات. وقد أدى ذلك إلى تغيير موازين القوى الاقتصادية والاجتماعية، وإلحاق الضرر بالامتيازات التي حققتها بعض الفئات الأخرى. هذا الوضع الجديد جعل المسلمين في سوريا وحتى في مصر لا يفرحون بانتصارات إبراهيم باشا في الشام لأن عواطفهم كانت مع السلطان العثماني[77]

ولم يقتصر النزاع الطائفي هذا بين فرنسا وإنجلترا الذي هو شكل من أشكال الصراع بين

---

[76] الدروز هم من المسلمين والموارنة هم مسيحيون كاثوليك. للاطلاع أكثر، أنظر: ليلى الصباغ، الجاليات الأوربية في بلاد الشام في العهد العثماني، مؤسسة الرسالة، ط1، 1989، ص762 وما بعدها.

[77] وهيبة قطوش، مرجع سابق، ص75.

الدولتين للهيمنة على المشرق، بل تدخلت دول أوربية أخرى بهدف إيقاد النزاع الروحي الطائفي بين الدروز والموارنة، ويكاد الكل يجزم بأن هناك أياد خفية تحرك الفتنة بين الطائفتين[78]، هذا وقد تأثرت مدن أخرى أيضا بتأثيرات هذه الفتنة. ففي التاسع من جويلية سنة 1860[79] شهدت دمشق حركة تخريبية واسعة قادها جمع من الناس اختلفت الروايّات في تحديد انتماءاتهم، إذ قاموا بعمليات حرق البيوت وقتل المئات من الأشخاص خاصة من المسحيين.

وهنا تجدر الإشارة إلى ذلك الدور الذي لعبه الأمير عبد القادر الجزائري في حماية المتضررين[80] إلا أنه ورغم ذلك فقد كانت الخسائر في الأرواح والممتلكات جسيمة[81].

لقد حاولت العديد من الدراسات التي تطرقت لهذه الفتنة البحث عن الأسباب الحقيقية لاندلاعها، وقد أجمعت جلها على وجود أياد خفية حركتها، رغم اختلافها في تحديد جنسيتها

---

[78] اتهم العديد من الأجانب الذين زاروا لبنان في تلك الفترة، ومن بينهم الرحالة ريتشارد إدواردز، إرسالية الآباء اليسوعيين بأنها كانت وراء هذه الأحداث، تذكي نارها بتدخل أعضائها المستمر في شؤون البلاد. أنظر: خوري إميل، واسماعيل عادل، السياسة الدولية في الشرق العربي من 1789–1958، ج3، بيروت، 1960، ص256.

[79] وهو ما حصل في دمشق من تعدي الدروز على المارونية وعلى كافة المسحيين من الطوائف الأخرى سنة 1860 وقتلهم إياهم وإحراقهم بيوتهم... ولولا حماية الأمير عبد القادر الجزائري لنصارى دمشق لقتلوا عن آخرهم. الأمر الذي أوجب تدخل فرنسا واحتلال عساكرها المدن الشامية مدة سنتين تقريبا. أنظر: فريد بك المحامي، مصدر سابق، ص467.

[80] كان الأمير عبد القادر لا يتخلف عن المراقبة القلقة بالنهار والحراسة اليقظة بالليل... ولم ينسحب أبدا. فقد كان يشعر أن حضوره الشخصي ضروري لضمان الأمن للجميع. أنظر: هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، تر، أبو القاسم سعد الله، (د.ت.ن)، (ب ت)، ص287.

[81] شيلشر ليندا، تاريخ دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، تر، عمرو الملاح وديانا الملاح، مراجعة عطاف ماردينى، دار الجمهورية، دمشق، ط1، 1989، ص109.

إن كانت فرنسية أو إنجليزية، فقد كان لكل دولة منهما أطماع سياسية ومصالح اقتصادية في المنطقة وتحاول بكل الوسائل إيجاد ثغرة تخوّل لها التدخل واجتياح البلاد.

كان لأحداث سوريا سنة 1860 الكثير من النتائج[82]، فقد كانت الدولة العثمانية الخاسر الأكبر فيها، ومن خلالها عرفت الدول الأوربية كيف تتدخل في المنطقة كل لمصلحته الخاصة. فقد سارعت فرنسا لتدخل لحل الأزمة تلاه تدخل أوربي حتى لا يدع المجال لفرنسا لوحدها، إذ أرسلت هذه الأخيرة جيشا قوامه ستة آلاف جندي إلى المنطقة. ونتيجة تضارب المصالح تشكلت لجنة دولية سنة 1861 ووضعت تقريرا عرض على السلطان العثماني في شكل اتفاقية نصت على جعل لبنان متصرفية[83] على رأسه حاكم مسيحي غير لبناني يساعده مجلس متكون من اثنا عشر شخصا منهم أربعة من الموارنة، وثلاث من الدروز، وثلاث من الروم الأرثوذكس والروم الكاثوليك وسنّي واحد وشيعي واحد[84]. ومنذ 1864 استقر وضع لبنان بموجب الاتفاقية السابقة الذكر والتي أصبحت دستورا دائما للبنان حتى سنة 1914.

ومما يكن استخلاصه أن كل من فرنسا وإنجلترا كان لهما حتما يد في تلك الأحداث باعتبار

---

[82] مست هذه الحرب مجموعات مختلفة ونتج عنها نزوح كثير من اللاجئين نحو جهات ومدن جديدة. أنظر: فواز ليلى، الأزمة السياسية والتحول الاجتماعي: الحرب الأهلية سنة 1860 بجبل لبنان والوضعية الداخلية في سوريا، بحوث المؤتمر الخامس للجنة العالمية للدراسات ما قبل العهد العثماني والفترة العثمانية، المجلة التاريخية المغاربية، تونس، ط1، 1982، ص37.

[83] تتكون المتصرفية من مجموعة من الأقضية (البلديات) وقد تم استحداث هذا الاسم في فترة التنظيمات العثمانية. أنظر: سهيل صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات التاريخية العثمانية، مراجعة عبد الرزاق حسن بركات، مكتبة الملك فهد، 2000، ص200.

[84] رأفت الشيخ، مرجع سابق، ص62.

أن كل دولة لم تدخر أي جهد في تدعيم أطراف النزاع سواء بالوسائل المادية أو بالمساندة السياسية. وقد اعتبرت قرارات 1861 أولى الخطوات لتقسيم المنطقة – بلاد الشام – إلى سبعة مديريات[85] فسيحدد مستقبلها مع قرارات مؤتمر الصلح الذي يؤسس لأرضية اتفاقية سايكس بيكو عام 1916[86].

إن هذه الأوضاع المتردية التي ميزت واقع الحياة العربية من جهة، وشراسة الهجمة الغربية التي استهدفت معظم البلدان العربية من جهة أخرى، جعلت العرب يوجّهون أصابع الاتهام إلى الدولة العثمانية كونها كانت السبب في ذلك. وحسبهم أن الركود والتخلف والانغلاق والتأخر الحضاري كانت أسباب كافية لوقوع هذه البلدان كفريسة سهلة بين أيدي قوى الأوربية الطامعة في أملاك الدولة العثمانية. لذلك فإن الأحداث التي ستعرفها المنطقة العربية خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين كانت مرتبطة بالواقع الذي كانت تعيشه هذه البلدان، فبرزت خلال هذه الفترة اتجاهات فكرية لم ترى حرج في دعوة العرب والمسلمين عامة إلى الاقتباس من أسباب قوة الغرب المسيحي وتجسيدها في الواقع العربي. هذا إلى جانب ظهور مفاهيم غربية حديثة كالحرية، المساواة والدستور والتي ستشكل بعض جوانب مطالب الجمعيات والأحزاب التي ستظهر في إستانبول والبلدان العربية والتي أسّست إلى حدّ ما أرضية خصبة للوعي القومي العربي.

---

[85] رأفت الشيخ، مرجع سابق، ص62.

[86] خوري إميل، وعادل اسماعيل، مرجع سابق، ص256.

الفصل الثاني

الفصل الثاني

البعث العربي الجديد وفجر اليقظة الفكرية

أولا: عوامل التهيؤ للمد القومي العربي

1 – الحملة الفرنسية على مصر وسوريا

2 – الإرساليات التبشيرية في البلاد العربية

3 – محمد علي ومشروع الدولة العربية الحديثة

أ – سياسته الداخلية: (الاصلاحات)

ب – سياسته الخارجية

4 – التنظيمات العثمانية وآثرها

ثانيا: اليقظة الفكرية العربية

1 – إشكالية النهضة

أ – الاستشراق

ب – الترجمة

ج – الطباعة

د – الصحافة

2 – تيارات النهضة

أ – التيار التقليدي

ب – التيار السلفي الإصلاحي

ثالثا: الاتجاهات السياسية الجديدة في العالم العربي

1 – رفاعة رافع الطهطاوي: 1801م، 1873م

2 – جمال الدين الأفغاني: (1839م، 1897م)

3 – محمد عبده: (1849م – 1905م).

4 – عبد الرحمن الكواكبي: (1849م – 1903م).

5 – رشيد رضا: (1865م، 1935م).

لقد عانت الأمة العربية زمناً طويلاً من تنافس القادة والأمراء في سبيل الوصول إلى الحكم، انتهى ذلك بقيام الدولة العثمانية (الشاملة). وقد خضع العالم العربي لحكم الأتراك العثمانيين منذ أوائل القرن السادس عشر، حتى أوائل القرن العشرين، وسادته خلال هذه الفترة الطويلة حالة من الفوضى والجمود الفكري والتأخر الحضاري، بسبب ما كان يتصف به الحكم العثماني من الروح العسكرية المتسلّطة، والتمسّك بأنظمة العصور الوسطى، والحياة الإقطاعية التي لا تلائم روح العصر الحديث.

وفي أواخر القرن التاسع عشر بدأ العالم العربي يستيقظ من سباته الطويل، في الوقت الذي كانت فيه الدولة العثمانية تسير بسرعة نحو الانهيار والانحلال خاصة بعد أن اشتدّ تكالب دول أوربا على اقتسام أملاكها. وفي خلال هذه الفترة، بدأت تلوح في سماء البلاد العربية ملامح نهضة فكرية وسياسية هيّأت لها عوامل داخلية وأخرى خارجية

أولا: عوامل التهيؤ للمد القومي العربي

نتيجة الأوضاع المتردية التي أصبحت تعيشها الولايات العربية العثمانية، فقد شهد الوعي العربي تفككا وانحطاطا كبيرا ولكن دون أن تمحى أصول الذات العربية، حتى حان موعد نهضتها من جديد عند التقى الغرب بالشرق. وقد مهدت لهذه الانتفاضة عدة عوامل هيأت لتطور الفكر القومي الحديث.

1 – الحملة الفرنسية على مصر وسوريا

كانت حملة نابليون بونابرت على مصر كإحدى مراحل التّنازع الذي قام بين فرنسا

وانجلترا على الفتح والاستعمار، ورغبة السياسة الفرنسية في القضاء على النفوذ الإنجليزي في الهند والشرق الأدنى. ففتح المشرق العربي عينيه على مدافع نابليون وأخذ يستيقظ ليستعيد مجده الغابر. وقد مثل هذا الغزو أولى خطوات الشرق نحو البعث واليقظة الحديثة. لقد أضافت الحملة الفرنسية سنة 1798 حلقة جديدة في طريق التّمهيد للنهضة الحديثة، إذ خلقت يقظة فكرية ذات طابع علماني مهّدت السبيل للبناء الحديث ولاستنبات الفكرة[87] القومية الحديثة.

ولم تكن السياسة النابليونية في مصر هي التي غرست أصول البعث الجديد، بل أدت إلى عملية بناء فكري حديث، وإرشاد للأخذ بأسباب الحضارة الحديثة منذ هذا التاريخ. ومن مظاهر ذلك أنّ هذه الحملة هزّت المجتمع المصري هزّة أفاق بها من نومه، وأمدّته بمعطيات فكرية ومادية جديدة.

صحيح أن الحملة كانت في أساسها عسكرية إلا أنّ نابليون اصطحب معه أيضاً جيشاً من العلماء، كالجيولوجيين والرياضيين والمؤرخين، وحتى علماء الآثار القديمة. ولم يقم هؤلاء العلماء فقط بإيجاد حلّ للقضايا العربية العلمية (كصنع البارود من الموارد الطبيعية المتوفرة في مصر، ومكافحة الأمراض المنتشرة في الجيش...) بل قاموا أيضا بوضع دراسة شاملة لهذه البلاد وظهرت نتائج دراساتهم في عشرين مجلداً من كتاب "وصف مصر "Description"

[87] حازم نسيبة، القومية العربية، تر، عبد الله شرارة، (م.ف.ط.ن)، بيروت، 1959، ص35.

"de l'Égypte[88]. كما أنشأ نابليون في هذا الجزء من البلاد العربية "الجمعية العلمية المصرية"L'institut d'Égypte" 1798، وقد اشترك فيه عدة علماء فرنسيين أمثال مونج Monge، برتولييه Berthollet، لابير Lapère[89]. وقد أثارت هذه الدراسات إعجاب مؤرخ هذا العصر عبد الرحمن الجبرتي، حين وصف بعضاً منها في كتابه "عجائب الأثار في التراجم والأخبار" حيث قال «... ومن أغرب ما رأيته في ذلك المكان – المخبر – أن بعض المُتقيّدين لذلك أخذ زجاجة من الزجاجات الموضوع فيها بعض المياه المستخرجة، فصبّ فيها شيئاً في كأس، ثم صبّ عليها شيئاً أخر... وأخذ مرة شيئاً قليلاً جدّا من غبار أبيض، ووضعه على السندال وضربه بالمطرقة بلطف فخرج منه صوت هائل...انزعجنا منه، فضحكوا عنّا...»[90].

أمّا عن أثر حملة نابليون في إثارة الروح القوميّة في هذا القطاع فقد ظهر متعدّد الجوانب، فبطريقة غير مباشرة أثار نابليون مشاعر الوطنيين عندما لجأ إلى أسلوبه المعتاد في إصدار منشورات حافلة بأمجاد المصريين. وقد أخذ هؤلاء يقرؤون هذه الأخيرة، ويلتمسون فيها معاني الفكرة القومية. كما قام نابليون باجتذاب قلوب المصريين حينما شرع يخاطبهم بعبارات الودّ، ووعدهم في منشوراته بأن يجعل دواليب الحكم في أيديهم. وبذلك استطاع نابليون أن

---

[88] لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية الحديث، دار الفارابي، بيروت، ط9، 2007، ص56.

[89] عليّ المحافظة، الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة (1798–1914)، (أ.ن.ت)، ط3، 1980، ص104.

[90] عبد الرحمن الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، تحقيق وشرح حسن محمد جوهر وآخرون، لجنة البيان العربي، القاهرة، 1958، ص37.

يثير في نفوس المصريين الروح القومية، ونشر في أوساط المجتمع المصريّ معانٍ لم يألفوها كالحرية والمساواة اللّتان كانا لهما دوراً كبيراً في الحركة القومية.

رغم تفاعل تلك المعاني مع مشاعر الشعب المصري، إلاّ أنّه لم تبلغ منهم مبلَغ القرار، لأنهم سرعان ما هبّوا إلى مقاومة نابليون. فكما أثار هذا الأخير في المصريين الروح القومية فإنّه في نفس الوقت أثارهم باعتدائه واعتداء جنوده على البلاد وأهلها. فقد أثارت تلك الاعتداءات سخطاً وكراهيةً الأمة للاحتلال الفرنسي، وحملتها على مقاومته بكل الوسائل، فكانت هذه المقاومة النواة التي انبعثت منها الروح القومية في مصر.

وبذلك غرست الحملة الفرنسية في نفوس المصريين معاني التضامن والشعور بالمسؤولية الجماعية، والنّفور من الظلم وغيره من المعاني التي تساعد على يقظة الشعور القوميّ، وإن كان أخذ يتبلور في إطار الفكرة الإسلامية ويتجلّى في مقاومة الحملة.

2 – الإرساليات التبشيرية في البلاد العربية

بدأت الإرساليات التبشيرية Les Missionnaires تفد إلى بلاد الشام في القرن السابع عشر الميلادي، وكان معظم المبشرين من المذهب الكاثوليكي.

لقد مارست هذه البعثات نشاطا دينيا واسعا في بعض ولايات الدولة العثمانية وبخاصة في بلاد الشام ابتداءً من القرن السابع عشر وعلى وجه التحديد سنة 1625[91]. وتنتمي هذه البعثات إلى مختلف الدول الأوربية وإلى الولايات المتحدة الأمريكية فهي كاثوليكية،

[91] **محمد سهيل طقوس، مرجع سابق، ص582.**

بروتستانتية وأرثوذكسية، وفد أفرادها من فرنسا والولايات البابوية، ومن بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية، ومن روسيا وبروسيا.

لقد مارس أعضاء هذه البعثات إلى جانب النشاط الديني نشاطا تعليميا وثقافيا واسع النطاق[92]، فقد جاءت هذه الإرساليات إلى الشرق بهدف العقيدة النصرانية بين المسلمين. كما كانت كل طائفة تنصيرية ترغب وتعمل على تحويل النصارى من المذاهب الأخرى إلى مذهبها.

ركزت هذه البعثات جهودها في بلاد الشام بشكل خاص، وقد يرجع بعض المؤرخين أسباب ذلك إلى ما يلي :

1) كثرة عدد النصارى في بلاد الشام.
2) معرفة هؤلاء بإحدى اللغات الأجنبية وبالعادات المحلية، كل ذلك سهل عليها العمل وبخاصة في ميدان الترجمة[93]

وبعد توطيد الإرساليات التبشيرية أقدامها في تراب الدولة العثمانية بدأت عملها الفعلي خلال القرن التاسع عشر، إذ عملت على بناء المدارس وإنشاء الجمعيات الادبية والعلمية. وقد كانت أولى هذه المدارس التي أسّستها هذه الإرساليات مدرسة عين ورقة في القرن الثامن عشر في منطقة ديرمار أنطونيوس بلبنان، وفيها كانت تدرس اللغة العربية والسريانية

---

[92] محمد سهيل طقوس، مرجع سابق، ص582.

[93] محمد سهيل طقوس، مرجع نفسه، ص582.

واللاتينية والإيطالية وعلم اللاّهوت وبقية العلوم الأخرى[94] وبعد ذلك أخذت تتوالى عملية إنشاء المدارس والمؤسسات الثقافية والتي اهتمت بتدريس اللغة العربية في بداية عهودها [95] وقد كانت فرنسا من أولى الدول التي دعمت وعملت على توسيع دائرة انتشار الإرساليات التبشيرية، علما أن النفوذ الفرنسي في بلاد الشام تمثل أول ما تمثل في تلك الإرساليات التبشيرية (الجزويت) أو اليسوعيين التي قامت فرنسا بإرسالها للمنطقة. ذلك أن الحكومة الفرنسية كانت تعمل في كل مرة للحصول على امتيازات دينية في المعاهدات التي تعقدها مع السلطان العثماني، وكانت بداية هذا الامتياز الديني في سنة 1609 والذي جاء فيه «حرية الرعايا الفرنسيين لزيارة الأماكن المقدسة وكذلك رعايا الدول الصديقة والحليفة باعتراف السلطان وحمايته...» [96]وفي سنة 1673 اتسعت هذه الامتيازات بحيث أضيف إليها حرية امتلاك الكنائس والمعابد والأماكن المقدسة داخل الأراضي الإمبراطورية العثمانية كلها.

وظلت فرنسا تطالب بمزيد من الامتيازات في كل مرة تتحصل فيها على امتياز من السلطات العثمانية، حتى تمكنت من فرض حمايتها على المسيحيين المارونيين في جبل لبنان وكل الراضي الإمبراطورية العثمانية[97].

---

[94] الغالي غربي، مرجع سابق، ص217.

[95] مصطفى الشهابي، القومية العربية، معهد الدراسات العربية العليا، جامعة الدول العربية، ط2، القاهرة، 1961، ص44.

[96] Lyautey, Pierre, Le Drame oriental et le rôle de la France, Paul Brodard, Coulommiers, 2eme éd, 1924, p148.

[97] حكمت ياسين، السياسة الفرنسية تجاه الثورة العربية (1916–1920)، (د.ت.ن)، تونس، 1981، ص23.

وهكذا كانت فرنسا تود بوسيلة أو بأخرى فرض حمايتها على الرعايا المسحيين من أهل البلاد، وادعت لنفسها ذلك دون أن يثبت صراحة. كما قامت بفرض احترام هذه الحقوق على جميع الدول الأوربية وحتى البابا الذي أصبح يؤيد موقف فرنسا في المشرق العربي، وقد كان لهذه الحماية الدينية التي تكلفت بها فرنسا أثر واضح في احتلالها مكانة مرموقة في منطقة المشرق العربي، وكان هؤلاء المحميون الموارنة يكنّون الحب والإخلاص لفرنسا، لأنها كانت تحميهم من ظلم السلطان، وتقدم لهم كل أشكال الدعم والمساندة[98].

ونتيجة هذه الرغبة الملحة استطاعت فرنسا ان تبسط حمايتها على خمس كنائس في الشرق، وكانت أولى هذه الكنائس وأهمها الكنيسة المارونية وكنيسة المالكيين في فلسطين♦ كما كانت تحمي رسلها في كل من بيروت وبغداد.

كان لهذه الحماية أثر واضح في توطيد النفوذ الفرنسي في المجالات الاقتصادية والثقافية، كما كانت سببا في وجود القناصل الفرنسيين في المنطقة لأنه لولا وجود الرعايا المسحيين هناك والذين أصبحوا يشكلون تبعية (clientèle) ما كان هناك مبررا لوجود القنصليات وإرسال القناصل الذين كانوا يتقاضون مرتبات عالية[99]• نظير اهتمامهم بشؤون الرعايا.

وقد لعب المارونيون في لبنان دورا كبيرا في مساعدة فرنسا على تثبيت وجودها في المشرق

---

[98] Eugene, J., Les puissances devant la révolte arabe, Charles Herissy, Paris, 1906, p187.

♦ كان عدد أفراد الكنيسة المارونية 450.000 نسمة لهم بطريرك و8 أساقفة والمالكيين 150.000 لهم بطريرك و13 أسقفا، والسوريين الكاثوليك 60.000 نسمة ولهم بطريرك و8 أساقفة والعرب اللاتينيين في فلسطين 120.000 نسمة لهم بطريرك و13 أسقفا.

• لأن رعاياهم في الشرق كانوا مجرد طباخين وعمال مطاعم لا يساوي وجودهم مبلغ خمسة وعشرون ألف فرنك كان يدفع لكل قنصل. أنظر: Eugène, J. op. cit, p190.

نتيجة دخولهم تحت المظلة الفرنسية وأصبحوا يشكلون النواة الأساسية لحماية مصالح فرنسا في آسيا الصغرى. وقد ذهب أحد الكتاب إلى القول بأنه «لو فقدت فرنسا من هم تحت حمايتها فإن تحالفها مع المارنيين يضمن لها مكانا مرموقا»[100]. غير أنه هناك تناقض واضح في الموقف الفرنسي اتجاه الإرساليات التبشيرية، ففي الوقت الذي كانت فيه هذه الأخيرة تحارب رجال الدين الكاثوليك والكنيسة داخل فرنسا وتصادر أموالها♦، كانت تقوم بحمايتهم في المشرق العربي وتقدم لهم الدعم المادي والمعنوي، وكانوا من أعز أصدقائها في خارج الحدود الفرنسية. ففي سنة 1881 بينما كانت فرنسا تقوم بتنفيذ المراسيم من أجل حل الجمعيات الدينية وبطرد رجال الدين اليسوعيين من البلاد، كانت في نفس الوقت تفاوض اليسوعيون حول تأسيس مدرستهم الطبية في بيروت. وبهذا يتضح جليا أن المصلحة السياسية لا العاطفة الدينية هي التي كانت تحمل فرنسا للتظاهر بحماية النصرانية في الشرق[101]، وقد كانت هذه السياسة المتناقضة للحكومة الفرنسية تطبيقا للمبدأ الشهير الذي نادى به "غامبيتا Gambetta" حين قال «إن سياسة العداء لرجال الدين والكهنوت ليست بضاعة للتصدير[102]: «L'anticléricalisme n'est pas un article d'exportation».

وبهذا نستطيع القول أنّ فرنسا كانت تجد في مساعدة الإرساليات التبشيرية وتسهيل مهمتها في أراضي الإمبراطورية العثمانية خاصة في لبنان والشام مصالح سياسية كبرى، لأنها

---

[100] **Eugène, J, op cit, p198**

♦ **لأن فرنسا في هذه الفترة كانت تتجه نحو العقل أكثر من الدين.**

[101] **مصطفى الشهابي، محاضرات في الاستعمار، ج2، مطبعة نهضة مصر، القاهرة، 1957، ص128.**

[102] **Eugène, J., op. cit, p186.**

كانت تعمل على نشر الديانة المسيحية الكاثوليكية بالذات، هذا إلى جانب نشر الثقافة والأفكار الفرنسية والعادات والتقاليد التي سرعان ما انتشرت بين أهالي البلاد.

ظلت منطقة لبنان والشام مسرحا لنشاط الإرساليات الفرنسية لوحدها، لكن قدوم البعثات الأمريكية إلى المنطقة سنة 1820 ودعوتها للمذهب البروتستانتي، جعل التنافس بين الطائفتين على أشده سواء في فتح المدارس المتعددة أو المؤسسات الطبية، أو محاولة تنصير الأهالي وإيجاد تبعية محلية تكون ركيزة لهم في البلاد. وقد نشطت جميع هذه الإرساليات في حركة التبشير، والملاحظ أن هذه الظاهرة الدينية كانت ستارا يخفي وراءه الأطماع السياسية والمصالح الاقتصادية التي كانت تعمل من أجلها هذه الإرساليات.

نظرا للعراقيل التي واجهت نشا ط هذه الارساليات سواء من قبل السلطة العثمانية أو من الأهالي أنفسهم في سوريا ولبنان وفلسطين، لجأت هذه الاخيرة إلى الاعتماد على طرق متنوعة لتوطيد نفوذها. إذ تمّ الاعتماد على البعثات والمؤسسات الطبية «لأن رجالها يحتكون دائما بالجمهور، ويكون لهم تأثير على المسلمين أكثر مما للمبشرين الآخرين»[103]. وقد تأكد هذا الدور من خلال تصريح الدكتور آراهادس أحد أطباء إرسالية التبشير في طرابلس الشام حيث قال «يجب على طبيب إرسالية التبشير ألّا ينسى ولا في لحظة واحدة أنه مبشر قبل كل شيء، ثم طبيب بعد ذلك»[104]. وبالفعل مارس هؤلاء الأطباء دورهم وتعليمات

---

[103] لوشاتولييه، الغارة على العالم الإسلامي، تر، مساعد اليافي ومحب الدين الخطيب، المطبعة السلفية، القاهرة، 1950، ص36.

[104] لوشاتولييه، مرجع نفسه، ص37.

حكوماتهم بدقة، إذ لم يكونوا يتهاونون. في فرض آرائهم على المرضى أثناء مقاساتهم الآلام ويجرعونهم أفكارهم قبل أن يجرعونهم دوائهم، ولم يكونوا يوافقون على معالجة المريض إلا بعد أن يحملوه على الاعتراف بأن الذي يشفيه هو المسيح، كما حدث في "بلدة الناصرة في السودان وبلدة عثمان في اليمن"[105]. إلى جانب مهنة التطبيب لجأت الإرساليات التبشيرية إلى اعتماد أسلوب عمل الخير والإخلاص في العمل، مستغلين في ذلك الظروف السيئة التي كان يعاني منها السكان لتحقيق أهدافهم الشخصية ومصالح دولهم السياسية، هذا فضلا عن القيام بالأعمال التهذيبية وفتح المدارس والمؤسسات العلمية التي كانت تقبل أبناء المسلمين، ليس حبا بالمسلمين وإنما تحقيقا لأهدافها، وتنفيذا لمخططها الرامي إلى تنصير المسلمين[106]. وكان المبشرون المسيحيون لا يسمحون للمدارس بممارسة مهنة التدريس كغاية لأنهم كانوا يعتقدون أن التدريس في مدارس الإرساليات التبشيرية يجب ألّا يتخطى حدود التبشير♦.

ومنذ سنة 1834 ازداد نشاط هذه الإرساليات في فتح المدارس والكليات، ولعل من أهم هذه العوامل التي ساعدت على ذلك هو مبدأ التسامح الذي أقرّه إبراهيم باشا حين تدخل في بلاد

---

[105] خالدي مصطفى وفروخ عمر، التبشير والاستعمار في البلاد العربية، دار المكتبة العلمية، بيروت، 1953، ص56.

[106] كانت أهداف المدارس والكليات التي تشرف عليها الإرساليات التبشيرية في جميع البلاد العربية متشابهة، وقد كانت هذه المدارس والكليات تعتبر بالدرجة الأولى وساطة للتنصير، حتى الموضوعات كانت تحمل في طياتها الآراء النصرانية. أنظر: خالدي، مصدر نفسه، ص61.

♦ كانوا يرون أن التدريس إذا أصبح غاية في ذاته فسيعمل على تخريج العلماء والأطباء والرياضيين، وبهذا سينتقل من المدى التبشيري الروحي إلى المدى العلماني المحض.

الشام وفتح الباب أمام البعثات الغربية، فسارعت الإرساليات الفرنسية والأمريكية إلى فتح المدارس والمعاهد في أماكن مختلفة خاصة في لبنان. وكان أشهر المدارس التي أسستها الإرساليات التبشيرية الأمريكية هي مدرسة عبية سنة 1846 على يد الدكتور طومسون Thomson ثم أنشأوا في عبية نفسها مدرسة للإناث سنة1847 تحت إشراف دي فوست De fost وزوجته، وكلية روبرت Robert في إستانبول، والجامعة الأمريكية في بيروت التي انشأها دانيال بلس وطومسون على غرار المدارس التي أسسها سيمون كالهن Simon Calhan سنة 1835 في بيروت وعين تاب ومرعش وأسيوط وطرابلس والقاهرة. وكانوا جادين في فتح المدارس في بلاد الشام في بيروت والقدس وجبل لبنان. وما إن حلت سنة 1860 حتى كان لهم ثلاث وثلاثون مدرسة فيها ألف تلميذ، خمسهم تقريبا من البنات.

لم يقف اليسوعيون الكاثوليك موقف المتفرج إزاء نشاط الأمريكيين البروتستانت، بل قد استطاعت الجمعيات التبشيرية الفرنسية مثل (إخوان المذهب المسيحي والجزويت وبنات الصدقة، وإخوان القديس جوزيف وغيرها من الجمعيات المتعددة) «...أن تقيم داخل سوريا حتى في وسط الجماعات المتواضعة جدا مدارس ابتدائية تستقبل أكثر الناس فقرا، وتؤمّن لهم التعليم والأكل واللباس...»[107]. فبعد عودتهم إلى الشام سنة 1831، نشطوا في فتح المدارس في بيروت سنة 1839، وفي غزير سنة 1843، وفي زحلة سنة 1844، ثم في دمشق سنة 1872، وحلب سنة 1873. وقد كانت هذه المدارس تقوم بنشاط حثيث في بلاد الشام[108].

---

[107] **Gontaut, R.D., Comment La France s'est installée en Syrie, (N.C), Paris, p6.**

[108] **Henry Richard, La Syrie et la guerre. (D.C), 1916, p16.**

لقد تجاهلت الدولة العثمانية أمر هذه البعثات التبشيرية خلال مرحلة قوتها، إذ لم تكن تشعر بخطر على أمنها الداخلي في ظل نشاط هذه الإرساليات، لكن الموقف قد تغير عندما أصبحت هذه الأخيرة أحد أدوات الحكومات الأوربية تعتمد عليها في بسط نفوذها الديني، الثقافي والسياسي على الولايات التي سيطرت عليها أو تتطلع لامتلاكها، عندئذ أصبح النشاط التبشيري أحد الركائز الاستعمارية.

ففي خلال القرن التاسع عشر تزايد خطر البعثات التبشيرية خاصة في بلاد الشام، إذ ظهرت على السطح الثورات الداخلية والفتن الطائفية، مما شكل تهديدا حقيقيا لأمن الدولة العثمانية الداخلي. وبذلك فتح المجال أمام الدولة الأجنبية للتدخل بحجة حماية أقلياتها، وقد عانت الدولة العثمانية كثيرا من النزاعات الطائفية خاصة بين الكاثوليك والبروتستانت لا سيما في القدس التي كانت تعرف بكثرة تعدد الطوائف[109].

رغم الدور الخطير الذي قامت به الإرساليات التبشيرية في البلاد العربية، إلا أنها ساهمت على تخريج نخبة دخلت الحياة السياسية نتيجة ظروف متعددة. فمنذ النصف الثاني من

[109] لابد من الإشارة إلى أن الحصول على معلومات دقيقة تتعلق بتعداد السكان في القدس خلال فترة الدراسة أمر متعذر لعدة أسباب منها: أن الدولة العثمانية عملت حتى وقت متأخر من القرن التاسع عشر على البحث عن مصادر الثروة من دون اللجوء إلى إحصاء السكان، معتبرة أن مواردها البشرية تنحصر في الأفراد الملزمين بدفع الضرائب، أو بأداء الخدمة العسكرية من الذكور. ولمعرفة أعداد الطوائف سيعتمد منذ بداية القرن التاسع عشر حتى نهايته على تقديرات الرحالة الذين زاروا المنطقة إلى جانب تقارير القناصلة. وفي هذا الصدد نشير إلى إحصائيات المبشر الإنجليزي فيسك (Fisk) فيما يخص بعض أعداد الطوائف عام 1823 في القدس: الأرثوذكس 2000 فرد، الكاثوليك 1500، الأرمن 500. أنظر: أحمد حامد إبراهيم القضاة، نصارى القدس، دراسة في ضوء الوثائق العثمانية، (م.د.و.ع)، ط1، بيروت، 2007، ص ص75-76.

القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين بدأ الفكر السياسي ينتقل إلى مرحلة جديدة من مراحل التطور، وبدأت جذوره تتميز بلون جديد من النضج السياسي، يحتضنه أولا المسحيين العرب ثم ينتشر بعد ذلك بين صفوف المسلمين. غير أن السؤال الذي يطرح نفسه في هذا الصدد: لماذا كان العرب المسيحيّون سبّاقون لاحتضان هذا الوعي السياسي – القومي – قبل العرب المسلمين؟

لقد كان العرب المسيحيون أكثر اتصالا بالغربيين والغرب[110] من العرب المسلمين، لأن اعتقاداتهم الدينية وأحوالهم الشخصية لم تكن تضع بينهم وبين الغربيين حواجز معنوية تعرقل الاتصال الصحيح، لذلك كان تأثير الأوربيين فيهم أشد وأسرع من تأثيرهم في المسلمين، هذا فضلا عن ظروفهم الخاصة في علاقتهم بالدولة العثمانية[111]. كل ذلك ساعد على تهيئة البيئة بينهم لاختمار الفكرة العربية قبل المسلمين.

لقد ساعدت البعثات التبشيرية في الشام على إيقاظ الوعي السياسي العربي بين العرب المسحيين بفضل نشاطها في نقل الثقافة الغربية وإحياء التراث العربي[112] كما كان لهم

---

[110] ساطع الحصري، نشوء القومية العربية، (م.د.و.ع)، بيروت، 1985، ص179.

[111] كانت الدولة العثمانية تعامل المسلمين من العرب معاملة تختلف عن معاملتها للمسحيين العرب، لذلك كان ارتباط العرب بها يختلف باختلاف دياناتهم. فقد كان المسلمون يدعون إلى شرف الخدمة العسكرية ويشتركون في حروب الدولة ويخدمون السلطان العثماني احتراما للدين، أما المسيحيون من العرب فكانوا يعتبرون من رعايا الدولة ولكنهم لا يدعون إلى الخدمة العسكرية ولا يشتركون في حروبها، ولا يرتبطون بها ارتباطا قلبيا، بل كانوا يعتبرونها دولة تسلطية. أنظر: عبد الغني البشري، مرجع سابق، ص125.

[112] جورج أنطونيوس، يقظة العرب، تقديم نبيه ايمن فارس، تر، ناصر الدين أسد وإحسان عباس، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1987، ص ص103–105.

الفضل الأكبر في خلق تلك الحركة الفكرية التي بدأت بوادرها بين فئاتهم المثقفة مبكرة عن المسلمين.

إن المتتبع لتاريخ الطوائف النصارى والنشاط التبشيري في أقاليم الدولة العثمانية، يجد أنها ركزت نشاطها في بلاد الشام أكثر من غيرها من الأقاليم العربية، ذلك لأن هذه الأخيرة – بلاد الشام – أخذت مظهر من مظاهر التنافس الذي كان يثور بين الدول الخارجية، ويؤكد رغبة كل قوة في بسط نفوذها عليها. وقد ظهر ذلك جليا في السباق الذي قام بين بعثات المرسلين الكاثوليك وبعثات البروتستانت واتخذ طريقه في لبنان وفلسطين[113]، إذ أن الإرساليات اللاتينية كانت تعتبر ولاية بيروت ولبنان منطقة نفوذ لدولتها فثارت ثائرتها نتيجة ما أظهرته البعثات الأمريكية من نشاط، فسارعت إلى منافستها في نشر المدارس وإقامة المطابع وإصدار الصحف، واتخذت بيروت نقطة إنطاق لجهودها[114].

إن هذا التنافس القائم بين المبشرين الكاثوليك والبروتستانت في مجال إنشاء المدارس وجلب المطابع وإصدار الصحف يظهر مدى اهتمام هؤلاء ببلاد الشام، لكن هل كانت رغبة هؤلاء نشر العلم والثقافة في المنطقة؟ وفيما تجلت تأثيرات ذلك التنافس على الواقع الثقافي

---

[113] كانت سائر الإرساليات البروتستانتية والكاثوليكية تحتدم فيما بينها مثل هذه المنافسة حتى انتهى الأمر إلى التسابق في ميدان إنشاء المدارس النسائية. أنظر: عبد الغني البشري، مرجع سابق، ص126.

[114] من أهم ملامح هذا التنافس الحاد، أنه عندما نقل الأمريكيون مطبعتهم من مالطة إلى بيروت سارع الآباء الفرنسيون إلى إقامة مطبعتهم الكاثوليكية بعد عامين من ذلك. ولما أنشأ الأمريكيون الكلية الإنجليزية في بيروت سنة 1866، بادر اليسوعيون بنقل مدرستهم إليها من قرية عزيزة، وذلك سنة 1874. أنظر: عبد الغني البشري، مرجع نفسه، ص126.

والسياسي للولايات العربية؟

مهما كان الدافع وراء هذا التنافس، فقد كان من إيجابيات خروج العلم والادب في بلاد الشام من نطاق البعثات الدينية إلى صفوف الشعب، كما أدى هذا التنافس بطريقة غير مباشرة إلى نشر الثقافة بين أفراد الأمة، وخلق جيل مثقف يفكر في البعث القومي بعقلية مستنيرة، ويعتبر ذلك لبنة أولى من لبنات البناء القومي. ومما يمكن الإشارة إليه، أن هذه البعثات لم تقصد بعث الروح القومية بل جاء ذلك بشكل غير مباشر، وذلك عن طريق الإسهام في تجديد المجتمع ونشر العلم بين بعض المسحيين[115].

3 – محمد علي ومشروع الدولة العربية الحديثة

شهدت الولايات العربية التابعة للدولة العثمانية خلال القرن 19م وضعا متميزا نتيجة التدخلات الأجنبية لبعض الدول الأوربية التي اصبحت تعمل جاهدة للتوغل في تراب الولايات العربية بمختلف الأساليب. بالإضافة إلى ضعف الدولة العثمانية الذي بدأ يظهر منذ أواخر القرن 17م.

في هذه الفترة ظهرت بعض الحركات التي أخذت تتطور معبرة عن إحساس وشعور الأهالي اتجاه الدولة العثمانية، وقد مثلهم في ذلك نخبة من المثقفين بثقافة العصر.

أصبحت مصر خلال القرن 19م رائدة في تجربة الانفصال عن الدولة العثمانية بفضل جملة من الظروف قد تهيأت لها، وأولى هذه الظروف موقعها الاستراتيجي الواقع في منطقة عبور

[115] **عبد الغني البشري، مرجع سابق، ص127.**

دولي، والبعيد نوعا ما عن مقر السلطنة، وثانيها الحملة الفرنسية بقيادة نابليون بونابرت التي اجتمعت فيها الأهداف العسكرية والسياسية والاقتصادية، والتي تركت من الآثار القريبة والبعيدة ما جعل المؤرخين يقرّون أنها كانت بالفعل المنبه الأول في اليقظة العربية، والتي ستعرف اتساعا خلال القرن 19م. وأخيرا دخول محمد علي باشا مصر على رأس جيش عثماني لإنقاذها من تحديات الحملة الفرنسية واعادة مصر إلى حضيرة البلاد التابعة للدولة العثمانية. ولعل هذا العامل هو الذي هيأ أكثر لمصر خوض تجربة الانفصال عن الدولة العثمانية.

عند تطرقنا للحديث عن محمد علي في هذه الدراسة ليس غرضه ابراز جهوده للانفصال عن الدولة العثمانية وصموده في وجه التحديات الخارجية خاصة الانجليزية والتي أفزعتها هذه القوة العربية الناشئة، ولا عن تلك الانجازات التحديثية التي قام بها في هذه الدولة العربية – نموذج –، في تلك الفترة إنما الغرض منه إبراز آثار هذه التجربة التحديثية في إنماء الحس السياسي العربي خاصة وأنها كانت ثاني حركة بعد – الحركة الوهابية – التي هددت وزعزعت الكيان العثماني. والسؤال الذي يمكن طرحه في هذا السياق وهو: ما هي آثار تجربة مصر التحديثية على الواقع الفكري والسياسي العربي؟

وصل محمد علي إلى القاهرة من قولة حيث ولد[116] ضمن الفرقة الألبانية التي رافقت الجيش العثماني عام 1799م لتقضي على حملة نابليون، وقد استطاع هذا القائد بفضل ذكائه وقدرته

[116] **جورج أنطونيوس، مصدر سابق، ص81.**

الميدانية كسب ثقة العلماء الذين رأوا فيه مخلص مصر من الفوضى السياسية العسكرية والاقتصادية التي رافقت خروج الفرنسيين قد وجد هذا القائد تأييدا كبيرا من قبل نقيب الاشراف محمد مكرم خلال تأييد العلماء له.

عندما وجد المصريون محمد علي موضع ثقتهم ومكتمل الصفات المرجوة ثاروا ضد المماليك والوالي التركي الذين خلعوه سنة 1805م ثم عقدوا اتفاق مع محمد علي• يتعهد فيه أن يحكم بموجب الشريعة ويقضي على المظالم والأعمال الغير المشروعة، وأن يستشير الزعماء في جميع اعماله واشترطوا إذا ما خالف هذه الشروط ان يكون من حقهم خلعه[117]. وحتى يتمكن محمد علي من تقوية مركزه وتحسين صورته في نظر المصريين شرع بارغام الانجليز على الانسحاب من الاسكندرية عام 1807م. واعتمادا على تقرير القنصل الفرنسي دروفتي فان هذا الانسحاب ما كان ليتم لولا تعهد محمد علي"...حماية المصالح البريطانية وتقديم التسهيلات للحكومة البريطانية لربط مواصلاتها التجارية بالهند..."[118].بعد ذلك تفرغ محمد علي لمواجهة التحديات الداخلية والمؤامرات السياسية بين مختلف القوى المتنافسة على زمام الأمور في مصر، وقد استغل هذا الأخير في هذا المجال سخط المصريين وتذمرهم من

•جاء هذا الاتفاق في شكله دالا على نقطة غير معهودة من قبل، كما كان ذو لون واضح من البث الروحي الجديد، اذ جاء على نسق نظرية التعاقد.

[117] عبد الغني البشري، عبد الغني البشري، مرجع سابق، ص114.

[118] محمد فؤاد شكري، مصر في مطلع القرن 19م (1801 – 1811)، ج3، القاهرة، 1958، ص ص826، 827.

سوء احوال بلادهم من جراء تسلط المماليك♦، وفرق الإنكشارية، وقد كسب لتحقيق مراميه ود العلماء والأعيان بتجنيدهم ضد أعدائه.

بعدما ولّي محمد علي ولاية مصر أحس بثقل العلماء خاصة عندما بدأ يتعجل بعملية الإصلاح التي كانت تتطلب هدم كل ما له صلة بالعهد المملوكي العثماني، فقرر التخلص من عمر مكرم – باعتباره أهم شخصية منافسة له في السيطرة على طبقة العلماء – فأبعده إلى دمياط ومنها إلى طنطا التي توفي بها، عندئذ باشر محمد علي اصلاحاته العامة دون اي مقاومة او رفض من جانب المجتمع المصري.

أ – سياسته الداخلية: (الاصلاحات)

تولى محمد علي ولاية مصر في ظروف حرجة سنة 1805م، وبعد أن وطد نفوذه فيها واستأنس السلطان العثماني بولائه له، انصرف إلى إدخال إصلاحات كثيرة إلى مصر كان لها أشد الأثر على النهضة القومية العربية، اذ تأثر بالنهضة الأوربية ومبادئ الثورة الفرنسية التي جاءت بها حملة نابليون إلى مصر. وقد شملت اصلاحاته عدة ميادين أهمها :

1 – عسكرية:

شرع محمد علي منذ اللحظة الأولى التي تسلم فيها الحكم إلى انشاء جيش نظامي، غير أن قلة الإطارات والأسلحة جعلت العملية تتم ببطء، وقد شكل العساكر الألبانيون نواة

♦ كان المماليك رغم اندحارهم وأفول قوتهم بعد الحملة الفرنسية لا يزالون يشكلون قوة لها جذورها وسيطرتها وقادرة على تأليب الأوضاع الداخلية ضد محمد علي.

الجيش المصري في بداية الأمر إذ لم يجند المصريون فيه، ذلك لان تحيز الاتراك والمماليك كان لا يزال قويا جدا[119]. ومع ذلك قرر محمد علي مبدأ تجنيد الفلاحين المصريين في الجيش بعد الحملة على الجزيرة العربية (1811م – 1819م) وخاصة بعد الحملة على المروة (1824م – 1828م) والتي عانى فيها الجنود الافريقيون الذين كانوا يشكلون القسم الاكبر من الجيش المصري.

في السنوات الأولى قام بتدريب الجيش أخصائيون أجانب فرنسيين وايطاليين، وخاصة تحت اشراف ضباط من عهد إمبراطورية نابليون[120]، كما قام محمد علي بفتح المدارس الحربية لإعداد الإطارات القيادية من المصريين، كمدرسة المشاة دمياط ومدرسة الخيّالة في الجيزة ومدرسة المدفعية في طرة – بالغرب من القاهرة – كما ترجمت الأنظمة العسكرية الداخلية الفرنسية إلى اللغة العربية لكي تكون متوفرة لدى وحدات الجيش الجديدة. فقد كانت كافة تنظيمات الجيش على شاكلة جيش نابليون تماما، حتى إن القوات كانت مجهزة بالمدفعية، وقد كتب أحد مشيري نابليون عنها قائلا: «... يمكن مقارنة هذه المدفعية الممتازة بمدفعية الجيوش الأوربية، وعند النظر إليها يعجب المرء دون ارادة منه بقدرة السلطة التي جعلت

[119] يبدو أن محمد علي اتعظ بتجربة المصلحين التركيين الأليمة–سليم الثالث، مصطفى باشا بيرقدار– الدين سقطا صريعين عام 1808م على أيدي الرجعية. فرأى أنه يجب القضاء على الرجعية الداخلية من أجل تكوين جيش نظامي قوي. أنظر: لوتسكي، مرجع سابق، ص65.

[120] ضباط هاجروا بلادهم بعد عودة البوربون إلى الحكم، ولعب دورا بارزا بينهم الضابط الفرنسي الموهوب "سيف" الذي لقب في مصر بـ "سليمان باشا الفرنساوي". أنظر: لوتسكي، مرجع نفسه، ص66.

من الفلاحين جنود صالحين إلى هذه الدرجة...»[121].

في الثلاثينيات من القرن التاسع عشر، استطاع محمد علي تكوين جيش نظامي مصري عرف تطورا ملحوظا، فقد كان يحتوي عام 1833م على ستة وثلاثون فوجا من المشاة قوام كل منها ثلاثة آلاف جندي وأربعة عشر فوجا من الحرس بلغ تعدادها العام خمسين ألفا، وخمسة عشر فوجا من الخيّالة، وخمسة أفواج من المدفعية تعدادها ألفا جندي، كما أنه كانت توجد في الجيش المصري وحدات غير نظامية يبلغ تعدادهما العام حوالي أربعون ألف شخص.

لم يكتفي محمد علي باشا بإنشاء القوات البرية، بل انكب ايضا على دراسة اصلاحات بطرس الاول بدقة، فقد كان جد متأثر بهذا المصلح الروسي، وعلى منوال هذا الاخير قرر إنشاء أسطول وطني مصري[122]. فهو لم يكتف فقط بشراء السفن من الخارج مرسيليا، ليفورنو، تريستا، بل شرع محمد علي سنة 1829م ببناء دار سفن كبيرة في الإسكندرية "ترسانة الاسكندرية". كما أنه لم يعتمد على الاطارات الاجنبية بل هيئ في وقت قصير الكوادر الوطنية. إذ اكتسب العرب بسرعة الاختصاصات التكنيكية. وفي هذا المجال كتب شاهد أوربي واصفا ذلك فقال: «... إن دار بناء السفن في الاسكندرية والتي كان العرب يقومون بها بكافة الأعمال والتي كان باستطاعتها ان تنافس كل دور بناء السفن في العالم، تشير

[121] **لوتسكي، مرجع سابق، ص66.**

[122] **لوتسكي، مرجع نفسه، ص 66.**

بوضوح إلى ما يمكن عمله بهذا الشعب...»[123].

2 - الصناعة ونظام التجارة الخارجية:

من الطبيعي إن إعادة تنظيم الجيش قد يتطلب تشييد العديد من المعامل، وقد أدرك محمد علي هذه المهمة، فعمل على إنشاء المعامل اليدوية (المانيفاتورات) والمصانع، فبالقرب من دار بناء السفن بالإسكندرية شيدت مصانع لصب المعادن والحدادة والبرادة، ومانيفاتورة أقمشة الاشرعة وغيرها من المشاريع المكملة. كما ظهرت مشاريع جديدة في القاهرة ورشيد، فضلا على ذلك أنشأ مصنع لصب الحديد طاقته الانتاجية الفا طن من حديد الزهر سنويا[124] ُكذلك ثلاث مصانع اسلحة بنيت على طراز المصانع الفرنسية المتقدمة، ومصنع بارود. ولسد حاجيات الجيش والأسطول المصري شيدت معامل القطن الكتان والحبال ومصانع الطرابيش.

لقد بذل محمد علي جهود جبارة في سبيل تطوير الصناعة، غير إن نظام الاحتكار الصناعي لم ينجح نجاحا تاما لارتفاع تكاليف الإنتاج، ومن عيوبه أنه قضى على الصناعات اليدوية الباقية في مصر[125].

أما في مجال التجارة الخارجية، قد شددت الدولة قبضتها عليها مما أثار خنق التجار

---

[123] لوتسكي، مرجع سابق، ص 67.

[124] لوتسكي، مرجع نفسه، ص67.

[125] محمد فهمي لهيطة، تاريخ مصر الاقتصادي في العصور الحديثة، (م.ل.ت.ت.ن)، 1944م، ص ص126، 127.

الأوربيين الذين رأوا ان الأرباح تتدفق على خزانة الدولة بدلا من جيوبهم[126].

3 – الزراعة:

تعد الزراعة من أهم الصعوبات التي واجهت محمد علي في السياسة الاقتصادية، وذلك لما لها من اهمية في حياة المجتمع المصري في العهد العثماني، فأول ما ادخل محمد علي من إصلاحات في هذا المجال، إلغاء التزام الأموال على الارض بعد التعويض للملتزمين بمنحهم رواتب سنوية تعادل فائض الالتزام، وهو المال الذي يبقى لهم بعد دفع مال الالتزام إلى الخزينة الحكومية. وبفضل هذا الاجراء تمكن محمد علي خلال الفترة (1808م/1814م) من الاستلاء على جميع الأراضي الأميرية وأراضي المماليك، ومنه الاتصال المباشر بالفلاحين دون وسائط. أما أراضي الوقف، وهي الأراضي التي خصص أفرادها ايرادات اراضيهم لأغراض الدينية والخيرية، فقد عزل نظّارها والمتولّين عنها من العلماء والمشايخ والأعيان، وعين نفسه مكانهم وحدد لهم رواتب سنوية، وفرض عليها الضرائب مما أثار عليه سخط هؤلاء ورفضهم لإجراءاته.

لقد وزع محمد علي الأرض على الفلاحين، إذ نال كل واحد منهم ما بين ثلاثة إلى خمسة فدان كحق انتفاع لاحق ملكية مقابل دفع الضرائب المستحقة على الأرض، وفي حالة تأخر الفلاح عن تسديد الضرائب تنزع منه الأرض وتعطى لغيره. للتحكم أكثر في المجال

---

[126] **فرغلي علي تسن، تاريخ مصر الحديث، (د.و.د.ط.ن)، الاسكندرية، 2001، ص243.**

الزراعي، قام محمد علي بعملية حصر المساحة المزروعة[127] والقابلة للزراعة في مختلف انحاء مصر مع استبعاد الأراضي البور.

لقد تقدمت الزراعة تقدما سريعا في عهد محمد علي، خاصة إنتاج المزروعات المعدة للتصدير كالقطن، النيلة، الأرز والمحاصيل الأخرى، ومما ساعد على نهوض زراعة القطن إلى حد كبير هو ادخال نوع جديد من القطن يستنبته الفرنسي "جوميل"[128]، إذ كانت له قيمة عالية في الاسواق العالمية، وقد نال مجال الري أيضا قسط من اهتمام محمد علي، إذ رمّمت قنوات الري القديمة وأنشئت أخرى جديدة، كما شرع في بناء أول سد في مصر لحجز مجرى النيل في منحدره شمالي القاهرة (القناطر الخيرية)[129].

ما يمكن الاشارة اليه في ميدان الزراعة، نظام الاحتكار الذي طبقه محمد علي، إذ بموجبه يقتسم هذا الاخير المحاصيل الزراعية مع الفلاحين بعد إجبارهم على بيع محاصيلهم إلى الدولة بالأسعار التي تحددها هذه الأخيرة، وتجمع الحكومة هذه المحاصيل في المخازن لتصديرها إلى الخارج مباشرة أو لتبيعها للوكلاء الاجانب والذين بدورهم يبيعونها في الأسواق الأوربية.

---

[127] فرغلي علي تسن، مرجع سابق، ص34.

[128] لوتسكي، مرجع سابق، ص67.

[129] كنتيجة لهذه الاجراءات ازدادت مساحة الاراضي المروية بحوالي 100ألف فدان، كما ازدادت مساحة الأراضي المزروعة من مليوني فدان سنة 1821م إلى 3.1مليون فدان عام 1833م، أنظر: لوتسكي، مرجع نفسه، ص68.

4 - العلمية والثقافية:

تطلب تكوين جهاز الدولة الجديد أناس مثقفين ومتعلمين، لهذا أوفد محمد علي العشرات من الشباب المصريين أولا إلى تركيا ثم إلى أوربا، وفضل الاستعانة بالإيطاليين في البداية دون الانجليز والفرنسيين الذين كان يخشى تزايد نفوذهم السياسي من خلال تعاونه الثقافي معهم. تتابعت البعثات المصرية بعد ذلك إلى فرنسا وغيرها من الاقطار الأوربية لدراسة مختلف العلوم التطبيقية والنظرية، إذ كانت هذه البعثات العلمية من العوامل العامة في الانفتاح على حضارة الغرب، وترجمت العديد من المؤلفات العلمية والادبية والفنية الغربية إلى اللغة العربية. كما أنشأ محمد علي لأول مرة دارا للطباعة أخذت تقوم بطباعة الكتب باللغة العربية حتى الفارسية والتركية[130] وصدرت في عهده أول جريدة مصرية هي "الواقعة المصرية" وقد تتبع بنفسه الصحافة الأجنبية. وبذلك يكون محمد علي أول من أسهم في النهضة العلمية والادبية التي ألقى الفرنسيون بذورها في مصر[131].

لقد برز على إثر هذه الحركة عدة رواد كرفاعة رافع الطهطاوي (1801م/1873م) الذي ترجم إلى العربية تاريخ اليونان وأخبار الامم القديمة كالبابليين والمصريين[132]، ومنهم الشيخ علي مبارك (1816م/1886م) مؤلف كتاب "الخطط التوفيقية" في عشرين مجلدا، هناك مفكرين آخرين مثل صالح مجدي، وعبد الله أبو السعود، وعبد الله فكري وغيرهم.

---

[130] لوتسكي، مرجع سابق، ص 71.

[131] عليّ المحافظة، مرجع سابق، ص24.

[132] أنور الجندي، الفكر العربي المعاصر في معركة التغريب والتبعية الثقافية، مطبعة الرسالة، القاهرة (ب.ت)، ص ص37، 38.

ب – سياسته الخارجية

بعد انفراد محمد علي باشا بالحكم، سعى إلى الحصول على موافقة السلطان العثماني باستمراره في حكم مصر، ويقال أنّه طلب مساعدة الحكومة البريطانية في الاعتراف به كحاكم مطلق على مصر[133] تحت السيادة الاسمية للدولة العثمانية، ذلك عندما بعث قواته إلى الحجاز لضرب حركة الوهابيين بناءً على طلب السلطان العثماني.

انطلاقا من هذه الانتصارات سعى محمد علي في تنفيذ سياسة خارجية نشطة، وقام باتصالات مباشرة مع الدول الأوربية، وقد تمكن من الإفلات من السيطرة العثمانية، بل وانقلب على السلطان العثماني وقام لمحاربته في الشام وفي داخل الاناضول فيما بعد عندما اعتبره السلطان العثماني خارجا عن طاعته وأعلن عزله، فوجه ضده الجيوش لخلعه بالقوة. لقد سمحت الظروف لمحمد علي باشا على إحياء مجد المشرق العربي، بتكوين دولة عربية كبرى يحكمها هو وأسرته من بعده تكون نواتها مصر، وتضم البلاد العربية المجاورة. وبذلك تكون أول وحدة عربية في العصر الحديث[134] وكانت حدود الدولة الجديدة تمتد من جبال طوروس إلى أعالي النيل ومن حدود ليبيا إلى أعالي نهر الفرات.

اعتمد محمد علي في تحقيق أهدافه على جيوشه بالدرجة الأولى، خاصة بعد إعدادها على النسق الأوربي. كما استغل ضعف الدولة العثمانية التي اصبحت عاجزة عن اخماد الحركات الانفصالية داخل ولاياتها وعن مقاومة أطماع الدول الأوربية. وقد وجه محمد علي باشا

---

[133] حلمي محروس إسماعيل، مرجع سابق، ص165.

[134] حلمي محروس اسماعيل، مرجع نفسه، ص165.

حملات عسكرية شملت الجزيرة العربية (1811م/1818م)، السودان (1819م/1821م)، المورة في اليونان (1822م/1827م)، بما في ذلك بلاد الشام منذ سنة 1831م. وقد زادت هذه الحملات في سمعة مصر خاصة في النصف الاول من القرن 19م.

إن الحديث عن توسعات محمد علي باشا في البلاد العربية عامة، وبلاد الشام بصفة خاصة، ليس غرضه الإشادة بالنجاحات العسكرية التي حققها الجيش المصري بقدر ما يهمنا في هذا المجال تلك التغييرات الفكرية التي طرأت على المنطقة خاصة في فترة حكم إبراهيم باشا. فهل كانت الانجازات التي بادر بها ابراهيم باشا في بلاد الشام حقا أولى لبنات الفكر القومي العربي؟

ان ضم بلاد الشام إلى مصر كان فكرة قد راودت ذهن محمد علي باشا من العشرينيات من القرن التاسع عشر، إذ كان دائم التدخل في شؤونها الداخلية كلما سمحت له الظروف بذلك، وفي كثير من الاحيان تحولت مصر إلى ملاذ لكثير من الشخصيات الساخطة على الدولة العثمانية هناك، مثل بشير الثاني الشهابي أمير جبل لبنان منذ 1822م. وقد كانت أوضاع بلاد الشام متردية وانهيار السلطة العثمانية، عاملا محفزا دفع بمحمد علي إلى التفكير في ضم هذا الجزء من الامبراطورية العثماني مادامت هذه الأخيرة عاجزة على توفير الحماية لها[135].

[135] أسد رستم، بشير بين السلطان والعزيز (1804م/1840م)، منشورات المكتبة البوليسية، بيروت، ط2، 1985م، ص184.

لقد اتفق محمد علي باشا وابنه على إدماج البلاد العربية التي افتتحاها في مملكة واحدة يتوليان حكمها ويرثها من بعدهما أبناءهما. غير أنهما كانا مختلفين في تقديرهما لقوة العرب، ومقدار اعتمادهما على تعاونهم ومساندتهم[136]. فقد كانت أهداف محمد علي تقوم على اكتساب المغانم، وأن يتولى حكم مملكة مستقلة. ولتحقيق هذه الأهداف كان يدرك مدى رضا العرب، إلا أن محمد علي لم يكن صادقا في عاطفته نحوهم – العرب –. إذ لم يكن يتحدث لغتهم، كما أنه كان يستهين بمواهبهم وخصائصهم، وكان يريد أن يكون العرب هم الرّعية الذين يقدمون الطاعة ويحملون الأعباء[137]. أما إبراهيم فقد كان يخطط إلى ابعد مما كان يهدف والده، إذ كان يريد الجمع بين تحقيق النهضة العربية وتأسيس إمبراطورية.

لقد جاء إبراهيم باشا مصر صبيا، ونشأ في محيط عربي، كما درس تاريخ العرب وعرف خلال مقامه في شبه جزيرة العرب فضائلهم، فكانت النتيجة أن ألهب كل ذلك حماسه وأيقظ عواطفه[138].

حين وصل إبراهيم بلاد الشام كان يُظهر علنًا عواطفه نحو سكانها، كما كان يبدو مخلصا في نواياه، وكان إذا تحدث يعتبر نفسه عربيا ويحب أن يحسبه الناس كذلك، وقد قال: «...لقد جئت مصر صبيا فلوّنت شمس مصر دمي وصيّرتني عربيا...»[139].

---

[136] **جورج أنطونيوس، مصدر سابق، ص89.**

[137] **جورج أنطونيوس، مصدر نفسه، ص89.**

[138] **جورج أنطونيوس، مصدر نفسه، ص89.**

[139] **جورج أنطونيوس، مصدر نفسه، ص90.**

لقد حرص إبراهيم باشا في فترة حكمه لبلاد الشام على إحياء الوعي القومي العربي واستعادة القومية العربية، وغرس الروح الوطنية في نفوس العرب. وقد اختلفت وجهة نظره تماما عن وجهة نظر أبيه[140].

كان إبراهيم باشا في السنوات الأولى من زحفه على بلاد الشام يركز جهوده في نشر أفكاره حول نهوض العرب نهضة قومية[141]، إذ كان في كثيرا من بياناته العسكرية يذكر بحماس عصور المجد في التاريخ العربي. ولتحقيق طموحاته، قام بإنشاء جهاز حكم يقوم على تنظيم الدولة مثل الضرائب، التعليم، وحماية القانون والأمن. هذا النظام الذي كانت ميزته ضمان المساواة في الحقوق الدينية والمدنية، وضمان الأرواح والممتلكات، وبذلك أشرق عهدا جديدا في بلاد الشام[142].

إن النظام الجديد الذي أقامه إبراهيم باشا في بلاد الشام لم يعمر طويلا، ورغم المجهودات التي بدلت للإبقاء عليه فإنها كانت تحمل في طياتها بذور هدمه. فقد فرض إبراهيم على السكان ضرائب جديدة، وجعل التجنيد إجباريا تنفيذا لأوامر والده. ومما زاد الأوضاع سوءا أنه قرر نزع السلاح من السكان تمهيدا لفرض قرار التعبئة العسكرية العامة. فانتشرت الثورات في البلاد، فبدأت في نابلس والخليل، ثم في لبنان والمناطق الواقعة شرق نهر

[140] كان إبراهيم باشا يرى في آراء والده أنها ضيقة الأفق، وأنها استعمارية لا تتفق مع الاستقلال السياسي الذي كان عازما على أن يقود العرب إليه بعد وفاة محمد علي. أنظر: جورج أنطونيوس، مصدر سابق، ص90.

[141] جورج أنطونيوس، مصدر نفسه، ص 91.

[142] فكأن إبراهيم كان يحاول تقديم الدليل الملموس على أن العرب بعد زوال الحكم التركي يستطيعون أن ينظروا في ثقة واطمئنان إلى مستقبل زاهر في ظل حكم محمد علي وأسرته. أنظر: جورج أنطونيوس، مصدر نفسه، ص91.

الأردن[143]، عندئذ أصبح الشغل الشاغل لإبراهيم هو إخماد الثورات. ورغم أنه نجح نسبيا في ذلك، غير أنه أضاع حب الناس إليه، وضاعت المنزلة التي اكتسبها في نفوس السكان، وسيكون ذلك سبب استكانة الشعب عندما اشتد الضغط الأوربي عليه حينما اضطره للجلاء عن بلاد الشام سنة 1840م.

إذا كان استياء سكان بلاد الشام من عوامل هدم أركان الامبراطورية العربية المستقلة التي كان محمد علي وابنه إبراهيم يهدفان لإقامتها، فثمة عوامل خارجية أخرى قضت على هذه المجهودات. فقد أثار هذا النجاح العسكري أيضا استياء الدول الأوربية الكبرى، على رأسها إنجلترا المناهضة لفكرة قيام دولة عربية كبرى. إذ اعتبرت هذا التطور المتزايد لمصر بمثابة خطرا حقيقيا على مصالحها في الشرق[144]، وكان رئيس وزرائها "بلمرستون" يرى «...إن إقامة محمد علي لدولة عربية سيكسبه سيطرة قوية لهذه المناطق الواقعة على طريق أخطر الطرق التجارية في العالم...». ثم أن «...مشروع إقامة الدولة العربية لو تحقق لمكنه من ربط البلاد التي فتحها برابطة وثيقة، فتكون وحدة قوية يصبح المرور بها منوطا بإرادة محمد علي القوية...»[145]. وقد كان "بلمرستون" يرى أن إقامة محمد علي لإمبراطورية عربية قد يقطع أوصال الدولة العثمانية، ويهدد مصالح إنجلترا مما تحتله من طريق إلى الهند، كما عرضت النمسا بزعامة "مترنيخ" فكرة إقامة دولة عربية كبرى، لأنه كان يعارض كل اتجاه

---

[143] جورج أنطونيوس، مصدر سابق، ص92.

[144] حلمي محروس إسماعيل، مرجع سابق، ص166.

[145] أحمد عزت عبد الكريم، دراسات في تاريخ العرب الحديث، دار النهضة العربية، بيروت، (ب ت)، ص169.

قومه.

لقد انتهى أمر هذه المسألة بالتحالف الإنجليزي العثماني سنة 1840م ووضع حد للتقدم المصري[146]، وبذلك أمكن إيقاف التوسع المصري ورد ها إلى حدودها الأصلية كولاية عثمانية، كما تم عرقلة النهضة الإصلاحية بداخلها.

أمام هذه التطورات، توصلت الدول الأوربية إلى قناعة مفادها أن عودة الاستقرار والسلام في المنطقة –بلاد الشام– مرهون بوضع حد لطموحات محمد علي باشا، والوصول إلى أرضية تفاهم انتهت بعقد معاهدة لندن Traité de Londres سنة 1940م[147].

إذا كانت معاهدة لندن 1840م قد ضمنت لمصر مكانة وشخصية متميزة بين الولايات العثمانية، فإن الوضع الجديد قد وضع حدا لمشروع الوحدة العربية الذي تبناه محمد علي باشا، ولم تستمر هذه الوحدة طويلا في المشرق العربي وذلك راجع للعوامل التالية:

ضعف الدافع القومي لدى محمد علي باشا وإبراهيم، فمحمد عليّ وابنه إبراهيم لم يكونا عربيين أصلا، ولم تكن العربية لغتهما الأصلية، وإن كان إبراهيم باشا قد تعلم العربية الفصحى وتكلم بها بشيء من الطلاقة كونه نشأ في بلاد العرب، فقد اعتبر إبراهيم باشا

---

[146] Samir Amine : La nation arabe. Nationalisme et lutte de classe. Édition de minuit. Paris. p153.

[147] الواضح أن تسوية 1840م–1841م قد مهدت الطريق لكارثة 1882م، وذلك بتحديدها لقوة مصر العسكرية والاقتصادية، فمست بذلك نهضة مصر في القرن 19 في صميمها، وفرضها الوصاية الأجنبية على العلاقات المصرية العثمانية. وبالتالي استطاعت إنجلترا –صاحبة سياسة 1840م وزعيمة التألب الأوربي على مصر في ذلك الوقت– أن تجني في سنة 1882م ثمار ما غرسته في 1840م. أنظر: أحمد عزت عبد الكريم، مرجع سابق، ص280.

نفسه عربيا وفردا من الامة العربية. أما محمد علي باشا فكان يعتبر نفسه تركيا، ولم يتكلم باللغة العربية، إذ كان العرب في نظره مجرد رعايا طائعين له، كما أنه لم يكن يهدف إلى تحقيق رفاهية الشعوب العربية وتحسين أحوالها ودمجها في وحدة قومية عربية ناهضة[148].

نقص التضامن والوعي القومي لدى الشعب العربي، ففي هذه الفترة كان التضامن والوعي العربي ضعيفا نتيجة تدهور حالة العرب في ضل الحكم العثماني، كما أن العرب تفرقوا إلى وحدات إقليمية ومذهبية متباينة، ونشأت العصبية المذهبية خاصة في بلاد الشام التي كانت الفرق الدينية المتعددة تسيطر على كيانها الاجتماعي بتقاليدها ومعتقداتها. ولم تظهر فكرة الوعي القومي عند العرب إلا مؤخرا – الحرب العالمية الأولى – بدافع التحرر من ربقة الاستعمار الأوربي والحصول على استقلال بلادهم.

معارضة الدول الأوربية الكبرى لفكرة الدولة العربية الموحدة، فقد كانت إنجلترا في مقدمة الدول الأوربية الرافضة لفكرة إنشاء دولة عربية بزعامة محمد علي باشا، وكان رئيس وزرائها بلمرستون يعتقد أن قيام دولة عربية قوية في منطقة المشرق العربي سوف يهدد مصالح بريطانيا في المنطقة، وذلك بسيطرتها على أهم الطرق المؤدية إلى الهند، وستحد من أطماعها في تلك الجهات. بذلك عارضت إنجلترا بكل قوة هذا المشروع وعرقلت نجاحه بكل الوسائل، إذ عارضت امتداد النفوذ المصري جنوبا إلى اليمن والى البحرين على الخليج العربي شرقا، فتدخلت وضغطت على محمد علي حتى انسحب من هذه المناطق. فكان

---

[148] حلمي محروص إسماعيل، مرجع سابق، ص193.

من نتائج ذلك أن وضعت حدا لمطامعه في اتفاقية لندن سنة1840م، والتي كانت كارثة على مصر والوحدة العربية الناشئة[149].

لقد اختفت فكرة الدولة العربية الموحدة بهزيمة محمد علي باشا وابنه إبراهيم، ولم يظهر لها وجود بعد ذلك بين مشكلات السياسة الدولية إلا في حرب 1914م حين عاودت الظهور كحلم يراود رجل وابنه من العرب في هذه المرة، وكان يرميان إلى التسلح بالسّلاحين نفسيهما اللذين لم يتاحا لمحمد علي، وهما تنبه الشعور بالقومية العربية ومساندة إنجلترا القوية[150].

هذه هي الدعامات التي قامت عليها نهضة مصر في القرن 19، بناء الدولة المصرية بعنصريها الأساسيين الأمة والحكومة. فقد اعتمدت مصر النموذج الأوربي عندما تأسست الدول القومية في القرن 16م [151](Etat nation) في غربي أوربا كفرنسا، إنجلترا وإسبانيا حين جمعت الدولة في يدها السلطة العامة، فاعتمدت على أداة حكومية قوية، وسياسة اقتصادية ترمي إلى جمع موارد البلاد تحت سيطرة الدولة واستخدامها لما فيه إعلاء شأن الدولة.

إن خلق هذه الكتلة المصرية العربية في ذلك الجزء من المشرق الأوسط في – قلب العالم العثماني – أقوى ضمان للمحافظة على سلامة هذه المنطقة من الاطماع الأوربية التي بدأت تتجه إليها وتسعى إلى غزوها، والاحتفاظ ببلادها خالصة لأهلها.

---

[149] حلمي محروس إسماعيل، مرجع سابق، ص193.

[150] جورج أنطونيوس، مصدر سابق، ص96.

[151] أحمد عزت عبد الكريم، مرجع سابق، ص244.

لقد رأت السلطة العثمانية في هذه السياسة المصرية العربية هدماً للملك والدولة[152]، فقد صعب عليها أن ترى انسلاخ هذه الولاية من سيطرتها، إذ ينبغي أن تظل قوة عثمانية، ولتحقيق السياسة والخطط العثمانية وحدها.

كانت الدول الأوربية على استعداد للوقوف إلى جانب السلطان محمود الثاني – وابنه عبد المجيد من بعده –، فقد دخلت هذه المنطقة في دائرة الاهتمام الأوربي منذ أواخر القرن 18م[153]. لذلك كانت الدول الأوربية تراقب نمو هذه القوة بقلق وحذر شديدين. وقد كتب سفير فرنسا آنذاك بتاريخ 19 أفريل 1833م بعد وصول جيش إبراهيم باشا إلى سوريا «...إن مصر قوة مفتعلة ولكنها أصبحت خطرة بعدما امتلك زمامها محمد علي، ولذا يجب أن نخشى جانبها الآن. علينا أن نضع أمامها حواجز تستطيع أن توقفها...»[154].

من هذا المنطلق لم تشأ الدول الأوربية الكبرى أن تنظر إلى حركة مصر (التحررية) في القرن 19م على أنها حركة (قومية) كحركات اليونان والصرب والبلقان، ومن إليهم من شعوب البلقان الخاضعين للحكم العثماني.

رغم أن الاطماع الاستعمارية لم تمهل إبراهيم باشا فرصة لتنفيذ أحلامهم، إلا أنه ترك في الشام بذورا من اليقظة الحديثة والتي أخذت بعد ذلك تنمو شيئا فشيئا.

---

[152] أحمد عزت عبد الكريم، مرجع سابق، ص270.

[153] أحمد عزت عبد الكريم، مرجع نفسه، ص270.

[154] رفيق رؤوف، إشكالية النهوض العربي من التردي إلى التحدي، (م.د.و.ع)، ط1، بيروت، 2005، ص178.

4 – التنظيمات العثمانية وآثرها

لعبت التنظيمات العثمانية دورا أساسيا في التحولات الاجتماعية، الاقتصادية والفكرية التي مست دعائم المجتمعات العربية في العصر العثماني الثاني، وذلك لما حملته من أفكار ثورية وتحديثية كان أبرزها تحديث الإدارة، قانون الأراضي وفتح المجال أمام الرأسمال الأجنبي، هذا فضلا عن إعادة النظر في المنظومة التعليمية.

كانت النتيجة من هذه الإصلاحات بناء مجتمعات من جديد على أسس مقتبسة من النظم الغربية غايتها القضاء على نفوذ العائلات الإقطاعية والدينية التي كانت تتحكم في توجيه وتسيير المجتمع، وذلك بإلغاء نظام الالتزام والإقطاع، واستحداث نظارة الأوقاف والاتجاه إلى المركزية وتحديث الإدارة، مما أضر بهذه العائلات التي كانت تستفيد من تلك الامتيازات الواسعة في مختلف المجالات. كما أن الدولة قد ذهبت إلى أبعد من ذلك، إذ سعت إلى تعويض هؤلاء بفئات أخرى من الموظفين أكثر ارتباطاً وولاءً للدولة.

إن أبرز ما ميز فترة التنظيمات العثمانية في البلاد العربية، هو ذلك الاهتمام الذي أولته الدولة للتعليم الحديث بدءا بخط الشريف لعام 1845، الذي أوصى بتشكيل لجنة لدراسة أوضاعه واقتراح الحلول، وقد قدمت تقريرها سنة 1846، والتي أوصت بإبقاء التعليم الديني القديم وإنشاء نظام تعليمي جديد موازن. وفي نهاية نفس السنة صدر قانون إصلاح التعليم في الدولة، وبموجب هذا الأخير تولت الحكومة عملية الإشراف على التعليم بدل الهيئة الإسلامية. وقد تدعم نظام التعليم بإنشاء وزارة المعارف سنة 1866، وفي سنة 1869 صدر

قانون المعارف الذي نص على خلق مدارس حكومية حديثة ابتدائية وإعدادية في المدن الرئيسية للبلاد العربية.

خطا التعليم خطوات هامة في عهد السلطان عبد الحميد الثاني، إذ واجه خلال ممارسة الحكم مشكلة تتمثل في نقص عدد المثقفين المؤهلين لتولي الوظائف المدنية، مرد ذلك أن الدولة اهتمت بإنشاء وتقوية الجيش[155] وغلب على أجهزتها الطابع العسكري، فشغل العسكريون المناصب المدنية إلى جانب المناصب العسكرية[156].

نتيجة هذا التفاوت في التعليم، قام السلطان عبد الحميد الثاني بخلق توازن بين التعليمين المدني والعسكري، فأنشأ المدارس المتوسطة والعليا والمعاهد الفنية لتخريج الشباب العثماني، وإعداده لتولي المناصب الحكومية والنهوض بالدولة[157]. كما أنشأ السلطان ابتداءً من سنة 1878 المدرسة السلطانية للشؤون المالية، ومدرسة الحقوق التي كانت تخرج طلاب للوظائف الإدارية، كما أنشأ مدرسة طب جديدة في عام 1898. وواصل عبد الحميد الثاني جهوده في المجال التعليمي بتطوير مدرسة إسطنبول الكبرى –التي أنشئت في عهد السلطان محمد الفاتح– وأصبحت جامعة إسطنبول، وضمت في أول أمرها 04 كليات هي: العلوم الدينية، الرياضية، الطبيعية والعلوم الأدبية. وأصبحت مدرستا الحقوق والطب كليتين ملحقتين

---

[155] محمد سهيل طقوس، مرجع سابق، ص520.

[156] الحقيقة أن الدولة خلال مراحل تاريخها أهملت تنشيط التعليم المدني، إلا في نطاق المدارس التابعة للهيئة الدينية الإسلامية. وقامت إلى جانب هذه المدارس مدارس الملل بإشراف الطوائف الدينية غير الإسلامية أو البعثات التبشيرية. أنظر: محمد سهيل طقوس، مرجع نفسه، ص520.

[157] محمد سهيل طقوس، مرجع نفسه، ص520.

بالجامعة[158]. وبذلك أصبحت للدولة جامعة جديدة قائمة على أسس علمية حديثة، واعتبرت أول جامعة حديثة في العالم الإسلامي في العصر الحديث[159].

لقد تطلبت المدارس الملكية (المدنية) إنشاء عدد من دور المعلمين، فكانت أول دار للمعلمين في الدولة على عهد السلطان عبد المجيد الأول التي أنشئت عام 1848، وارتفع عددها سنة 1908 ثمان وثلاثين دارا منتشرة في العاصمة وحواضر الولايات والسّنجقيات[160]. وأنشأ السلطان عددا كبيرا من المدارس الرشدية• التي كانت تعتبر مدارس متوسطة.

إلى جانب اهتمامه بالتعليم المدني، اهتم عبد الحميد الثاني أيضا بالتعليم العسكري، فقد دعم الكليات الحربية القائمة وأنشأ مدارس عسكرية جديدة في الكثير من حواضر الولايات مثل أدرنا، موناستير، دمشق، بغداد وغيرها. كما أنشأ مكتبات عامة عديدة، وساعدت الطباعة على طبع آلاف الكتب[161]. كان لظهور هذا النوع من المدارس الحديثة أثر إيجابي تمثل في بروز طبقة من المثقفين العرب ساعدها الحظ في متابعة دراستها العليا في إسطنبول وبعض العواصم الغربية، مما أتاح لها فرصة الاطلاع على ما توصل إليه الأوربيون في ميدان الحضارة والثقافة والفكر، وبعد عودتها إلى أوطانها ساهمت في اليقظة العربية

---

[158] محمد حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة، دار القلم، دمشق، ط1، 1989، ص104.

[159] محمد سهيل طقوس، مرجع سابق، ص521.

[160] عبد العزيز الشناوي، الدولة العثمانية، مرجع سابق، ص1161.

• سميت بهذا الاسم لأن تلاميذها قد اقتربوا من سن الرشد. ويقسّم فيندلي المراحل التعليمية في الدولة العثمانية على عهد السلطان عبد الحميد الثاني كما يلي: المدارس الابتدائية (صبيان مكتبي)، المدارس الابتدائية العالية (الرشدية)، المدارس المتوسطة (إعدادية)، الجامعة (دار الفنون). أنظر محمد سهيل طقوس، مرجع سابق، ص522.

[161] عبد العزيز الشناوي، مرجع سابق، ص1162.

الحديثة.

خلقت تنظيمات من خلال التسهيلات التي منحت للأجانب في الميادين الثقافية والتجارية، نوعا من التنافس والتسابق بين الدول الأوربية في نشر ثقافتها وحضارتها في البلاد العربية. وذلك عن طريق تأسيس مدارس تحت إشرافها ودعمها خاصة في المدن والمراكز التي يكثر فيها العنصر المسيحي لا سيما في ولايات حلب، الموصل، بيروت، ومتصرفيتي القدس ولبنان[162]، كما أقرت التنظيمات مبدأ المساواة بين مختلف رعايا الدول العثمانية من مسلمين، مسيحيين ويهود، وقد خفف هذا العامل من حدة الصراعات العقائدية وخلق نوعا من التلاحم والتعاون لا سيما بين المسلمين والمسيحيين، نتج عنه الرغبة في إحياء التراث العربي، وبالتالي ظهور الجمعيات الأدبية التي كانت بمثابة بذورا للحركة القومية العربية "Mouvement national arabe".

لم تكن التنظيمات العثمانية وحدها في إحداث هذا التحول والتطور الفكري، بل كذلك لعبت التجربة التحديثية في مصر في عهد محمد علي باشا دورا كبيرا، إذ كانت محاولة التحديث أنشط[163].وقد انتقلت تأثيراتها إلى بلاد الشام وبقية البلاد العربية لا سيما فيما تعلق بالجانب الفكري منها، يظهر ذلك من خلال بناء المدراس والمعاهد العلمية وإرسال البعثات الطلابية إلى أوربا، واستقدام الخبراء والمهندسين الأجانب. كل ذلك ساهم في نشر الثقافة الحديثة.

[162] ساطع الحصري، البلاد العربية الدولة العثمانية، دار العلم للملايين، بيروت، 1960، ص85.

[163] عبد العزيز الدوري، مرجع سابق، ص133.

ورغم فشل مشاريع محمد علي الاقتصادية، العسكرية، والسياسية بعد معاهدة لندن 1840[164]، إلا أن إنشاء المدارس الحديثة استمر كما استمر إرسال بعثات حتى أيام الخديوي إسماعيل، وقد أدى إنشاء المدارس الحديثة جنب المدارس الموروثة إلى ازدواجية في التعليم، كان لها أثرها في تطور ونشر الثقافة الحديثة.

كان لفترة حكم إبراهيم باشا في سوريا أثرها، إذ فتحت صفحة جديدة من التحديث والاستقرار إذ كان التعليم من أهم انشغالات هذا الأخير، فأنشأ المدارس الابتدائية والثانوية في مختلف مناطق بلاد الشام. كما أسس الكليات في كل من دمشق وحلب على شكل داخليات تتيح لطلابها السكن والطعام واللباس مجانا. وقد ضمت كلية دمشق حوالي 600 طالب، وفي حلب 400 طالب[165]. ومنذ ذلك بدأت تظهر تباشير يقظة ونهضة في التعليم، خاصة في الأوساط الإسلامية التي كان أفرادها يشكلون الأغلبية في هذه المدارس الرسمية.

لقد ساهم بعض رجالات الدولة العثمانية المتشبعين بالثقافة الغربية في حركة التمدن والإصلاح، وكان أشهرهم مدحت باشا "أبو الدستور"، فقد اتبع سياسة أكثر انفتاحا؛ إذ أدخل كثيرا من العرب في الوظائف (منها قائمقامياتو متصرفيات)، وأصدر الصحف التي تجاوز عددها الاثني عشر في زمنه. وفي ميدان التعليم حث الأعيان على إنشاء جمعيات، فتأسست الجمعيات الخيرية الإسلامية (المقاصد) في عدة مدن مثل دمشق، بيروت

---

[164] حجار جوزيف، أوربا ومصير الشرق العربي، تر، الحلاق وماجدة نعمة، (م.ع.د.ن)، بيروت، 1976، ص11 وما يليها.

[165] الغالي غربي، مرجع سابق، ص215.

وصيدا[166]، كما أنه حاول التعاون مع المتنورين[167].

إن الأفكار التي رافقت الحركة الإصلاحية العثمانية والمصرية في القرن التاسع عشر، من خلال قوانين متعددة والفرمانات السلطانية المستلهمة من الحضارة الأوربية مهدت لدخول مصر وبلاد الشام عصرا جديدا، عصرا دفع أهالي المنطقة لإعادة النظر في واقعهم من جوانبه المختلفة السياسية، الاقتصادية، الاجتماعية والفكرية.

لقد فشلت أخفقت الإصلاحات العثمانية، ويرجع ذلك لعدة أسباب :

1) انصراف حماس السلاطين إلى المظاهر الشكلية دون العناية بالظروف الموضوعية والمشاكل الأساسية حسب تخطيط محكم، فالإدارة أعدت لها القوانين ولم يسهر على تطبيقها، والمدارس أسست ولم توفر لها الإطارات والمعلمون الأكفاء.
2) لم تكن الطبقة التي حملت لواء الإصلاح مخلصة وثورية، بل كانت ميولها غربية برجوازية، وبقيت بينها وبين المجتمع هوة. لذلك لم يشمل إصلاحها الجوانب الحساسة في الدولة.
3) هذه الإصلاحات حدثت بعد فوات الأوان وبعد أن نخر الفساد جسم الدولة واشتد تدخل الدول الأوربية في شؤونها الداخلية.
4) تثبيت الامتيازات الأجنبية القديمة وتوسيع أطرها في مختلف المجالات السياسية، الثقافية والاقتصادية، فتح ذلك باب التغريب أمام فئات واسعة من المجتمع خاصة

---

[166] عبد العزيز الدوري، مرجع سابق، ص155.

[167] يبدو ذلك من خلال تشجيعه للشيخ طاهر الجزائري لإنشاء مكتبة عامة، وقد توسعت بعدئذ إلى المكتبة الطاهرية المشهورة. أنظر: عبد العزيز الدوري، مرجع نفسه، ص551.

غير الإسلامية، والتي ساعف البعض منها الحظ في اعتلاء مناصب إدارية هامة في السلم الإداري.

5) رغم أن منشور التنظيمات لعام 1856 (خط همايون) أقر مبدأ المساواة بين أتباع الدولة ورعاياها غير المسلمين، غير أن الدولة عجزت عن تطبيق هذا المبدأ تطبيقا كليا. فقد ظلت الخدمة العسكرية مقصورة على المسلمين دون غيرهم، هذا فضلا على أحقية المسلمين في الوظائف العامة خاصة الإدارية والقضائية دون غيرهم[168]. فقد ترتب عن ذلك استمرار الدول الأجنبية التدخل بحجة حماية الطوائف المسيحية.

6) رغم عدم الجدية في تطبيق كل ما جاء في التنظيمات، إلا أن الدولة العثمانية طبقت التزاماتها اتجاه رعاياها من غير المسلمين[169] والذي ورد في منشور كلخانة 1839 فيما يتعلق بأمنية الروح، الشرف والمال، وبذلك وضعت حد لتصرفات الولاة والباشوات وضباط الإنكشارية. وبذلك أصبح الرعايا المسيحيون واليهود يتمتعون بما يكسبون بدل إخفاءه.

7) شهدت الحياة الفكرية تطورا وانتشارا واسعا بسبب إنشاء المدارس المتعددة والتي كانت الدولة تهدف من ورائها تخريج ضباط عسكريين وموظفين مدنيين، غير أنه رغم توسع الدولة في إنشاء المدارس، فقد كان نشاط الجمعيات والإرساليات التبشيرية الكاثوليكية والبروتستانتية قويا في مجال الثقافة والتعليم. كان نتيجة ذلك تأكيد

---

[168] أنيس محمد، الدولة العثمانية والمشرق العربي (1516م 1914م)، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، (ب ت)، ص218.

[169] أنيس محمد، مرجع نفسه، ص218.

الانتماء إلى الحضارة والأمة العربية، وبذلك تكون التنظيمات قد ساهمت بشكل كبير في حركة اليقظة العربية والإسلامية.

ثانيا: اليقظة الفكرية العربية

كانت البلاد العربية في ظل الحكم العثماني تعاني الركود والجمود الفكري، بسبب تأخرها الحضاري، وعدم مواكبة الحضارة الغربية الناشئة.

وفي خلال فترة الإصلاحات التي حاول السلاطين العثمانيين تطبيقها، اغتنمت الولايات العربية الفرصة، فتطلعت إلى تقدم وتطور أوربا الغربية العلمي والاجتماعي بالاتصال المباشر وغيره، وذلك بفضل ما كان يتمتع به ولاة الولايات العربية بنوع من الحرية في تصريف شؤونهم. فكان نتاج ذلك ظهور نهضة فكرية عربية.

1 – إشكالية النهضة

لا يجب التسلّيم عند التطرق إلى كلمة "نهضة" في القرن التاسع عشر، على المفاهيم المتداولة لهذه الحركة، بل يجب الوقوف أيضا على الألفاظ التي يجوز استعمالها بدءا بهذه التسمية الكبيرة في مغزاها والمتواضعة في مكنونها الناتج عن الأدبيات التي أفرزتها.

وقبل أن نحكم على أن هذه الحركية النهضوية هي نتاج الصراع ضد السيطرة الاستعمارية

الأوربية والتأثيرات الثقافية للنهضة الأوربية كما يذهب إلى ذلك هاملتون جب[170]، سنحاول التطرق إلى بعض الأفكار والاقتناعات التي حاولت تفسير هذه الفكرة "النهضة". إن اصطلاح النهضة الذي قد يعني الانعتاق من قبضة التكلس والانقطاع إبان فترة القرن التاسع عشر[171] يكاد تداوله الاعتيادي يخلق في الذهن التباسا فكريا حول المصدر الذي انطلق منه هذا الاصطلاح. هل المقصود به إحالة تقتصر على وضع المشرق العربي تحديدا، أم أن هذه الإحالة تمتد إلى ما هو أبعد عن هذه الرقعة الجغرافية؟ في هذه الحالة نكون أمام استعارة المصطلح من ثقافة أخرى مثلت النموذج المقتدى به، عندئذ تكون الترجمة قد حملت مغزاها من المصدر الأجنبي.

إن التسليم بهذه الفرضية يدفعنا إلى طرح السؤال التالي: لماذا غلبت هذه اللفظة بالذات على ما يقابلها من مفردات "اليقظة، الصحوة، الاستفاقة، النهوض"؟[172] علما أن هذه المصطلحات قد تعطي الحركة (النهضة) لباس المحلية والبساطة.

في أحد نصوص الأديب طه حسين بعنوان "عصر الإفاقة "يحاول وصف الحركة الثقافية التي ميزت هذه الفترة فيقول «...كان القرن الماضي عصر الإفاقة من نوم عميق... نرى

---

[170] يقول هاملتون جب «...إن عامل الصراع ضد السيطرة الأوربية على البلدان الإسلامية وضد تأثيرات الاختراقات الثقافية للحضارة المادية لأوربا المنافسة، هذا العامل وليس غيره، سيطر على إجمالي حركة النهضة الإسلامية الحديثة ما يحول دون إنجاز رسم تمهيدي لوجه الحركات التحديثية». أنظر: H.A.R. Gibb. Les tendances modernes de l'islam. Traduction française de Bernard Vernier.Paris.1949.p44.

[171] رفيق رؤوف، مرجع سابق، ص169.

[172] رفيق رؤوف، مرجع نفسه، ص170.

مصر تحاول أن تستيقظ شيئا فشيئا، والأحداث الثقال الضخام هي التي تحاول إيقاظها، ونرى العالم الخارجي والغربي يقظا متنبها يحاول أن يعرف عن مصر أكثر جدا...»[173].

خلال هذه الأسطر وردت كلمات الإفاقة واليقظة أربع مرات، لكن عميد الأدب العربي في موضع آخر من النص يستدرك نفسه قائلا «...كان هؤلاء المصريون يذهبون إلى فرنسا مثلا فيروون ويفهمون قليلا، ويعييهم الفهم في كثير من الأشياء، ولا يبتهرون لما كانوا من مظاهر الحياة القوية والنهضة، ومن مظاهر محاولة الحكم الصالح...»[174]. هنا وفي خلال هذه الأسطر، أورد الكاتب كلمة النهضة مرة واحدة، لكن عند تطرقه إلى البيئة الأخرى) أرويا – فرنسا (فنجد بعض الدقة في الفرز بين قيمة – النهضة – وبين تلك الهزة التي شملت مصر أولا ثم أطراف أخرى من العالم العربي والإسلامي.

لقد كان الكاتب ذو وعي كبير، يظهر ذلك استعماله المفردات ذات المفاهيم المتداخلة والمتشعبة. إذ حاول قطع الطريق أمام الاستسهال في توظيف المفاهيم خاصة عندما يشخص ذلك التيار (الخارجي الذي) يعتبر النقلة العقلية المرجعية في التطور الفكري الذي سيحاول العالم العربي والإسلامي اعتماده أو سلوكه للحاق بركب التقدم.

لقد تنبهت أيضا البروفسورة "ندى توميش" إلى الإحالة غير الموفقة للكلمة الدالة على عصرها الأوربي الغربي، والشرقي الإسلامي في عنوان فرعي للإشكالية " Renaissance ou

---

[173] رفيق رؤوف، مرجع سابق، ص 170

[174] رفيق رؤوف، مرجع نفسه، ص 170.

éveil" أي "نهضة" أو "تنبه"، " تيقظ"[175]؟ كما نجد أيضا هشام شرابي يستهل في مقدمة كتابه "الموثق المثقفون العرب والغرب" قائلا «...لم تكن اليقظة العربية (هو الآخر تجنب مفردة النهضة) وليدة وعي فجائي عفوي، إنما كانت نتيجة التحدي الذي فرضه الغرب على كل مستويات الوجود الاجتماعي، السياسي الاقتصادي والنفسي، والذي بدأ في القرن التاسع عشر...»[176]. فهشام شرابي يرى أن عنصر التحدي هو الذي كان وراء القيام الثقافي الاجتماعي، وخلق قدرة الوقوف على القدمين تحت وقع حوافر خيل الغزاة الذي أدى إلى تحريك آليات الوعي بواقع التأخر المعاش والذي تتحمل فيه الدولة العثمانية النصيب الأكبر، وذلك من جراء سياستها المعتمدة في الأقطار العربية والإسلامية منذ خضوعها تحت سيطرتها.

إن التطرق والغوص في جدلية الألفاظ ونقائضها قد يؤدي بنا إلى الانزلاق والضياع، ولتفادي ذلك نكتفي باستقراء المفهوم المراد به وصف تيار القرن التاسع عشر الفكري، فهو أقرب إذن إلى ثقافة نهوض منه إلى ثقافة نهضة، وبالتالي فإن هذا التحديد لا ينزع عنه بالضرورة صفة الاقتداء، أو محاولة الاقتداء بالنموذج –المستورد– المتمثل في نهضة النصف الثاني

---

[175] تقول «...إن الكلمة التي تمت ترجمتها (النهضة) بشكل غير صحيح تتقدم باتجاه معكوس لذلك الذي تحمله نهضة القرن التاسع عشر في أوربا. فهي (النهضة العربية) ليست بعودة إلى التراث الكلاسيكي الذي يعيد إحياء نماذج الماضي، فهذه النماذج ظلت بالنسبة للكتّاب العرب حية وإجبارية. مفهوم النهضة (الشرقية) في المقابل يعبر عن إرادة تيقظ و"تقويم" أي المعنى الأول للكلمة. أنظر: Nada Tomiche, La littérature arabe contemporaine, Roman, nouvelle, théâtre, orientation, 3 Paris, maison neuve et la rose, 1993, p8.

[176] هشام شرابي، المثقفون العرب والغرب، عصر النهضة، (1875 –1914)، ط2، دار النهار للنشر، بيروت، 1978، ص13.

من القرن الخامس عشر والقرن السادس عشر ذات المنبع والأصل الأوربي[177].

على العموم فقد شهد الوطن العربي في العصر الحديث نهضة فكرية رائدة كانت نتاج تفاعل عدة عوامل وأسباب داخلية وخارجية، كلها عملت على نمو الوعي القومي في البلدان العربية والتخلص من الحكم العثماني. ومن أهم العوامل التي ساعدت على ظهور النهضة العربية الحديثة ما يلي:

أ – الاستشراق

الاستشراق مدرسة فكرية ذات خصائص ودوافع وغايات•، وكلمة "الاستشراق" كلمة اصطلاحية، لا يراد بها مدلولها اللغوي، من حيث التوجه نحو الشرق، يقال: استشرق أي اتجه إلى الشرق، وانتسب إليه. واستشرق في المفهوم الاصطلاحي طلب علوم الشرق واتجاه للتخصص في معرفتها، والمستشرق هو المتخصص في علوم الشرق وحضارته وآثاره وفنونه♦.

أخذ علم الاستشراق يهتم في البداية بالعلاقات الإنسانية والثقافية بين الشرق والغرب، من خلال دراسة اللغات الشرقية والفنون والعادات والمعتقدات كمرحلة أولى لاستكشاف تطور الفكر الإنساني وإيجاد روابط بين الثقافات الشرقية والغربية. ويبدو من تاريخ ظهور لفظة

---

[177] رفيق رؤوف، مرجع سابق، ص 172.

• ليس من اليسير الإحاطة بأسرار هذه المدرسة وأن نستكشف كل خطواتها وأن نلم بأهدافها، فهي وليدة صراع طويل بين الحضارتين الإسلامية والمسيحية، وهي نتاج تجربة حية من تناقض بين عقيدتين وثقافيتين وحضارتين.

♦ أطلقت كلمة "مستشرق" لأول مرة سنة 1630م على أحد أعضاء الكنيسة الشرقية، ثم أطلقت بعد ذلك على من عرف لغات الشرق. وعرف قاموس أكسفورد الجديد معنى المستشرق بأنه من "تبحّر في لغات الشرق وآدابه".

الاستشراق[178] واستعمالاتها الأولى، أنها كانت أهم وأشمل من المعنى الذي تدل عليه اللفظة فيما بعد، وكانت مهمة علم الاستشراق الأولى ذات طبيعة ثقافية استكشافية. وكانت كلمة "الاستعراب" مستعملة قبل ذلك، وأطلقت كلمة "المستعرب" على غير العربي الذي يعيش في ظل دولة عربية•، ومن الطبيعي أن تظهر لفظة الاستعراب في الفترة التاريخية التي تمثل حالة الازدهار الثقافي والقوة الحضارية، حيث يزداد التعلق بالحضارة الأقوى، ويبرز الاعتزاز بالانتماء إليها.

ويقابل كلمة الاستعراب اليوم كلمة "الاستغراب" حيث تطلق على كل من أعلن إعجابه بالغرب وأخذ يقلده في حياته وينتصر لفكره وثقافته ويدافع عنى قيمه ومثله.

والاستشراق اليوم ليس هو استشراق الأمس، فما نقصده اليوم في استعمالنا للفظة الاستشراق، يختلف عن ذلك الاستشراق الأول بمفهومه اللغوي وبنشأته الأولى، فقد تطور المفهوم ونما، ولم يعد قاصرا على ذلك المفهوم الضيق♦.

وعندما نتحدث اليوم عن "الاستشراق" فإننا لانقصد ذلك المعنى اللغوي، وإنما نقصد الاستشراق بمفهومه الاصطلاحي الضيق الذي يعني "اهتمام العلماء الغربيين بالدراسات

---

[178] استعملت كلمة الاستشراق لأول مرة في معجم الأكاديمية الفرنسية سنة 1838، بعد أن شاع استعمالها وأصبحت اللفظة دالة على التخصص في اللغات الشرقية. أنظر: محمد فاروق التيهان، الاستشراق: تعريفه، مدارسه، آثاره، الرباط، (ب ت)، ص11.

• وربما أطلقت على المسحيين الذين سكنوا الأندلس وأعلنوا عن انتمائهم للعرب وولائهم لحكمهم.

♦ الاستشراق اليوم مدرسة وعلم وسياسة واقتصاد وبخاصة عندما يكون "الشرق" هو الإسلام كحضارة وعقيدة وتراث وأمة.

الإسلامية والعربية، ومنهج هؤلاء العلماء ومدارسهم واتجاهاتهم ومقاصدهم".

والاستشراق مرتبط كل الارتباط بالموروث التاريخي للشخصية الغربية في نظرتها للحضارة العربية والإسلامية، وهو موروث مثقل بالتراكمات النفسية، ومشاعر ضاغطة مسيطرة على حركة الفكر مؤثرة في السلوكيات والمواقف•.

وارتبطت حركة الاستشراق اليوم بالمفهوم الحضاري الغربي الذي استطاع بذكاء أن يوجد تحالفا بين الثقافة والسياسة، وأن يستخدم الثقافة كأداة لتحقيق أهداف سياسية، فالغايات المعرفية ليست المراد والمقصودة في عمل المستشرقين. وإذا تمكن المستشرق من دراسة ثقافة الشرق، فليس من حقه أن يجعل نفسه وصيا على تلك الثقافة، بل من واجبه أن يتابع رسالته الثقافية في محاولة استكشاف الشرق كما هو، من غير وصاية عليه.

ويعود اهتمام الأوربيين بالإنتاج الفكري العربي والإسلامي إلى العهود الإسلامية الأولى، وأخذ هذا الاهتمام يزداد مع الزمن فكان من العوامل الرئيسية في نهضة أروبا العلمية والأدبية في مطلع العصور الحديثة. وتولت الكنيسة الكاثوليكية العناية بالمؤلفات العربية، تنشرها وتترجمها إلى اللاتينية. وفي النصف الثاني من القرن السادس عشر، أنشأ الرهبان اليسوعيون مدرسة لتعليم اللغة والآداب العربية في روما، وأخذت الإرساليات التبشيرية في

• يقول إدوارد سعيد في كتابه "الاستشراق" ص46: «...الاستشراق ليس مجرد موضوع أو ميدان سياسي ينعكس بصورة سلبية في الثقافة والبحث والمؤسسات، كما أنه ليس مجموعة كبيرة ومنتشرة من النصوص حول الشرق، كما إنه ليس معبرا عنه، وممثلا لمؤامرة غربية شنيعة لإبقاء العالم الشرقي حيث هو. بل أنه بالأحرى توزيع للوعي الجغرافي السياسي في نصوص جمالية وبحثية واقتصادية واجتماعية وتاريخية... بل كذلك سلسلة كاملة من المصالح التي لا يقوم الاستشراق بخلقها فقط بل بالمحافظة عليها بوسائل...» .

البلاد تنقل المؤلفات العربية إلى أروبا، فامتلأت بها مكتبات باريس، لندن، برلين، فيينا وروما[179].

وانتقل الاهتمام بالآثار الفكرية عند العرب من الكنيسة إلى الدول الأوربية، وكانت فرنسا أولها في هذا الشأن. فقد أنشأت مدرسة لتعليم اللغات الشرقية الحية في باريس سنة 1795، ثمّ سارت بقية الدول على النهج الفرنسي. ومع حلول القرن التاسع عشر برز عدد كبير من المستشرقين فمنهم من الفرنسيين البارون دوسا سي Baron de Sacy صاحب الفضل في إنشاء مدرسة اللغات الشرقية الحية والجمعية الآسيوية الباريسية، ودي لا غرانج De la Grange، وجوزيف رينو J. Reinaud والعلامة كسان دو برسفال Caussin de Perceval، ودوتاسي G. de Tassy. ومن المستشرقين الألمان الذين ظهروا في هذا القرن إيفالد H. Ewald وروديجر H. Rodiger، وفون كريمر Von Krémer، والدكتور شبرنجر Sprenger، أما أشهر الهولنديين بول دي يونغ P.de Jong، ورابنهارت دوزي R. Dozy.واشتهر عدد آخر من المستشرقين الإنجليز أمثال إدوارد بالمر E. Palmer، ووليام رايت W. Wright وغيرهما من المستشرقين الإيطاليين والإسبان والسويديين والدنماركيين.

لقد كان للدراسات الاستشراقية أثر في الفكر العربي الإسلامي، وظهر ذلك من حيث تطوير المناهج العلمية وتشجيع الدراسات النقدية وإحياء بعض أمهات الكتب العربية، والاهتمام

---

[179] لويس، شيخو، الآداب العربية في القرن التاسع عشر، ج1، مطبعة الآباء السيوعيين، بيروت 1926، ص ص07، 10.

ببعض الدراسات المعجمية والموسوعية، وإيجاد مناهج للدراسات اللغوية في إطار اللغات الشرقية التي تمثل روح الحضارات الشرقية ذات الطبيعة المتميزة، والمعبرة عن الشخصية الشرقية في إطارها الفكري وتكوينها الثقافي.

وليس من الخطأ القول بأن الدراسات الاستشراقية أسهمت في تكوين الظروف المناسبة للنهضة العربية واليقظة الفكرية التي شهدها العالم العربي، خاصة وان الحضارة الإسلامية شهدت ركودا وجمودا واضحا في العهد العثماني، وتوقفت الحركة العلمية وتراجعت مظاهر الحياة في العالم العربي، وشاعت قيم وتقاليد تكرس التخلف، وتقف موقف الرافض لكل حركة ثقافية حية، ولكل مدرسة ترفع شعار التجديد وتدين مظاهر التخلف.

نتيجة هذه الظروف أصبح الرأي العام العربي مهيأ لرفض الواقع الاجتماعي وإدانته، وخاصة بعد أن ضعفت الدولة العثمانية، وأصبحت رمزا للتخلف والجمود، وارتفعت الأصوات الحرة مطالبة بتصحيح الأوضاع، معلنة رفضها لهذا الواقع رافعة المقاومة، متطلعة لنهضة ثقافية تواكب مسيرة الحضارة.

وبذلك اتسعت دائرة التطلع لحركات إصلاحية دينية، اجتماعية، ثقافية وسياسية، عملت في بدايتها على تصحيح المفاهيم، ثم تلتها موجات من نداءات الإصلاح الاجتماعي والإداري والسياسي. كما ظهرت فكرة القوميات ونمت كظاهرة رفض للواقع المعاش، وإدانة لمظاهر التخلف.

لقد كان للاستشراق مساهمة فعالة في النهضة الفكرية والأدبية العربية، فقد قام المستشرقون

بنفض الغبار عن نفائس وأمهات الكتب العربية التي كانت قد أهملت طيلة فترة الحكم العثماني للأقاليم العربية، وأعيد دراستها من جديد. فكان من نتائج هذه الحركة العلمية الواسعة أن تم إعادة إحياء التراث العربي، والتعرف عن سمات وخصائص العنصر العربي الذي أدرك أنه يتمايز عن بقية العناصر الأخرى المشكلة للإمبراطورية العثمانية، وفي هذا اتجاه واضح نحو القومية العربية.

ب – الترجمة

بدأت حركة الترجمة في بلاد الشام مع أوائل القرن التاسع عشر[180]، غير أنها شملت في بداية الأمر الكتب الدينية. أما في مصر فقد اعتمد عليها محمد على باشا كوسيلة من وسائل بناء الدولة المصرية الحديثة، فأسس مدرسة لألسن في سنة 1835، وتولى رفاعة الطهطاوي الإشراف عليها. وقد اهتم محمد علي باشا بترجمة الكتب العلمية والأدبية الهامة من اللغات التركية والفرنسية والإيطالية والفارسية. غير أن هذه الحركة تراجعت في عهدي عباس والخديوي سعيد، فألغيت مدرسة الألسن. أما في عهد الخديوي إسماعيل، فقد استؤنفت حركة الترجمة بشكل واسع، إذ أعاد فتح مدرسة الألسن سنة 1867، واستعان بعدد من الكتاب والأدباء الذين قدموا إلى مصر من بلاد الشام، فساهم هؤلاء بصورة مباشرة في حركة الترجمة والنهضة الفكرية خاصة في الربع الأخير من القرن التاسع عشر. وتولت الصحف والمجلات أمثال "المقتطف" و"الهلال" وغيرهما ترجمة البحوث والمقالات ونشرها. ومن

[180] أنور الجندي، مرجع سابق، ص57.

خلال حركة الترجمة هذه، تمكن العرب من الاطلاع عن ثقافة الغرب وما توصل إليه من آراء ومبادئ سياسية واقتصادية واجتماعية.

ج – الطباعة

كانت المطبعة الأولى في لبنان في دير قزحيا سنة 1601، وتلتها مطبعة ديرمار يوحنا بالشوير سنة 1733. وفي سنة 1751 تأسست مطبعة القديس جارو جيوس للروم الأرثدوكس وأنشأت المطبعة الأمريكية المرسلين الأمريكان سنة 1822 في مالطة ثم نقلت إلى بيروت سنة 1834، وتأسست المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين عام 1848، وأنشئت المطبعة السورية لصاحبها خليل الخوري سنة 1854. وبعد ذلك بعشر سنوات تأسست مطبعة المعارف للبستاني، وفي سنة 1874 أنشئت المطبعة الأدبية لخليل سركيس[181].

أما في مصر، فكانت أول مطبعة عربية دخلت البلاد مع الحملة الفرنسية سنة 1798، وكانت تسمى المطبعة الأهلية. وقد ظلت مصر طيلة عشرين عاما بعد خروج الفرنسيين بدون مطبعة، حتى أنشأ محمد على باشا "المطبعة الأهلية" سنة 1821 في بولاق[182]. وفي سنة 1866 أنشأ عبد الله أبو السعود مطبعة وادي النيل[183]. لقد ساهمت المطابع في نشر العديد من المؤلفات والكتب العربية القديمة، وإحياء التراث العربي وإيصال المؤلفات الحديثة والكتب المترجمة إلى أيدي الناشئة والمثقفين العرب، فكان لها دور كبير في النهضة الفكرية العربية

---

[181] **جرجي زيدان، مصدر سابق، ص ص55، 56.**

[182] **جرجي زيدان، مصدر نفسه، ص57.**

[183] **جرجي زيدان، مصدر نفسه، ص61.**

الحديثة.

د – الصحافة

كان للصحافة العربية دور هام في النهضة العربية واستمرار زحفها نحو التعمق والرسوخ، فظهر نشاط صحفي واسع خاصة في مصر، إذ صدرت صحيفة "التنبيه" العربية التي كان يحررها إسماعيل الخشاب. وفي عهد محمد علي باشا صدرت صحيفة "الوقائع المصرية" سنة 1828باللغة التركية في أول الأمر ثم أصبحت تصدر بالعربية والتركية، واقتصرت بعد ذلك على العربية. وكان من أوائل المحررين فيها الشيخ رفاعة الطهطاوي والشيخ حسن العطار والشيخ أحمد فارس الشدياق والسيد شهاب الدين والشيخ محمد عبده[184].

أما أقدم الصحف السياسية غير الرسمية في مصر فهي صحيفة "وادي النيل" لصاحبها عبد الله أبو السعود، وبدأ في صدورها سنة 1866 مرتين كل أسبوع[185]. وتأتي بعدها جريدة "نزهة الأفكار" التي أصدرها إبراهيم المويلحي سنة 1869.

وكان رزق الله حسون أول عربي أنشأ جريدة عربية في دار الخلافة إستانبول وهي جريدة "مرآة الأحوال" سنة 1855، وبعد ذلك بعامين أصدر إسكندر شلهوب جريدة "السلطنة"، ثم أصدر خليل خوري "حديقة الأخبار" سنة 1858.

---

[184] طرازي، فليب دي، تاريخ الصحافة العربية، ج1، المطبعة الأدبية، بيروت، 1913، ص ص49، 50.

[185] طرازي، فليب دي، مصدر نفسه، ص69.

وقد انتشر النشاط الصحفي بعد ذلك في كل من سوريا والعراق على يد جماعة من الأدباء والمفكرين العرب أشهرهم جورجي زيدان♦ مؤسس دار الهلال، وسليم وبشارة تقلا مؤسس جريدة "الأهرام" سنة 1875•، ويعقوب صروف وفارس نمر مؤسس مجلة "المقتطف" سنة 1876♦. هذا إلا جانب صحيفة "الزوراء" التي أنشأها مدحت باشا في بغداد، فكانت لسان حال الولاية وأول صحيفة ظهرت في العراق[186]، وقد تولى السيد محمود شكري الألوسي تحرير القسم العربي منها. كما اشترك في التحرير عبد الحميد بك الشاوي، الذي كان يعتبر من أروع أدباء العرب في الكتابة العربية والتركية في عصره.

لقد أيقظت الصحافة الأذهان، وحملت إلى قرائها لواء الدعوات السياسية والفكرية المختلفة كالتجزئة والوحدة الوطنية والإقليمية، الرابطة العثمانية والجامعة الإسلامية والقومية العربية، وبذلك ساهمت وبشكل فعال في نشوء رأي عام عربي.

2 – تيارات النهضة

تعددت التوجهات والمنطلقات الفكرية بين مفكري عصر النهضة خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وقد كان هذا التعدد والاختلاف ناتج عن واقع سياسي وفكري

♦ جورجي زيدان أرثودوكسي نزح إلى مصر وأنشأ مجلة الهلال، من كتبه تاريخ الآداب العربية وتاريخ التمدن الإسلامي.

• سليم تقلا (1849–1892) وبشارة تقلا (1852–1911) وهما كاثوليكيان وقد أسسا جريدة الأهرام عام 1875 في مصر.

♦ يعقوب صروف (1852–1927) وفارس نمر (1860–1952) وهما أرثوذكسيان أصدرا في بيروت مجلة المقتطف، وعندما نزحا إلى مصر اصطحبا معهما المجلة وأصبحت في القاهرة أحد المنابر الكبرى.

[186] طرازي، فليب دي، مصدر سابق، ص78.

واجتماعي واقتصادي كانت تعيشه الأمة العربية والإسلامية.

رغم هذا التنوع في المفاهيم والفرضيات لمحاولة إيجاد حل للإشكاليات المطروحة على هؤلاء المفكرين، إلا أنه كانت توجد قضية أساسية تمثلت في دور الإسلام كدين وإرث حضاري فيها جميعا.

أ – التيار التقليدي

أخذ التدهور والانحطاط يتسرب إلى الأمة منذ أن بدأ العرب يفقدون استقلالهم بتسرب السيطرة الأجنبية –حكم الأتراك–، فتضييعهم السلطة عقبه تدهورا شاملا، إذ نشأ بينهم نظام استبدادي في الحكم، تسوده بيروقراطية خانعة، وجيش مأجور، وأصبحت الحكومات أدوات استغلال لا غير[187].

ساعد على هذا التدهور تحول الدين إلى شكليات خارجية، فقد ترك ذلك تأثيرا كبيرا في طابع الحضارة العربية، حيث أفقدها فاعليتها واتجهت إلى دور التقليد.

لقد كان الدين يمثل المنبع الرئيسي في كافة مجالات الحياة، لذلك حاول المتحكمون في الأمة أن يصبغوا الدولة بالصبغة الدينية الإسلامية، وبذلك غلب على الدولة اسم الدولة الإسلامية، وتراجع اسم الأمة العربية، أو الدولة العربية، أو بمعنى آخر، حاول المتغلبون على الأمة أن يصبغوا فكرة الروح القومية وفق فكرة الإسلام تبريرا لسيادتهم.

إن حالة التدهور والركود هذه ستهيئ أرضية لمرحلة أخرى من مراحل التطور القومي، وقد

---

[187] **عبد الغني البشري، مرجع سابق، ص 102.**

حملت في طيّاتها بذور نهضتها الجديدة، وأخرجت عددا من المفكرين والمصلحين، تركت أعمالهم أعمق الأثر في بعث الفكر السياسي خلال القرن التاسع عشر.

لقد شعرت الدولة العثمانية بضرورة تثبيت حكمها على قاعدة متينة، حتى تضمن بقائها واستمراريتها، وحتى تتمكن أيضا من مواجهة التحديات الداخلية والخارجية المحدقة بها. عندئذ برزت حاجة السلطة العثمانية إلى مساندة العلماء ورجال الدين، ليكونوا حلقة الوصل بين عامة الشعب والحكومة المركزية، إذ سيصبحون كمدافعين عن شرعية الخلافة العثمانية، ونادوا بضرورة طاعة الحاكم أو الخليفة باعتبارها واجب ديني. وقد تأثر أصحاب هذا الاتجاه بآراء بعض المفكرين أمثال الماوردي (991 – 1031) وأحمد بن تيمية• (1262 – 1327) الذي كان يدعو إلى اعتماد العقل وتنقية الدين مما علق به من شوائب.

اعتمد ابن تيمية في أحكامه على القرآن الكريم وسنّة الرسول ﷺ وآثار السلف الصالح، بشرط وثوقه بصدورها عنهم[188]. وقد دعا إلى أن يكون المجتمع خاليا من الظلم والظالمين، وأن يعمل ولاة الدولة على نصرة الحق، كما لم ينسى ابن تيمية في إصلاحاته، سياسة الملك، فكتب رسالته "السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية"، كما هاجم الجمود والتقليد، وحث على الاستنباط والتشريع[189].

• ولد تقي الدين أحمد بن تيمية بنجران، وانتقل مع والده وهو في السادسة من عمره، إثر غارة شنها التتار على نجران. ودرس في المدرسة الحنبلية في دمشق علوم الدين والأدب والفلسفة، وبرع في علوم التفسير والأصول، وألف كتابين هامين هما: "السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية" و"مجموعة رسائل" في أربعة أجزاء.

[188] محمد يوسف موسى، ابن تيمية، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة، مكتبة مصر، 1962، ص135.

[189] محمد بديع شريف، دراسات تاريخية في النهضة العربية الحديثة، مكتبة الأنجلومصرية، القاهرة، 1954، ص12.

ما يلاحظ أن ابن تيمية لم يكن صاحب مذهب خاص، غير أنه كان مجددا في عصره، ولا يمكن اعتباره فيلسوفا قوميا، ذلك أن طبيعته الدينية الخالصة، وطبيعة العصر الذي كان يعيش فيه، لم تكن لتهيئ له التفكير السياسي الواضح. كما أن المفهوم السياسي لم تكن حتى أوربا قد عرفت معالمه في هذه الفترة، إلا أن نظرته الإصلاحية كانت عميقة الأثر فيما بعد، إذ تمكن تلميذه محمد بن عبد الوهاب من التعبير عنها[190]. وكان ابن تيمية هو المصدر الرئيسي في إلهام تلميذه.

لقد عارض أصحاب هذا التيار فكرة الإصلاح تماشيا مع مواقعهم الطبقية في النظام، غير أنهم لم يتمكنوا من إيجاد مفكر بارز يمثلهم، فشكلوا حركة سياسية أكثر مما شكلوا حركة فكرية[191].

لقد هاجم الشيخ أبو الهدى الصيادي♦ الأفكار الداعية إل العودة إلى نقاوة الإسلام، كما دعت إلى ذلك الحركة الوهابية وغيرها من الحركات السلفية، وذلك دفاعا عن الخليفة، ودعا إلى ضرورة الالتفاف حوله. ومما ينسب إليه «...أن الخلافة ضرورة إيمانية، انتقلت شرعيا من أبي بكر إلى العثمانيين، وبأن الخليفة هو ظل الله على الأرض ومنفذ أحكامه، وأن من واجب جميع المسلمين أن يطيعوه...». وقد صاغ أفكار عن الخلافة والخليفة في رسالة

---

[190] فليب عبد الله، تاريخ نجد والحركة السلفية لمحمد بن عبد الوهاب، تعريب عمر الدراري، منشورات المكتبة الأهلية، بيروت (ب، ت)، ص ص17، 31.

[191] حليم بركات، المجتمع العربي المعاصر، بحث استطلاعي اجتماعي، (م.د.و.ع) بيروت، 1985، ص400.

♦ أبو الهدى الصيادي، شيخ الطريقة الرفاعية، ونقيب الأشراف في مدينة حلب (1848 –1920).

سماها "دعي الرشاد لسبيل الاتحاد والانقياد"[192].

ب – التيار السلفي الإصلاحي

بدأت بوادر التيار السلفي في الظهور في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، وقام بالدعوة إلى العودة الإسلام الأول، وقد اعتبرت هذه الدعوة كرد على التحدي الداخلي المتمثل في التدهور والانحطاط الذي أصاب الفكر الإسلامي في العصر الحديث. فهي بذلك نقد شديد للإسلام الرسمي المتمثل في السلطنة العثمانية.

أول من مثل هذا الاتجاه، الحركة الوهابية•، وقد دعت هذه الحركة إلى العودة بالإسلام إلى صفائه الأول، والتوحيد، وفتح باب الاجتهاد.

كان محمد بن عبد الوهاب♦ كأستاذه ابن تيمية، رائد حركة إصلاحية تعتبر كأولى الحوادث الهامة التي هزت الركود في تطبيق تعاليم الدين الإسلامي الصحيحة، كما أنها تعتبر أيضا، حدثا هزّ الدولة العثمانية والبلاد العربية[193]. وقد تبنى دعوته الحكام السعوديين ابتداءً من سنة 1747م، زمن حكم محمد ابن سعود، فانتشرت الدعوة في قلب الجزيرة العربية، وأصبحت أول صوت عربي شديد بدأ بمحاولة إعادة السلطان إلى العرب. إلا أن تركيا بفضل جيش مصر، استطاعت القضاء عليها كمنافس للخلافة. وهنا تبدو إشكالية مهمة لابد من طرحها

---

[192] الغالي غربي، مرجع سابق، ص233.

• الوهابية كلمة أطلقها الخصوم على هذه الدعوة، وأما أنصار الدعوة فيسمون أنفسهم "الموحدين أو المسلمين".

♦ محمد بن عبد الوهاب من بني تميم، ولد في قرية العينية في نجد عام 1115 هـ – 1703م.

[193] محمد بديع شريف، مرجع سابق، ص17.

وهي: ما أثر الفكر الوهابي على حركة البعث القومي العربي الحديث؟

صحيح أن حركة محمد بن عبد الوهاب هي حركة إصلاح ديني في أساسها، إلا أنها كانت ذات أثر – بطريق غير مباشر – في بداية اليقظة العربية، إذ كانت الفكرة في جوهرها، تدعو إلى العودة إلى أصول الدين، وما يحمله من بذور قوية لدعائم الفكر القومي العربي الحديث.

ويرى بعض الدارسين العرب، أنه لو نجحت هذه الحركة لتغيّر مجرى التاريخ في الشرق الأدنى. وعلى الرغم من أن بعدها السياسي قد زال، إلا أنها فتحت أفاق جديدة للمسلمين في كافة أنحاء العالم الإسلامي، خاصة العالم العربي[194]. وقد كان من بينها دعوة محمد بن علي السنوسي الجزائري في برقة، ودعوة الشيخ محمد عبده في مصر[195]، وحتى الحركة المهدية في السودان التي مثلت نضالا ضد التسلط.

غير أنه منذ مطلع القرن التاسع عشر، شهد التيار السلفي الإصلاحي تطورا جديدا في مبادئ وأهداف فلسفته الإصلاحية، وكان من أبرز من مثل هذا التوجه، رفاعة رافع الطهطاوي، خير الدين التونسي، جمال الدين الأفغاني، محمد عبده، رشيد رضا، وعبد الرحمن الكواكبي.

وقد حرص هؤلاء على التوفيق بين الفكر الإسلامي الإصلاحي والفكر العلمي الحديث،

---

[194] محمد بديع شريف، مرجع سابق، ص21

[195] نجلاء عز الدين، العالم العربي، تر، محمد عوض إبراهيم وآخرين، دار إحياء الكتب العربية، (م.ف.ط.ن)، ط2، 1962، ص96.

وبين مبدأ الأمة الإسلامية الجامعة ومبدأ الاستقلال القومي، لا سيما وأن العالم الإسلامي عامة، والعالم العربي خاصة أصبح يعيش وضعا سياسيا جديدا – الحملة الفرنسية على مصر –، فنادوا بضرورة العودة إلى الإسلام الأول، ومواجهة التحدي الأوربي، والانفتاح على العالم الخارجي. مرجعين سبب تراجع مجتمعاتهم إلى رفض الأخذ بأساليب الحضارة الغربية. لذلك دعوا إلى الاستفادة من مصادر قوة هذه الحضارة، على أن لا يكون هذا الاقتباس متعارض مع معتقداتهم وتقاليدهم الإسلامية.

إن هذه الحركات وإن قامت دعائمها على أساس ديني، إلا أنها أحدثت في المجتمع العربي انقلابات، إذ سرعان ما تولدت روحا هيأت لنهضة قومية عربية عندما تكتمل لديها مقومات الحركة السياسية.

لقد كان لليقظة الفكرية العربية التي ظهرت بمصر والشام والعراق تأثيرا كبيرا على أوضاع العرب، فقد ساعدت على ظهور حركة كبيرة لإحياء تاريخ وأمجاد العرب. كما اخذ يزداد اهتمام العرب بما وصل إليه الغرب من نضج في المفاهيم السياسية والاجتماعية. ومع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين برزت جمعيات وأحزاب سياسية حملت برامجها مطالب الإصلاح ومقاومة المركزية العثمانية، وبدا الوضع العام في البلاد العربية يزداد خطورة.

ثالثا: الاتجاهات السياسية الجديدة في العالم العربي

يذهب كثير من المفكرين والكتّاب إلى أن القرن التاسع عشر يعتبر بداية لعصر الاستنارة

العربي السياسي، حيث ظهر فيه بعض المفكرين الذين عالجوا المسائل العامة على ضوء العقل والمنفعة. وكان من أبرز هؤلاء :

1 – رفاعة رافع الطهطاوي: 1801م، 1873م

عين رفاعة رافع الطهطاوي إماما للبعثة الطلابية المصرية المهنية لخوبارس عام 1826م، وقد كان ذلك فرصة مكنته من الاطلاع على الحضارة الغربية خاصة الفرنسية. بدأ مشواره الإصلاحي عند عودته من باريس بالإشادة بالتقدم الأوربي والأسباب الكامنة وراء ذلك، وقد وصف فترة إقامته في باريس وصفا دقيقا في كتابه "تخليص الابريز في تلخيص باريس"، وفيه يبدوا تأثر الطهطاوي بالحكم البرلماني.

ترجم رفاعة رافع الطهطاوي الدستور الفرنسي مع التعليق عليه، وأشاد كذلك بأهمية الصحافة كوسيلة لنقل الأفكار بين أفراد الأمة[196] ويمكن إبراز أفكاره الإصلاحية فيما يلي :

1) تطهير العقيدة الإسلامية من الخرافات والأوهام والبدع والعودة إلى منابع الإسلام الأول، وفتح باب الاجتهاد. وقد يمكّن ذلك من تغيير الشرائع ما تغيرت الأزمنة.
2) الدعوة إلى الاقتباس من التشريع الأوربي الذي لا يتناقض مع الأصول والأحكام التي قررتها الشريعة، ويذهب حاثا المسلمين على الاقتباس قائلا: «...إن الحالة الراهنة اقتضت أن تكون القضايا والأحكام وفق معاملات العصر، بما حدث فيها من متفرعات الكثيرة المتنوعة...»[197].

---

[196] **الغالي غربي، مرجع سابق، ص237.**

[197] **الغالي غربي، مرجع نفسه، ص237.**

3) الدعوة إلى فصل السلطات في الدولة، وقد قسمها في هذا الصدد إلى قوتين. القوة المحكومة ويقصد بها الشعب، والقوة الثانية هي القوة الحاكمة ويقصد بها الحكومة.
4) أكد على الإقبال على العلوم الحديثة، باعتبارها علوم إسلامية أخذتها أوربا عن العرب ن فيجدر بالمسلمين استعادتها.
5) وقد كان الطهطاوي في مقدمة المفكرين العرب الذين حاولوا التأليف بين الفكر السياسي العربي والغربي، وقد جاء عرضه للآراء الفرنسية في مؤلفاته مصحوبا بأمثلة عربية.

ومن محاولاته يتجلى ارتباط الفكر السياسي في مصر بالفكر الغربي، وبداية ظهور شكل الفكرة القومية الحديثة. وقد اجتهد الطهطاوي في أن يعرض أفكاره لمواطنيه بطريقة بعيدة عن التعقيد، ومتصلة في جوهرها مع السنة العربية دون الإساءة إلى السنة الفرنسية. فهو عندما يناقش مبادئ التحديات الدستورية يسلّم من بداية الأمر أنها تتنافى مع ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله، وفي المقابل نجده جد متأثر بنصوص التساوي أمام القانون واستقلال القضاء وحصانة الملكية الخاصة إلا فيما يطلق عليه المصلحة العامة.

كان لحركة (فكرة) الطهطاوي صبغة نخبوية، ذلك ما جعل تأثيرها محصورا في جهاز الدولة، إضافة إلى ذلك فإن موقفها غير الثوري من الحركة الاستعمارية التي اجتاحت العالم العربي والإسلامي خلال هذه الفترة أبعدها عن الطابع الشعبي الثوري الذي قد يمكنها من الانتشار.

2 – جمال الدين الأفغاني: (1839م، 1897م)

ولد جمال الدين الأفغاني في قرية أسد أباد[198] في أفغانستان عام 1839م، وتلقى تعليمه الأول في كابل، حيث تعلم اللغة العربية والعلوم الدينية، والعلوم العقلية. انتقل إلى الهند فتعلم اللغة الانجليزية وجمع فيها بين الثقافة القديمة والحديثة، تم رحل إلى مكة المكرمة حاجا عام 1857م، وعاد إلى أفغانستان فتولى رئاسة وزرائها في عهد الأمير محمد أعظم. إلا أنه عزل من منصبه إثر انقلاب دبّر ضده الأمير محمد، فذهب إلى الهند ثم إلى مصر عام 1870م، وفيها توطدت علاقته مع الشيخ محمد عبده. ثم نفي من مصر عام 1879م فذهب إلى الهند ثم إلى باريس، ودعا الشيخ محمد عبده إليه. وهناك في باريس أنشأ جمال الدين جمعية "العروة الوثقى" وأصدر مجلة "العروة الوثقى"، التي تدعو المسلمين إلى النهوض ببلادهم والثورة على المستعمرين، والتحرر من الاستبداد والاضطهاد السياسي الداخلي.

بقي جمال الدين الأفغاني في أوربا إلى أن عاد إلى إيران عام 1886م، إذ تولى هناك وزارة الحربية، ثم غادرها بسبب آرائه السياسية. فتجول في روسيا، ثم فرنسا، ثم رجع إيران فنفاه الشاه إلى العراق، ومنها انتقل إلى إنجلترا حيث أصدر هناك مجلة "ضياء الخافقين" باللغتين

[198] اختلف الباحثون في أصل جمال الدين الأفغاني. فقد ذكر الشيخ محمد عبده أنه أفغاني الأصل، بينما ذكر مصطفى عبد الرزاق أنه فارسي الأصل أفغاني النشأة. وأثبت الأستاذ مبرز غلام حسين في كتابه (مردان نامي الشرق) عام 1929م أن جمال الدين فارسي وأنه ولد في قرية أسد أباد بين همدان وكنكادر على ضفاف نهر الوند. أنظر: قلعجي قدري، جمال الدين الأفغاني حكيم الشرق، دار العلم للملايين، ط 3، بيروت، 1956، ص ص24 ،25.

العربية والإنجليزية. وفيها اتصل بالفيلسوف البريطاني هربرت سبنسر، ثم استدعاه السلطان عبد الحميد الثاني عام 1882م إلى الأستانة وظل في دار الخلافة حتى وفاته عام 1897م[199]. كان لثقافة الأفغاني الإسلامية والغربية، والتجربة السياسية التي عاشها في عدة أقطار، أثرها الكبير في نظرته في التجديد الديني والإصلاح السياسي والاجتماعي. وأهم فكرة ركز عليها جمال الدين الأفغاني في تصوره للنهضة القومية العربية، اعتبار الإسلام دين ومدنية إنسانية مزدهرة في كل نواحيها[200].

ارتبط جمال الدين الأفغاني أيضا بحركة الجامعة الإسلامية، ودعا من خلالها إلى وحدة الصفوف شعوبا وحكومات، لما في ذلك الدولة العثمانية لمقاومة الزحف الاستعماري المتزايد، والتعاون الوثيق لتحرير بلادهم من السيطرة الأجنبية. وفي هذا الصدد أكد على شعيرة الحج كوسيلة مثلى لتحقيق الوحدة، وكونه أيضا مؤتمر إسلامي سنوي يلتقي فيه المسلمون من كافة بقاع العالم، يناقشون فيه أوضاعهم ويضعون الخطط للدفاع عن الإسلام والمسلمين. وقد أكد الأفغاني على ما يلي :

1) ضرورة اقتباس من الحضارة الغربية في ميادين العلوم الحديثة والأنظمة السياسة والدستورية، وإقامة الدولة على أساس العقل والتضامن الطائفي في وحدة المجتمع القومي.

---

[199] عليّ المحافظة، مرجع سابق، ص 72.

[200] رفاعة رافع الطهطاوي، مناهج الألباب المصرية في مناهج الآداب العصرية، مطبعة شركة الرغائب، القاهرة، 1912م، ص22.

2) الاعتقاد الديني المشترك أساس قيام الوحدة أكثر من أي نوع من انواع الولاءات الأخرى، بما فيها الوطنية.

3) العودة إلى أصول الدين النقي لاسترجاع عزة المسلمين وقوتهم، فهو يرى أن العامل الأكبر في تدهور الحضارة الإسلامية، وضياع مجد المسلمين هو «...إهمال ما كان سببا في النهوض والمجد وعزة الملك، وهو ترك حكمة الدين والعمل بها...»[201]. ولتطبيق أفكاره هذه ارتبط بالسلطان عبد الحميد الثاني، هذا الأخير الذي بدأ يروّج لفكرة الجامعة الإسلامية. وقد حدث تقارب بين الشخصيتين، وسعى الأفغاني يدعو إلى الالتفاف حول السلطان بوصفه خليفة للمسلمين. لكن العلاقة ساءت بينهما إلى أن انتهت إلى القطيعة بعد أن فقد ثقته في السلطان.

4) التوفيق بين العلم والإيمان، فهو يعتقد أنه لا خلاف بين ما جاء في القرآن والحقائق العلمية، أما إذا برز خلاف ما، فذلك دلالة على عجز في تفسير الآيات القرآنية، ويقترح حل هذا الإشكال باعتماد تأويل[202].

5) رغم فشل حركة جمال الدين الافغاني سياسيا، إلا أنها تركت آثار بعيدة المدى في حياة المجتمعات الإسلامية من الناحية الدينية، ذلك لأنها كانت أكثر إدراكا وتفهما لواقع العالم الإسلامي.

---

[201] محمد المخزومي، خاطرات جمال الدين الأفغاني، المطبعة العلمية ليوسف صادر، بيروت، 1931م، ص257.

[202] يقول في هذا الصدد «... إن الدين لا يصح أن يخالف الحقائق العلمية، فإن كان ظاهره مخالفة وجب تأويله...». أنظر: على المحافظة، مرجع سابق، ص75.

3 – محمد عبده: (1849م – 1905م).

كانت نظرة محمد عبده الإصلاحية ترتكز على العمل التربوي، وقد أعطاه الاهتمام الأكبر حتى لا يكون العمل السياسي ناقصا أو ضعيف الأساس. ويرى أن التربية والتعليم وسيلتين من وسائل إيقاظ الوعي في الأمة. وحسب محمد عبده فإنه بواسطة هاتين الوسيلتين تتحدد هوية الأمة، ويعاد تكوينها.

يبدو من خلال حركة محمد عبده أنه ابتعد عن السياسة عكس أستاذه جمال الدين الأفغاني. فلم يشتغل محمد عبده بالسياسة إلا حين دفعه تيار الثورة العُرابية، حين كان تحت تأثير أستاذه. وقد لخص فكره الإصلاحي، في التأكيد على نشر التعليم للنهضة، وعلى فهم التراث، والوقوف بتبصّر في أمام الموجة الغربية التي بدت وكأنها ستكتسح التراث، وتعرّض الشخصية العربية الإسلامية للخطر. ففي نظره أن الإسلام لم يكن أبدا عائقا للمدينة الغربية، وفي هذا يقول «...أن الإسلام لن يقف عثرة في سبيل المدنية أبدا، ولكنه سيهذبها وينقيها من أضرارها...»[203].

يرى محمد عبده أن الشعوب الإسلامية لن تصبح قوية ومزدهرة إلا إذا اقتبست من أوربا العلوم التي نتجت عن نشاطها العقلي ن وأن هذا الاقتباس يمكن تحقيقه بدون التخلي عن الإسلام. إذ أن الإسلام يحث على قبول جميع منتجات العقل، غير أن ذلك يقتضي تغيّرا

[203] **محمد كامل الخطيب، الإصلاح والنهضة، ج2، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1992م، ص331.**

في مؤسسات المجتمع الإسلامي في نظامه الشرعي، ومدارسه، وأساليب الحكم فيه[204].

لقد حاول بعض الكتّاب أن يضع فرقا بين جمال الدين الأفغاني وتلميذه محمد عبده وراء الوسيلة عند كل منهما، وهو أن جمال الدين إسلامي عالمي يسعى إلى تكتّل المسلمين جميعا تحت حكومة واحدة، أو في ضل اتحاد عام. بين محمد عبده، وطني مصري قصر نشاطه على وطنه مصر[205]. لكن إذا روعي إلى الأسس التي أقام محمد عبده عليها نظامه التربوي، والتي جعلها مقدمة لتخليص البلاد الإسلامية من الاستعمار الغربي، هي نفس الأسس التي اتخذها منها جمال الدين دعامته في مقاومة الاستعمار الغربي وفي كفاحه السياسي، وهي الرجوع إلى القرآن، وإلغاء التقليد، ومحاربة البدع والسلبيات. فهذه التفرقة بين الإثنين غير مفهومه على النحو الذي قصد على إبرازه. الأعلى اعتبار أن محمد عبده جعل مصر "حقل" تجاربه التربوية.

من ناحية أخرى، لم يثبت أن جمال الدين حدد غايته الأخيرة تحديدا واضحا بإقامة حكومة واحدة، تخضع لسلطانها كل البلاد والشعوب الإسلامية، وإنما الذي ثبت في كتاباته في مجلة "العروة الوثقى" أن غايته هي "الجامعة الإسلامية" بين الشعوب الإسلامية. ففهم بعض الكتّاب من كلمة الجامعة الإسلامية، الوحدة الإسلامية وتركوا المعنى الآخر لهذه الكلمة وهو الرابطة أو الترابط. إذ أن كلمة "الجامعة" في اللغة العربية أقرب إلى المعنى الثاني

---

[204] عمر عبد العزيز عمر، محاضرات في تاريخ الشعوب الإسلامية في العصر الحديث، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2007، ص86.

[205] عمر عبد العزيز عمر، مرجع نفسه، ص86.

منها إلى المعنى الأول، وقد عبر هو نفسه تعبيرا وواضحا وصريحا، بأنه لا يريد حكومة إسلامية واحدة بل يريد تعاونا وترابطا أخويا إسلاميا[206].

4 – عبد الرحمن الكواكبي: (1849م – 1903م).

وضع عبد الرحمن الكواكبي كتابين "طبائع الاستبداد"، ويعتبر حملة قوية على الحكم المطلق، و"أم القرى" الذي هو بحث في أسباب الخلل والضعف في وضع المسلمين، وسبل في إحيائهم. والكتابان متكاملان بحيث أنهما يشخصان أدواء المجتمع الإسلامي، ويتلمسان السبل للنهضة.

لقد حمّل الكواكبي الدولة العثمانية مسؤولية حالة الضعف التي كانت تعانيها الأمة الإسلامية والعربية، بسبب عقم سياستها وتفريطها في وقوع بعض الأمم الإسلامية تحت السيطرة الأجنبية، مما أفقدها ثقة المسلمين. ويؤكد الكواكبي علي فضل العرب ودورهم الخاص في الإسلام، فهم يرى أنه عن طريق العرب يأتي الإحياء ووحدة الدين[207].

تأثر عبد الرحمن الكواكبي بالأفكار والآراء الغربية خاصة في الديمقراطية والوطنية، إلا أنه حاول تطبيق تلك الآراء على الاستبداد في عصره وبلاده[208]، وقد تأمل حال المجتمع الإسلامي، وعاد إلى الإسلام الأول ليجد فيه روح آراءه وأفكاره.

يعترف الكواكبي بتفوق غير المسلمين في العلوم والفنون، رغم ذلك فهو يفخر بعظمة

---

[206] **عمر عبد العزيز عمر، مرجع سابق، ص ص86، 87.**

[207] **عبد العزيز الدوري، مرجع سابق، ص168.**

[208] **عبد العزيز الدوري، مرجع نفسه، ص168.**

الإسلام وتفوقه على أساليب الحياة لدى الآخرين، كما أنه يرفض التقليد الأعمى للغرب وينتقد النّاشئة المتفرنجة بقوة[209].

حسب الكواكبي، أن تسلط فئات من غير العرب هو بداية الاستبداد والجهل، كما يوجه نقدا لاذعا للترك، فالدولة العثمانية – برأيه – لم تنتفع الإسلام بشيء في عز شبابها بل أضرته – بمحو الخلافة العباسية المجمع عليها –، وخبرّت ما بناه العرب، بل ويتهم الترك بالتّفريط بأجزاء من دار الإسلام. فكتابه طبائع الاستبداد موجه في الأساس ضد النظام السياسي العثماني، وبخاصة استبداد عبد الحميد.

أشار الكواكبي إلى ابتعاد الترك عن العرب والعربية، فحسبه جميع الأعاجم الذين قامت لهم دول في الإسلام استعربوا، وتخلّقوا بأخلاق العرب. لكن مغول الأتراك – أي العثمانيين – وحدهم لن يقبلوا أن يستعربوا، ويرى أن ذلك ناشئ عن تعاليمهم وبغضهم للعرب، وسيشهد على ذلك بأمثلة من لغتهم[210].

وجه الكواكبي نقدا صريحا للإدارة العثمانية، ويعتبرها سبب الخلل. فهو يطالب باللاّمركزية الإدارية، ويندد بالإدارة المركزية لبعد المسافة عن العاصمة، بالإضافة إلى جهل المسؤولين بأحوال الولايات وخصائصها. هذا فضلا عن توحيد قوانين الإدارة والعقوبات رغم اختلاف الأهالي في الأجناس والطباع، مع تعيين موظفين من جنسيات مخالفة لجنسية الأهالي.

---

[209] عبد العزيز الدوري، مرجع سابق، ص169.

[210] عبد العزيز الدوري، مرجع نفسه، ص170.

مما ينجم عنه اختلاف في الأخلاق بين الرعية والرعاة، ويستشهد بقول المتنبي:

إنِمَا النَّاسُ بِالملُوكِ وهَلْ * يَفْلَحُ عَرَبٌ مُلُوكُها عَجَمُ.

ثم يتجه الكواكبي ليؤكد دور العرب، فيبين فضائل الجزيرة مهدهم، كما يبين خصائصهم ومزاياهم كأمة• والتي تشمل أهل الجزيرة، العراق، الشام، مصر، وشمال إفريقيا. ويرى أن الأمة قد يجمعها نسب أو وطن أو لغة أو دين، كما يرى في اللغة العربية الرابطة الأولى بين العرب.

لقد طرح الكواكبي قضية أخرى، ألا وهي قضية الخلافة. وقد عالجها في كتابه "أم القرى". فقد تخيل انعقاد اجتماع لممثلي الدولة الإسلامية لتدارس قضاياهم، ونقل على لسان أحدهم أن «...العرب أنسب الأقوام لأن يكونوا مرجعا في الدين، وقدوة للمسلمين، حيث كان بقية الأقوام قد اتبعوا هديهم من البداية...»[211]. هذه هي الأسباب التي جعلت جمعية "أم القرى" تعتبر أن العرب هم الوسيلة الوحيدة لجمع الكلمة الدينية، بل الكلمة الشرقية. وبذلك فهو يحصر منصب الخلافة في العنصر العربي، ويقترح أن تكون "أم القرى" هي عاصمة هذه الخلافة. أما عن الخليفة، فيُنتخب من هيئة شورية عامة تتكون من أعضاء منتخبين من الإمارات والسلطنات الإسلامية لفترة محدودة[212]، مع تمتع هذه الكيانات باستقلالها الذاتي.

• يلاحظ الكواكبي أن لجزيرة العرب ولأهلها مجموعة خصائص وخصال لا تتوفر في غيرهم (فهم مؤسسو الجامعة الإسلامية، نشأ الإسلام فيهم بلغتهم، فهم أهله، وهم أعلم المسلمين بقواعد الدين، وأكثرهم حرصا على حفظه).

[211] عبد الرحمن الكواكبي، الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي، تحقيق محمد عمارة، (م.ع.د.ن)، بيروت، 1975، ص361.

[212] عبد العزيز الدوري، مرجع سابق، ص172.

هكذا يقترح الكواكبي صيغة تتلاءم مع معطيات الواقع المحلي، ومع قوانين التاريخ الإسلامي. صيغة ليست هي بصيغة الدولة القومية الأوربية التي تنطلق من العرق أو الجغرافيا السوق المشتركة أو الثقافة، بل هي صيغة واسعة تهدف إلى استيعاب مجموعة من الأقوام في إطار العلاقات المتوازنة التي تراعي مصالح الأقوام وخصائصها الذاتية، وسلطاتها المحلية، دون أن تهمل القاسم المشترك الذي دخل في صلب ثقافتها وتمثلاتها القومية[213].

5 – رشيد رضا: (1865م، 1935م).

كانت الفكرة العربية عند رشيد رضا تالية في كل مواقفه للفكرة الإسلامية، فكرة العودة إلى الإسلام الأول أكدت بالضرورة الإحياء العرفي عنده.

ارتكزت دعوة رشيد رضا على محاربة استبداد السلطان، فهو يريد أن ينفّذ الإصلاح من قبل السلطان كخليفة وفق منشورة مجلس علماء، وأسس جمعية "الشورى العثمانية" سنة 1905م مع رفيق العظم لمحاربة الاستبداد، وإعادة الدستور[214]. فلما أعيد الدستور عام 1908م اعتبر يوم إعلانه عيدا لحكومة الشورى التي قررها الإسلام.

دعا رشيد رضا لإحياء اللغة العربية ونشرها لأنها لغة الدين، وإحياءها إحياء له. لأن نشر العربية سبيل لنشره وفهمه[215]. ثم أكد على أن الإحياء العربي هو السبيل لإعادة الإسلام،

---

[213] عبد الرحمن الكواكبي، مصدر سابق، ص47.

[214] عبد العزيز الدوري، مرجع سابق، ص166.

[215] عبد العزيز الدوري، مرجع نفسه، ص167.

فأعظم أمجاد الفتوح الإسلامية ترجع إلى العرب، والإسلام ارتفع وساد بهم[216].

أخذ رشيد رضا بفكرة الخلافة الدينية التي اقترحها الكواكبي، فهو يرى أن الرابطة الإسلامية والخطر الغربي منعا العرب من الانفصال. وبعد أن عدّد مساوئ الحكم العثماني للدول العربية، بيّن أن الاتحاديين بعصبيتهم التركية واضطهادهم للعرب، أحييوا العصبية العربية، فلم يبقى هناك عامل يمنع العرب من التحرك. وينتهي بعد هذا أن الإسلام يتفق والجنسية (القومية) العربية[217].

إن الخط الإسلامي العربي ابتداءً من الكواكبي، اتجه وجهة عربية قومية لا تضع أي تعارض في الأصل بين الإسلام والقومية العربية، وقد جمع هذا الاتجاه بين المفاهيم التراثية خاصة في تحديد مفهوم الأمة، واستيعاب المفاهيم الحديثة للوطنية[218]. وقد تجاوز هذا الاتجاه الطائفية بتأكيد المساواة بين العرب في إطار الوطن.

يؤكد هذا الاتجاه دور العرب في التاريخ وبالتالي يدعوا إلى نهضتهم، كما يتجه إلى اللاّمركزية دون الانفصال لمواجهة الخطر الغربي. وتتمثل نظرة أصحابه في دائرتين متعاضدتين، العربية وهي الرابطة المباشرة، والطبيعية والإسلامية (العثمانية) وهي الأوسع. وفي قوة الأولى قوة للثانية، كما أن الثانية حماية للأولى. ويؤكد البعض بالنظّر إلى الخطر

---

[216] يرى رشيد رضا أن إسلامه قرين عروبته، ويتحدث عن الأخوتين الدينية والجنسية. فهو أخ في الدين للمسلمين من عرب وغير عرب، وأخ في الجنس للعرب مسلمين وغير مسلمين. أنظر: عبد العزيز الدوري، مرجع سابق، ص167.

[217] عبد العزيز الدوري، مرجع نفسه، ص169.

[218] عبد العزيز الدوري، مرجع نفسه، ص186.

الغربي على الدائرة الثانية (الإسلامية) ويخشى أن تؤدي الرابطة الأولى (العربية) إلى تمزيقها، وبالتالي إلى سيطرة الغرب[219].

لقد كان لهذه المؤثرات الداخلية والخارجية دورا هاما في زيادة تطلع الشعوب العربية إلى واقع حضاري وفكري أكثر ايجابية. وقد كان هذا كله الإطار الكامن وراء ما تلا ذلك من تطورات سياسية في مجرى المد القومي في الأمة العربية.

[219] عبد العزيز الدوري، مرجع سابق، ص186.

الفصل الثالث

الفصل الثالث:

الوعي السياسي العربي في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين

أولا: ملامح التطور السياسي العربي

1 –الفكر العربي في عصر اليقظة و علاقته بفكرة القومية العربية

2 – التراث العربي اللاّمادي واسهاماته الفكرية

3 – الهجمة الغربية وتأثيراتها الفكرية على البلاد العربية

ثانيا: بدايات الحركة القومية العربية ومراحلها

1 – المرحلة الأولى: (النشاط الأدبي)

2 – المرحلة الثانية: (النشاط السياسي)

أ – المجال الأول (العمل العربي التركي)

ب – المجال الثاني (العربي الخالص)

لقد كان للنهضة العربية واليقظة التي ظهرت بمصر والشام والعراق، تأثير كبير على أوضاع العرب. فظهرت حركة كبيرة لإحياء أمجاد العرب الفكرية. كما كان للتوسع الغربي في هده الفترة تأثير واضح على اتجاه الفكر العربي، إذ كانت مصر ثم بلاد الشام من أبرز البلدان العربية تأثرا بذلك. وقامت جمعيات سياسية متعددة طالبة بالإصلاح ومقاومة المركزية العثمانية، ونجمت عن كل ذلك تطورات خطيرة في المنطقة العربية، ازدادت حدتها منذ وإلى غاية الحرب العالمية الأولى.

أولا: ملامح التطور السياسي العربي

1 –الفكر العربي في عصر اليقظة و علاقته بفكرة القومية العربية

إن فشل محمد علي في التخلص من السيطرة العثمانية، قضى على إمكانية قيام دولة عربية، لكنه لم يقض على التيار الذي بدأ بالتشكيك في صلاحية الأوضاع السائدة، والذي دعا إلى ضرورة القيام بإصلاحات وتغييرات. هذا الوضع الجديد نشأ من جرّاء ثلاثة ظواهر أساسية والتي هي:

1) الاتصالات مع الغرب المتقدم التي بدأت مع الغزو النابليوني لمصر عام 1798[220]، وقد ازدادت قوة فيما بعد عن طريق البعثات العلمية نحو أوربا. فتأثر العرب بالأفكار الغربية الجديدة (القومية، الليبيرالية، إلخ).

[220] **يرفض بعض المفكرين القوميين العرب فكرة كون البعثة النابليونية لعبت دورا في النهضة العربية. أنظر: ساطع الحصري، أراء في التاريخ والاجتماع، القاهرة، 1992، ص ص 67، 78.**

2) إن التدخل السياسي والعسكري الأوربي في الوطن العربي (الغزو الفرنسي للجزائر 1830، تونس 1881، مراكش 1912، والتدخل البريطاني في المنطقة الخلفية في عدن 1838، واحتلال مصر 1882) قد خلق شعورا بالقلق والخوف اتجاه الغزاة الجدد، والذين يختلفون عن العرب في دينهم.

3) أمام هذه التطورات والمتغيرات، كانت السلطة العثمانية عاجزة عن مجابهة القوة الأوربية، كما أنها لم تكن قادرة على دفاع عن كرامة ووحدة وسلامة الوطن الإسلامي.

إن مثل هذه الحالة الحافلة بالأحداث وتحديات، كانت كفيلة لخلق سلسلة من الحركات السياسية الساعية إلى التغيير، كما برزت خلال هذه الفترة حركات تسعى إلى تحقيق شكل من أشكال الاستقلال (الوهابية، محمد علي، عرابي 1882، المهدي 1882...)، فضلا عن الحركة الفكرية التي زعزعت الإيمان بالقيم وأفكار السائدة آنذاك، كالأفغاني 1838 – 1897، محمد عبده 1849 – 1905، محمد رشيد رضا 1856 – 1935، الكواكبي 1849 – 1902، ونجيب عازوري المتوفي عام 1916.

إن ذكر هؤلاء المفكرين دون غيرهم، يرجع لكونهم لعبو دورا كبيرا في تطور الفكر القومي العربي. ففي اواخر العهد العثماني قد شهد "الإسلام العثماني" تدهورا كبيرا، إذ تحول إلى مذهب لاتفكيري ولاعقلاني[221]، يمجد الطابع الاستبدادي المطلق لسلطة العثمانية. وقد

[221] **ساطع الحصري، دراسات في القومية العربية والوحدة، (م.د.و.ع)، بيروت، ط2، 1992، ص133.**

تصدى المصلحون الإسلاميون لهذا النوع من الإسلام، إذ دعوا إلى إسلام يقوم على العقل، البحث والعلم والدستورية. مما أدّى ولأول مرة إلى تهيئة العقل العربي لقبول أفكار جديدة من أهمها القومية. كما مجد هؤلاء المصلحون الدور العربي في الحفاظ على الإسلام وقلّلوا من شأن الأتراك في ذلك. هذا الأسلوب مهد الطريق لقيام وعي قومي عربي[222]. غير أن السؤال الذي يطرح نفسه بإلحاح في هذا المجال: من كان السّباق للدعوة إلى فكر عربي؟ وهل دعت الاتجاهات الفكرية العربية في هذه الفترة إلى دولة عربية اسلامية، ام دولة قومية عربية؟

لقد ندد مصلحون اسلامين بعنف بالاستعمار الغربي وتغلغله في "الوطن الاسلامي"، فقد اثار ذلك حركة قومية "عربية" مناهضة للغرب اثرت بالدرجة الاولى على العراقيين والمصريين. هذا ما دفع بعض المفكرين القوميين للاعتراض على الافتراض السائد أن القومية العربية كانت نتيجة الاسهام الفكري المسيحي العربي فقط.

من غير الممكن انكار دور المسيحين العرب إلا أنه لابد من الاشارة إلى تيار فكري آخر برزت منه القومية العربية، وقد نشأت هذه الحركة من رحم اسلام "الاصلاحين". ويرى البعض أن هذه الخاصية من القومية العربية كانت أكثر تأثيرا على المفكرين العرب من القومية الخالصة التي دعا إليها الرواد المسيحيون.

إن التطرف لأفكار المصلحين يعد ضرورة تفترض نفسها، ويأتي في مقدمة هؤلاء جمال

---

[222] ساطع الحصري، دراسات في القومية العربية والوحدة، مرجع سابق، ص 133.

الدين الأفغاني. ذلك لأنه لم يكن فقط يسعى إلى انهاء التراجع والركود الشرقي والاسلامي، بل لأنه يعتبر المرشد الروحي والفكري لخلفائه. فقد تمكن الأفغاني من الجمع بين الجهود الفكرية والنشاط السياسي الفعال، فقد شارك في الحرب الأهلية في أفغانستان واضطر إلى مغادرة البلاد بعد انتصار منافسه "شير علي"، ثم عاش بعد ذلك حياة تعرض خلالها لاعتقال والابعاد عدة مرات♦، إذ هناك من يدّعى أنه اغتيل بأمر من عبد الحميد[223].

لقد بذل الأفغاني جهود كبيرة لمقاومة التدخل الأوربي في العالم الاسلامي، إذ كان يؤمن أن الحظر الاساسي على العالم الإسلامي يكمن في العدوان الأوربي. كما أنه كان يكنّ حقدا خاصا على الحكومة البريطانية والتي اعتبرها "عدوة المسلمين". وحسبه أنها عملت على إضعاف الدين الإسلامي تمهيدا لتحقيق نيّاتها الاستعمارية. هذه الأفكار جعلته يصطدم مع رفيق الدرب محمد عبده، إذ اتهمه "بالتشاؤم والانهزامية وتثبيط الهمم"، لأن هذا الأخير تردد في تأسيس حزب سياسي لمواصلة الكفاح ضد الاحتلال البريطاني بعد فشل مقاومة عرابي[224].

رغم هذا الموقف الصريح والعنيف للأفغاني اتجاه الحكومة البريطانية فإنه يعترف بقيمة الحضارة البريطانية، وقد اعتبر الانجليز من "أرقى الأمم"، تعرف معاني العدل وتعمل بها،

♦ أعتقل الأفغاني في فارس الهند أبعد من روسيا ومصر.

[223] محمود أبو ريه، جمال الدين الأفغاني، تاريخه ورسالته، تقديم ومراجعة عبد الرحمن الرافعي، مؤسسة نصار، القاهرة، 1958، ص ص99، 102.

[224] أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، القاهرة، 1949، ص 81.

ولكن في بلادها ومع الإنجليز أنفسهم[225]، وفي هذا الموقف تكمن أصالة الأفغاني كمصلح إسلامي.

لقد رسم الأفغاني من خلال كتاباته ومؤلفاته شكل الحكومة التي ينبغي أن تحكم العالم الإسلامي، فحسبه هي تلك التي يقودها المستبد والمستنير والعادل. لكن بعد تحليل دقيق لهذه الفكرة يتضح أنه هناك خلطا واضحا بين رغبة الأفغاني في قيام حاكم قوي يستطيع الدفاع عن الأقطار الإسلامية، وفكرته حول الحكم الاستبدادي الذي كان يكرهه أشد الكره. وقد اصطدم الأفغاني في هذا المجال مع الشاه الفارسي حيث قال له «...إن الفلاح الكادح والعامل في هذه المملكة أكثر فائدة منك ومن أمرائك...»[226]، كما تجادل مع السلطان عبد الحميد. وهذه كلها تعتبر دلائل قوية على آرائه "الديمقراطية"[227].

لقد أرجع الأفغاني تقدم الاوربي إلى غياب الحكم الفردي وأكد في هذا الصدد أنه عندما تأخذ أمة ما بالعلم والمعرفة فأول ما يجب أن تفعله هو التخلص من الحكم المطلق[228]. وبهذا تتجلى نظرة الأفغاني في كونه كان يريد قيام «...حاكم قوي وعادل... يحكم بالوسائل الدستورية...»[229].

---

[225] جمال الدين الأفغاني، الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني، تحقيق ودراسة محمد عمارة، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1968، ص464.

[226] محمد المخزومي، مصدر سابق، ص224.

[227] لم تكن آراء الأفغاني في الديمقراطية تتطابق بالضرورة مع النظام البرلماني الغربي، وكان ما يهمه حقا هو "الشورى الاسلامية". أنظر: جمال الدين الأفغاني، مصدر سابق، ص ص477، 479.

[228] جمال الدين الأفغاني، مصدر نفسه، ص ص477، 479.

[229] جمال الدين الأفغاني، مصدر نفسه، ص ص477، 479.

لقد كانت هذه الأفكار تشكل تهديدا حقيقيا للحكم العثماني، وحتى نلمس مدى تأثير أفكار الأفغاني، نشير إلى أن جميع تلامذته أصبحوا متحمسين لأفكاره.

من خلال دراسة مواقف الأفغاني وسلوكه نجد أنفسنا في تناقض واضح ألا وهو قبوله دعوة عبد الحميد وبقائه في الأستانة وكان «سجينا فعلي لديه»[230]، إلا أنه وجد ما يجمعه به وهو معارضته الصريحة للتدخل الأوربي في العالم الإسلامي. هذا الموقف والاتجاه تبناه أغلب المصلحون الذين قادوا الحركة الإصلاحية الجديدة في الوطن العربي، والتي كانت ثمرتها الرئيسية هي "القومية العربية". فمن جهة كانوا يناهضون الاساليب العثمانية في الحكم، ومن جهة أخرى كان خوف المصلحين من التغلغل الأجنبي يدفع إلى التمسك بالعثمانيين باعتبارهم أهون الشّرين. وقد ظل هؤلاء المصلحين في حيرة من هذا المأزق الفكري، إذ نذكر منهم رشيد رضا وعزيز علي المصري، وبعض المثقفين العراقيين أمثال الزهاوي، الرصافي، ياسين الهاشمي... إلخ.

هذا الغموض والتناقض في فكر الأفغاني دفع بعض المفكرين إلى القول انه كان يعمل من أجل دولة الإسلامية يحكمها خليفة واحد[231]. وهذا ما دفع "أَدَمْز Adams" إلى القول أنّ الأفغاني كان يهدف إلى توحيد كافة الأمم الإسلامية في ظل تاج واحد وخليفة واحد بغض النظر عن عرقه.

---

[230] ساطع الحصري، دراسات في القومية العربية والوحدة، مرجع سابق، ص136.

[231] ساطع الحصري، مرجع نفسه، ص137.

عند تناول هذه الفكرة بنظرة سطحية نجد أن الأفغاني كان مناوئا للقومية، وأن موقفه لم يكن يشجع الاتجاه القومي العربي. لكن بعد قراءة دقيقة لأفكاره واستنتاجاته يتبين أنه كان له موقف ايجابي ازاء القومية (الجنسية كما كانت تسمى آنذاك). هذا الموقف تجلى بتمجيد صريح للعرب، وقد شجع على ما يبدو الاتجاه القومي العربي.

لقد ذكر الأفغاني بنفسه أن هدفه ليس إقامة دولة إسلامية موحدة في ظل حاكم واحد لأن ذلك حسبه أمر عسير إذ قال «...لا ألتمس بقولي هذا أن يكون مالك الأمر في الجميع شخصا واحدا، فإن هذا ربما كان عسيرا...»[232]. وقد استمر الأفغاني مدافعا عن فكرته الإسلامية قائلا «...بأن المسلمين ليست لهم جنسية سوى دينهم...»[233]. وما يكمن الإشارة إليه أن هاتين الفكرتين ليستا متطابقتين – الجنسية، الدين – ذلك لأن القومية والدولة الموحدة ليستا بالضرورة متطابقتين.

لقد ركز الأفغاني كل تفكيره في الرابطة الدينة، غير أن هذا لا يعني أنه ألغى الرابطة القومية. فهو يقول في هذا الشأن «...إن كلا من الرابطة الدينية والجنسية مبدآن للحمية على الملك، ومنشآن للغيرة عليه...»[234]. وبعد 1884 أبدى الأفغاني أكثر إيجابية اتجاه مفهوم القومية، ويظهر ذلك في المقالة التي أصدرها والتي جاء فيها «...لا سعادة إلا

---

[232] جمال الدين الأفغاني، الوحدة الاسلامية، الوحدة والسيادة، صبيح، القاهرة، 1933، ص10. (هنا مجّد الأفغاني قادة العرب إلا أنه أدرج منهم بعض المسلمين من غير العرب).

[233] ساطع الحصري، دراسات في القومية العربية والوحدة، مرجع سابق، ص138.

[234] ساطع الحصري، مرجع نفسه، ص138.

بالجنسية، ولا جنسية إلا باللغة...»[235]. ويواصل ويقول «...إن الروابط التي تربط جماعات كبيرة من الناس اثنان: وحدة اللغة وحدة الدين، وحدة اللغة هي الأساس التي تقوم عليه الجنسية، واللغة أشد تباتا وأكثر دواما من الدين...»[236]. وهذا ما يؤكد على الأهمية التي علقها الأفغاني على القومية وعلى اللغة كعامل أساسي فيها.

وقد ذهب الأفغاني إلى أبعد من ذلك إذ طالب بأن تصبح اللغة العربية هي اللغة الرسمية والموحدة في جميع انحاء الإمبراطورية العثمانية، كان شديد الاستياء من معاملة الأتراك للعرب[237]. وقد دعا في هذا الصدد إلى تحقيق المساواة بين العرب والأتراك، ثم تطورت بعد ذلك مواقفه حين دعا إلى تعرّب الترك إذ قال «...لقد أهمل الأتراك أمرا عظيما... وهو اتخاذ اللسان العربي لسانا للدولة... ولو أن الدولة العثمانية سعت لتعريب الأتراك لكانت في أمنع قوة...»[238].

إن جميع الأفكار التي تطرقنا اليها لها شجعت فعلا على ظهور وعي قومي عربي، وقد عمل تلاميذ الأفغاني على بلورتها فيما بعد. غير أن ما يمكن استنتاجه من خلال تحليل بسيط لآراء رواد الحركة الإصلاحية لاسيما الأفغاني في الفكر القومي العربي، أن الإسلام ظل لصيقا بالقومية خاصة في المراحل الأولى. لكن هل كان بإمكان الإسلام تحقيق الوحدة

---

[235] ساطع الحصري، دراسات في القومية العربية والوحدة، مرجع سابق، ص139.

[236] ساطع الحصري، ماهي القومية؟، أبحاث ودراسات على ضوء الأحداث والنظريات، دار العلم للملايين، بيروت، 1959، ص ص225، 226.

[237] محمد بديع شريف، مرجع سابق، ص153.

[238] محمد بديع شريف، مرجع نفسه، ص153.

المنشودة التي تسعى القومية إلى تحقيقها؟

لقد وجد المصلحون الإسلاميون في بعض مظاهر الدين عقبة في طريق الوحدة المنشودة، إذ لم يترددوا في محاربة الطائفية[239]، كما أن الأفغاني عبر في مناسبات عديدة عن أمله في الوحدة بين اليهود والمسحيين والمسلمين، ويعتبر هذا النداء ثورة فكرية خدمت ظهور المفهوم القومي. وأكثر من ذلك ففي عام 1877 وأثناء إقامة الأفغاني بمصر أسس جمعية "مصر الفتاة" وكان من بين أعضائها أديب إسحاق، سليم النقاش ونيكولا توما، وكلهم مسيحيين. كما تعاون الأفغاني خلال إقامته في باريس مع يعقوب صنوع وهو يهودي مصري في إصدار "العروة الوثقى". [240] كما كان كل من رشيد رضا وشميل أعضاء في لجنة القيادية "لحزب اللامركزية العثماني".

لقد واصل محمد عبده وطوّر آراء أستاذه جمال الدين الأفغاني بحكم أنه كان معاصرا وزميلا له. والإشكالية التي ينبغي الارتكاز عليها بحكم الظروف التي أصبح يعيشها العالم الإسلامي والعربي في هذه الفترة وهي: ما موقف عبده من الإسلام والغرب، والعرب والعثمانيين؟

كان عبده يرى أن ضعف الرئيسي للإسلام يوجد في جموده وهو في الحقيقة غريب – الجمود – عن الإسلام الخالص، إذ أنه نتيجة الحكم الاستبدادي والذي لا يمكن أن يزول حتى ينزاح التناقض بين الإسلام والعلم. وفي هذا السبيل سعى عبده إلى إحداث إصلاح

---

[239] ساطع الحصري، دراسات في القومية العربية والوحدة، مرجع سابق، ص142.

[240] أحمد أمين، رواد الفكر الإنساني في الشرق الاسلامي، القاهرة، 1945، ص54.

جذري في الإسلام، وإحياء الإسلام "المفكر"[241]. كما سلك نفس طريق أستاذه حين دعا إلى إنهاء خلافات بين اليهودية والمسيحية والإسلام، إذ تعاون خلال إقامته في بيروت مع بعض رجال الدين وشكل جمعية لهذا الغرض[242].

لقد مجّد عبده العنصر العربي ودوره في خدمة الإسلام بطريقة غير مباشرة في مواقفه الأولى، كما حمّل العناصر المسلمة غير العربية مسؤولية جمود وانحلال الإسلام. ففي نظر عبده أن هؤلاء المسلمين غير العرب الذين كانوا يؤمنون شفاها لا قلبا كانوا العامل الأساسي في انحلال الحضارة الإسلامية. وقد طوّر هذه الفكرة فيما بعد رشيد رضا وعبد الرحمان الكواكبي، كل ذلك ساعد على ظهور الوعي القومي العربي.

إن هذا التمجيد لدور العرب في الحضارة الإسلامية وتيقن المصلحين بأثر العنصر الغير العربي في تدهورها لم يدفعهم إلى المطالبة بالاستقلال والتخلص من الحكم العثماني، بل حذّروا من مخاطر الانفصال عن العثمانيين. وفي هذا الشأن وجه محمد عبده تحذيرا إلى رشيد رضا من أنه «... إذا حاول العرب الانفصال عن العثمانيين فإن ذلك سيؤدي إلى التدخل الأوربي، وستكون من نتائجه إخضاع العرب والأتراك معا...»[243]. وكان عبده يؤمن بأن الحكم العثماني ورغم كل سلبياته لايزال يمثل الرمز الأخير لاستقلال "السياسي للأمة". إن الدارس للفكر الإصلاحي لدى هؤلاء المصلحون – الإسلاميون – يجد أنهم خلقوا مأزقا

---

[241] ساطع الحصري، دراسات في القومية العربية والوحدة، مرجع سابق، ص147.

[242] ساطع الحصري، مرجع نفسه، ص147.

[243] ساطع الحصري، مرجع نفسه، ص148.

صعبا لم يقدموا له أي حل، إذ نجدهم قد بشّرو بالثقافة الغربية وحذرو من الاستعمار الغربي، كما أنّهم مجدوا العرب وكشفوا عن استبدادية وجمود الحكم العثماني. ومع ذلك دعوا إلى المحافظة على الإمبراطورية العثمانية. هذا المأزق كان وراء حيرة عدة مفكرين كما كان السبب في عدم اتخاذ موقف معين.

لقد كان رشيد رضا نموذجا واضحا لهذه الحيرة الفكرية ومن تم السياسية، فقد صرح في سنة 1897«...إن مستقبلنا يعتمد على رفضنا للمبدأ الأوربي في القومية...»[244] وفي سنة 1900 نبّه من تجزّئ المسلمين إلى أجناس وأمم، وفي نفس السنة كتب مقالا بعنوان "العرب والأتراك" مجد فيه علنا الشخصية العربية والثقافة العربية، كما انتقد بشدة معاملة الأتراك للعرب[245]. أما في سنة 1904 يعود رضا عن فكره وينفي وجود خلافة عربية حيث يقول «...إننا نريد الاتحاد مع الأتراك لكن على أساس العدالة والمساواة...»[246].

من الواضح أن جميع المصلحين الإسلاميين مجدو العنصر العربي إلاّ أن عبد الرحمن الكواكبي اعتبر أول من طوّر هذا التمجيد واستخلص منه مضامين فكرية وحتى سياسية مهمة. فكيف تناول الكواكبي فكرة العلاقة بين العرب والأتراك، وما تأثير أفكاره في الفكر القومي العربي؟

---

[244] ساطع الحصري، دراسات في القومية العربية والوحدة، مرجع سابق، ص149.

[245] ساطع الحصري، مرجع نفسه، ص149.

[246] إنّ تطور الأحداث حطم تمنيات رضا، فقد كانت الإمبراطورية العثمانية أكثر تركية وأقل إسلامية. ولذلك أصبحت كتابات رضا فيما بعد تكتسب طابعا أكثر هجومية اتجاه الأتراك واتخذ اتجاها قوميا عربيا واضحا. ومنذ 1908 أعرب عن مخاوفه إزاء الميول القومية التركية "لتركيا الفتاة". أنظر: ساطع الحصري، مرجع نفسه، ص149.

وصل الكواكبي مصر عام 1798، إذ كان يحضر ويواظب على اجتماعات محمد عبده، كما نشأت بينه وبين رشيد رضا صداقة فكرية. وفي مصر ألف ونشر كتابيه "طبائع الاستبداد" و"أم القرى"[247].

ورغم الانتقادات التي وجهت إلى الكواكبي من طرف بعض الكتّاب على أن أفكاره لم تكن أصيلة بل كانت مستمدة من كتابات أخرى[248]، إلا أن أفكاره انتشرت في الوطن العربي باسمه الخاص واكتسبت فعلا قوة سياسية، لذلك فنحن لم نبالغ إذا قلنا بأن كتب الكواكبي اعتبرت «إنجيل الانبعاث العربي»[249].

لقد أرجع الكواكبي عوامل تدهور الإسلام إلى أسباب دينية، سياسية وإدارية، غير أن ذلك لم يكن جديدا في الفكر العربي في هذه الفترة فالجديد في فكر الكواكبي يكمن في هجومه العلني والمباشر على العثمانيين[250]. فقد دعا إلى ضرورة عودة السلطة من الأتراك إلى العرب لأن العرب عموما وعرب الجزيرة بوجه خاص، كانوا يتميزون بسجايا متميزة تجعلهم أكثر حماية للإسلام من الأتراك أو أي عرق إسلامي آخر. لذلك كان يرى أن الخليفة يجب أن يكون عربيا من قريش[251].

إن تركيز الكواكبي على المسلمين وعرب الجزيرة العربية بوجه خاص لم يكن يعني أبدا أنه

---

[247] ساطع الحصري، دراسات في القومية العربية والوحدة، مرجع سابق، ص151.

[248] ساطع الحصري، مرجع نفسه، ص151.

[249] توفيق علي برو، القومية العربية في القرن التاسع عشر، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1965، ص99.

[250] ساطع الحصري، مرجع سابق، ص152.

[251] ساطع الحصري، مرجع نفسه، ص152.

كان يستثني العرب غير المسلمين، إذ يعتبر الكواكبي أول من وجه نداءً إلى العرب غير المسلمين، وفيه دعاهم إلى وحدة وطنية تتجاوز الوحدة الدينية، وإلى ولاء قومي أكثر منه طائفي. وأهاب في هذا الصدد بالمسيحين العرب حيث قال «...دعونا نميز حياتنا الدنياوية، ودعوا الدين يحكم الآخرة فقط...دعونا نلتف حول عاشت الأمة العربية وعاش الوطن...»[252].

تأثرت الشعوب العربية والإسلامية بكتابات عبده الرحمن الكواكبي وأفكاره خاصة تلك التي كانت تشكل هجوما علنيا على العثمانيين، إلا أنه لم يكن قوميا خالصا. فقد دعا إلى خليفة عربي، كما كان تصوره مبنيا على قيام دولة إسلامية. أما عن تمجيده للعرب فقد جاء لأنهم كانوا كمسلمين أكثر أهلا من الأتراك للحفاظ عن الإسلام والدفاع عنه.

لقد كانت أفكار المصلحين الإسلامين مبنية على نزاعة قوية نحو القومية، إلا أن أيّاً منهم لم يدعو إلى دولة عربية مستقلة. وقد نشأت القومية الخالصة في أوساط المثقفين المسيحين، أبرزهم نجيب عازوري[253].

نجيب عازوري عربي نصراني ظهر نشاطه في السنوات الأخيرة من حكم عبد الحميد، بدأت حملته في باريس سنة 1904 حين أسس جمعية عرفت باسم "جامعة الوطن العربي " Ligue de la nation arabe. وكان هدفها الذي أعلنته هو تحرير الشام والعراق من السيطرة التركية[254].

---

[252] **ساطع الحصري، دراسات في القومية العربية والوحدة، مرجع سابق، ص152.**

[253] **ساطع الحصري، مرجع نفسه، ص153.**

[254] **جورج أنطونيوس، مصدر سابق، ص172.**

لقد أصدرت الجمعية نداءات عنيفة تدعو فيها العرب إلى الثورة، وفي السنة الموالية أصدر عازوري كتابا باللغة الفرنسية عنوانه "يقظة الامة العربية" Le réveil de la nation arabe. وفي هذا الكتاب دعا إلى تكوين دولة مستقلة دستورية منفصلة عن الإمبراطورية العثمانية تتألف من جميع الأقطار العربية في آسيا[255]، ولم يدرج عازوري مصر وشمالي افريقيا في دولته العربية المقترحة لأنهما «...ليستا عربيتين بكل معنى الكلمة...»[256].

بعد سنتين، استطاع عازوري أن يستميل بعض الكتاب الفرنسيين المشهرين ويكسب تعاونهم معه، فبدأ يصدر بالفرنسية مجلة شهرية بعنوان "الاستقلال العربي" L'indépendance arabe ظهر عددها الأول في أبريل 1907. وقد كان هدف المجلة أن ينشر المعرفة عن البلاد العربية وأن تثير الاهتمام بقضية تحريرها. إلا أنه أوقف إصدارها في سبتمبر 1908 وأعلن أن عمله من أجل القضية العربية قد انتهى بوصول الاتحاديين إلى الحكم.

لقد تميز عازوري عن سابقيه أنه دعا لاستقلال العربي، كما أنه دعا أيضا إلى وجود تعاون العرب مع إنجلترا وفرنسا لتحقيق أهدافهم[257].

---

[255] كان يتصور تحول الحجاز إلى إمبراطورية مستقلة لها حاكمها الخاص هو خليفة كلّ المسلمين، وينبغي على هذه الدولة أن تضمن المساواة في معاملة رعاياها المسلمين والمسيحيين على السواء. أنظر: ساطع الحصري، دراسات في القومية العربية والوحدة، مرجع سابق، ص153.

[256] ساطع الحصري، مرجع نفسه، ص153.

[257] يمكن تفسير هذه الفكرة بعملين، فخلال إقامته بباريس اتضح أنّ عازوري كان يتعاون مع شخص يدعى يوجين جونغ (موظف سابق في إدارة المستعمرات الفرنسية) وكان يدرك الفوائد التي ستجنيها فرنسا من خلال الحركة العربية. وتوجد حقيقة أخرى ذات مضمون سياسي أبعد وهي أن كون عازوري مسيحيا مارونيا قد يكون له أثر في جعله أكثر تقبلا للغرب والأفكار الغربية وأكثر عداء اتجاه الأتراك. أنظر: ساطع الحصري، دراسات في القومية العربية والوحدة، مرجع سابق، ص154.

يعتبر عازوري أول من نادى بالاستقلال العربي عن الدولة العثمانية رغم ذلك فإن تأثيره على الحركة القومية العربية كان ضئيلا، فلم تكن كتبه ومجلاته تقرأ إلا نادرا من قبل الافراد والمنظمات القومية[258] ومع ذلك فقد كان نجيب عازوري قطبا من أقطاب الحركة الفكرية المسيحية التي ساهمت بشكل فعال في إحياء الفكر العربي وظهور القومية العربية. إن الانعزال عن الشعب وانقطاع الصلة بالجماهير كانت السّمة المميزة للقوميين العرب والعامل الأساسي لضعفهم في أواخر القرن التاسع عشر، إذ كان بعضهم يعيش خارج البلاد، واقتصر نشاطهم على الدعاية للأفكار القومية. إلا أنه رغم جميع عيوبهم كانت نشاطاتهم توطئة ليقظة العرب القومية، وكانت عاملا من العوامل التي تسببت في صعود الحركة القومية العربية في الأقطار العربية في عهد يقظة آسيا.

2 – التراث العربي اللاّمادي واسهاماته الفكرية

لقد شكل الاهتمام باللغة اهم مظهر من مظاهر تطور العرب الفكري والسياسي في العصر الحديث وذلك باعتبارها ركيزة أساسية لإنبات ذات عربية. فقد ارتبطت اللغة منذ أن توحدت حروف نطقتها بتفكير الإنسان فأصبحت وسيلته التعبيرية وأداته في استكمال لوازم الحياة، وصوته الذي يعبر من خلال عن ذاته ووجدانه وإحساسه، وبذلك أصبحت خصوصية الناطقين بها موحدة مشاربهم جامعة مواطن اهتمامهم، تهزهم عباراتها وتمتلك مشاعرهم قصصها وأخبارها ويبلغون الغاية التي عاشت في وجدانهم.

---

[258] **مصطفى الشهابي، القومية العربية، مصدر سابق، ص57.**

لهذا كان تعلق الأمم بلغاتها تعلقا روحيا تحملهم عليه صلة الانتماء وتشدهم به أسباب التواصل، فلاهتمام باللغة والانصراف لتحليل مفرداتها بشكل المرحلة الأولى التي يكمن من خلالها استيعاب الوجدان الصادق والتوجه الفكري والثقافي والواقع الاجتماعي والحضاري الذي أدركته الأمم في سياق تطورها[259]. فاللغة إذاً تمثل رمز الحياة ومعناها ودلالتها.

كثيرا ما تتعرض اللغة إلى نوع من التحدي والاحساس بوجود أشكالا دخيلة على الألفاظ وصورا من التراكيب، وتأثيرات قد تهدد كيانها وتعرض وجودها للضياع. ومن هنا حرص أبناء أمة العرب منذ القرن الأول والثاني الهجريين على بذل مجهودات جبارة لأخذها من الأعراب شفاها والرحيل إلى البادية بسماعها من أفواههم لا عند طريق القراءة من الكتب، وقد أعطى هذا الحرص هؤلاء الرواة دورهم الرائد في الحفاظ على ثروة الأمة ومنابعة تدوينها خشية الضياع وخوفا من اثار الزمن. وقد كان لهذا العمل أثرا واضحا في اغناء الحركة العلمية الواسعة التي مهّدت لازدهار الثقافة ووسعت دائرة البحث.

وعندما بدأت العوامل الضعف تدب في جسد الأمة وعناصر التّفتت تمزق وحدتها وتزيد من أطماع خصومها، كانت الحملة الصليبية بداية لتهديد الجناح العربي، إذ حاولت انتزاع أرض فلسطين واتخادها معبرا للسيطرة على باقي الأجزاء العربية. وفي الثلث الأول من قرن سابع تعرض الجزء الشرقي من العالم العربي لتهديد أخر من قبل التّتار الذين أطاحوا

[259] **نوري حمودي القيسي، تطور الفكر القومي العربي، (م. د. و. ع)، ط2، بيروت، 1986، ص75.**

بحضارة بغداد بعد أن دام الصراع لاقتحامها ربع قرن تقريبا[260].

لقد أثارت هذه الأحداث في نفوس العرب نزعة الحفاظ ثانية على تراث الأمة وكان على وشك الضياع، ودفعتهم على أن يهيئوا أنفسهم لإعادة جمعه وتنسيق أفكاره وتوحيد أجزائه•. وقد تكدس التراث الأدبي طبقة بعد طبقة وتعاقب العلماء جيلا بعد جيلا، واتسعت الذاكرة العربية لتضم علوما مختلفة وفنونا متنوعة، وبقيت في أذهان علمائها صور تلك العصور وهي تفيض فكراً خلاّقا وثقافة مبدعة وصوتا انسانيا يحمل قيم الخير ويسعى لبناء المجتمع الإنساني. كما قام علماء هذا العصر بالجمع بين الأشياء ومحاولة التأليف بينها رغم تباعدها، وقد واصلو في عملية الجمع من ثمار القرون الماضية إلى حين تمكنوا من وضعها في موسوعات شاملة وكتب جامعة ومعاجم لغوية مختلفة شملت كل العلوم. فكانت النتيجة اشراقة للتراث الذي قدمته الأمة عبر قرون السالفة والجهد المحمود الذي أنتجه العقل العربي المبدع، وكانت نقطة انطلاقهم في ذلك إيمانهم بأهمية التراث الذي خلّفته الأجيال مستمدين من روحه ما يساعدهم على توحيد فصوله والحفاظ عليه من ريح الضياع التي كادت أن تعصف به في فترة ما. وبذلك استطاعت اللغة أن تنقل إلى الأجيال عبر التاريخ ميراث ثقافيا حيا تتحرك فيه قدرة الانسان باستمرار ويحفظ الهوية الثقافية المتميزة على الدوام، متجاوزة الانقطاع التاريخي الذي شهدته بعض الفترات، وبذلك استطاعت أداء مهمتها في

---

[260] نوري حمودي القيسي، مرجع سابق، ص77.

• هذا التراث امتد ليغطي فترة ثمانية قرون بما فيها فترة العصر الجاهلي.

تحقيق التواصل في أوساط الدارسين والباحثين رغم اختلاف اتجاهاتهم وتعدد أهدافهم، لكن ترسخ لديهم أنهم يتعاملون في إطار أمة موحدة ويناضلون من أجل تطوير فكر موحد، كذلك يحملون عادات وقيم ومفاهيم ووجهات نظر يربطها تاريخ القديم. فإذا كان دور اللغة في توحيد الثقافة قد سلك هذا المسار على امتداد التاريخ الثقافي والحضاري للأمة، فإنه هناك عناصر أخرى[261] ساهمت بقدر كبير في ترسيخ المفهوم الحي لواقع هذا الامتداد التاريخي الذي ضل موضع اعتزاز وصبغ آمال الأجيال في قراءة الماضي واستيعابه.

إلى جانب علماء اللغة والمفكرين تمكن الشاعر العربي أن يواصل عبء حمل إيصال التراث العربي من خلال المحتويات الشعرية الحية، وقد حرص بعناية فائقة على استخدام المعاني ذات النّبرات الصادقة في إيصال الحس الشعري والإهابة بتلك القيم والتقاليد والعادات التي أصبحت جزءا لا يتجزأ من حياته. وهنا تجدر الإشارة إلى أن شعر الحماسة كان لونا من ألوان الفن الشعري الذي تغنى به الشعراء وسرّبوا من خلال أبياته إحساسهم الوجداني، وأحيوا الأمجاد التاريخية الحية والأيام المأثورة التي كانت تضيء الأفق البطولي للعرب. وأهم ما يلاحظ هذه في هذه الأشعار أنه روعي فيها الجانب الأخلاقي والتوجيهي والتربوي، كما أنها احتوت على معاني الشجاعة والتضحية والوفاء والصدق والكرم والدفاع

[261] فإلى جانب المعاجم الكبرى التي قدمتها العصور التاريخية (العين للخليل ابن أحمد، وتاج العروس للزبيدي) ظهرت أسفار تاريخ وتراجم الرجال وحتى الاشعار الحماسية، وكلها عملت على ترسيخ التاريخ الثقافي للأمة. أنظر: نوري حمودي القيسي، مرجع سابق، ص ص81، 82.

عن الأرض والاستجابة لطالب النجدة وترسيخ الخصال الحميدة♦. وقد أصبحت هذه القيم جزءا من بناء الشخصية العربية في العصر اختلط فيه العرب بغيرهم، ورانت على الوجوه علامات العجمة وتفشت على الألسنة رطانة الدخيل[262].

بهذه السيرورة التاريخية لإحياء والحفاظ على التراث العربي أصبح الاستلهام التاريخي للحضارة العربية مبعث اعتزاز لأجيالها المستقبلية، وموضع اهتمام يجدد الثقة في نفوس هذه الأجيال لأن تستمد من أصالة عراقة الأمة وإنجازاتها ما يؤهلها لأن تكون بمثابة الامتداد التاريخي والحضاري لأولئك العلماء والمفكرين، وحتى يجد أبناء هذه الأجيال في كل صفحة من صفحات هذا التراث انجازا فكريا رائدا، ومبدأ إنسانيا كريما. كما أنهم يجدون بعض الأمم التي لم تجد لنفسها تراث ولم يكتب لها أن ترث أمجادا تحول الخرافة إلى مجد والأسطورة إلى تراث لتؤكد وحدتها القومية، وتمنح أجيالها عنصر التواصل وتبعث فيهم ربع الإحساس بالتماسك[263].

فالعناية بالتراث كانت العامل المحرك لبدايات الفكر القومي في القرن التاسع عشر بعد أن شعر المفكرون العرب بأن تجارب الأمم أكدت أهمية التمسك بالتراث للحفاظ على شخصية الأمة والوفاء لخصائصها المميزة.

♦ في هذا الشأن نشير إلى النماذج الشعرية التي حملتها مطولة عمرو ابن كلثوم وعنترة وعامر بن الطفيل والنابغة وزهير والشعراء الآخرين الذين أغنوا هذا الجانب.

[262] نوري حمودي القيسي، مرجع سابق، ص82.

[263] نوري حمودي القيسي، مرجع نفسه، ص85.

لقد اعتادت الكثير من الدراسات ربط ظهور الشعور القومي بالقرن التاسع عشر أو الربع الأخير منه، وهي نظرة بعيدة عن الحقيقة التي تصاحب ظهور الحركات الفكرية[264]، فالإحساس القومي إحساس طبيعي يتمثل في المشاركة الوجدانية والتعبير الذاتي، وقد يعبر عنه بأشكال متفاوتة من حيث الأداء. فالدفاع عن الأرض صورة من صور الاحساس القومي والتفاخر بمجد الآباء لون من ألوان الاستذكار، كذلك التشبه بأبطال الأمة والاعتزاز بتاريخها والحفاظ على لغتها. هذه كلها روابط تشد المواطن إلى أبناء قومه وتدفعه إلى توثيق الصلة بهم والتعاطف معهم. هذه الصور قد تتوقف بين الحين وبين الأخر حين تعترض سبيلها عوامل الضغط – المؤثرات السلبية – لكن سرعان ما يتجدد الاحساس بصورة أكبر عند ما يجد الظرف المناسب فيكون أقوى تأثيرا.

إن هذه الحقائق تبين فعلا أن المثقفين العرب أخذوا يتحسسون منذ مطلع القرن التاسع عشر حقيقة الموقف وأنهم وجدوا القوة على الإفصاح عما كان مكنون في نفوس العرب من دعوة إلى الحرية والخروج عن المركزية، وأن فكرة الدولة العربية هي هدفا من أهداف الأساسية. وكانت انطلاقة هذا التفكير نابعة من إحساسهم العرب ووعيهم بأنهم أبناء أمة عرفت بالماضي العريق وأنهم أيضا أبناء أمة قدمت للحضارات انجازات رائعة في مختلف الميادين. لذلك فقد حان الوقت لتجميع كل القوى وتوحيد كل الصفوف للمطالبة برد حقوق العرب المسلوبة. وإذا كانت غاية – الجمعية العلمية السورية – التي تأسست عام 1857 تواصلا

---

[264] نوري حمودي القيسي، مرجع سابق، ص85.

للنهضة الثقافية وإحياءً للتراث العربي، فإن الظرف أصبح مناسبا بإظهار الشعور القومي، فكانت قصائد اليازجي –تنبهوا واستفيقوا أيها العرب– اعلانا بموعد الانطلاق وإيذانا بأن أبناء الأمة أصبحوا قادرين على امتلاك إرادتهم، ومهيّئين للوقوف في وجه الظلم والاستعمار، بعد أن ظل هذا الشعور دفينا لمدة طويلة ويترقب الفرصة المناسبة للظهور. ثم توالت بعد ذلك الجمعيات التي استطاعت بشجاعة ويقظة شبانها أن تتطور وتنادي بمجموعة من الأهداف التي كان مصدرها التفكير القومي. وبعد بضع سنين من نهضة مصر على عهد محمد علي[265] ظهرت فكرة تعريب واسعة كان روادها علماء كبار أمثال رفاعة الطهطاوي، محمد الشافعي ومحمود الفلكي وغيرهم، وقد كان سبيل هؤلاء في ضبط المصطلحات العربية الكتب العلمية القديمة. وحرصا على مبدأ الاستمرار والتواصل نشير إلى دور الشيخ طاهر الجزائري الذي أصبحت حلقاته تجمعا فكريا وثقافيا، وإذ كانت تتدارس فيها تاريخ العرب وتراثهم العلمي ولغتهم وأدبهم، وهي مواضيع يحركها الإيمان بدور العرب التاريخي•. وقد كانت هذه الحلقات وغيرها بدايات لنشر الفكر القومي في شكل جمعيات سرية أو جمعيات قومية عربية.

هذه كلها شواهد حية تبرز بوضوح أن هناك تأثيرا متبادلا بين الوعي القومي واحياء التراث.

---

[265] هذا يبطل ما ذهب إليه البعض أن مدافع نابليون كانت بداية ليقظة العرب. أنظر نوري حمودي القيسي، مرجع سابق، ص86.

• تجدر الاشارة على أن حلقة الشيخ طاهر الجزائري أثارت حماسة الشباب للمشاركة في حلقات سياسية سرية لتوعية الجمهور وترسيخ فكرة استقلال الأقطار العربية، فكان من ثمار ذلك بروز حلقة دمشق الصغيرة التي أدارها محب الدين الخطيب.

فكلما بعث تراث من جديد وأعيد تقويمه ونشره كلما كانت وطأ ته وفعلته شديدة في نفوس أبناء الأمة، وبالتالي إحياء الوعي القومي وتطوره خاصة بعد اجتياز تلك النكسات التي قد تعترض طريقه بين الحين والآخر.

3 – الهجمة الغربية وتأثيراتها الفكرية على البلاد العربية

منذ النصف الأول في القرن التاسع عشر أخذت الأفكار الغربية وخاصة آراء الثورة الفرنسية كالحرية والمساواة والوطنية تتسرب إلى البلاد العثمانية، وقد وجدت هذه المفاهيم تعابير لها في التركية والعربية♦. وقد أفرز هذا الوضع مع مرور الزمن نخبة أصبحت على اطلاع واسع ببعض جوانب الثقافة الغربية والفكر الليبرالي، إذ حمل هؤلاء على عاتقهم دور التحديث الذي مسّ في البداية المجال القانوني والتعليمي•. ومنذ سبعينيات القرن التاسع عشر أخذت المسألة تتجاوز تحديث المنظومة القانونية والعلمية والعسكرية إلى التّطرق للجانب السياسي خاصة فيما يتعلق بتحديد السلطة المطلقة للسلطان – الحكم الدستوري –

♦ لقد لعبت البعثات الطلابية والمدارس العسكرية والتعامل التجاري دورا فعالا لترويج هذه الأفكار في مختلف الولايات العثمانية خاصة مصر.

• نتيجة التأثر بالفكر الليبرالي أصبح المتنورون يرون في حرمة النفس والمال والتطبيق العادل للقوانين إحدى أسس الحرية، غير أن تطبيقها أصبح لا يخرج عن نطاق الشرع الإسلامي.

. وقد تزعم هذا الاتجاه بعض المفكرين الأتراك مثل ضيا باشا ونامق كمال[266]. وامتد هذا التيار ليشمل بعض الدول العربية كمصر أولا ثم بلاد الشام في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

في ظل هذا الحراك الفكري الجديد برزت فكرة الوطنية واشتراك أبناء الوطن بروابط وحقوق وواجبات مشتركة، غير أن هذا السؤال الذي يتبادر إلى الذهن في هذا الشأن يتمثل في: هل سبق للفكر العربي أن تناول تعبير الوطنية أم أن انبهار العرب وتأثرهم بالحضارة الغربية جعلهم يقبلون كل ما هو مصدره غربي؟

لقد عاد المفكرون العرب خلال هذه الفترة إلى التراث ووجدوا جذور أدبية لفكرة الوطن والوطنية، غير أن الجديد الذي مميز الفكرة في هذه الفترة أنها أعطيت مدلولا سياسيا نتيجة تأثيرات الأفكار الغربية واستجابة لأوضاع داخلية من أبرزها محاولة تجاوز الخلافات الطائفية التي كانت تنتهي في الغالب بمذابح بشعة كالتي حدثت في لبنان سنة 1860.

لقد وجدت هذه الفكرة (الوطنية) من يرعاها ويدعو إليها في الولايات العربية خاصة في مصر كالطهطاوي الذي تناول رابطة الوطن وأشار إلى أنه "حب الوطن من الإيمان". وقد

---

[266] تجدر الإشارة إلى أنه أول محاولة عثمانية للعمل المنظم كانت في جوان 1865 حين أسس ستة أعضاء من بينهم نامق كمال جمعية سرية توسعت فيما بعد وأطلق عليها اسم "العثمانيين الشبان" عام 1867، وأصدروا جريدة الحرية عام 1868. وفي أول عدد جعلوا أساس برنامجهم "حب الوطن من الإيمان" و"شاورهم في الأمر". وقد استمروا في نشاطهم بين الأستانة وباريس حتى حُل أول مجلس المبعوثان عام 1877 لينتهي عملهم في الأستانة ويبدأ في الخارج باسم "تركيا الفتاة" وليفضي إلى "الاتحاد والترقي". ربما تأثر بعض العرب بهذه الأفكار عن طريق الأتراك ولكن التأثير الأوضح جاء عن الصلة المباشرة بالفكر الغربي. أنظر: عبد العزيز الدوري، مرجع سابق، ص143.

نظم في هذا الصدد منظومة وطنية ضمنها أفكاره[267]. وقد نالت فكرة الوطنية جانبا هاما من كتاباته واستطاع بعمق فكره أن يحدد الأسس التي تقوم عليها الوطنية فقال «...أن لسانهم واحد، وأنهم تحت حكم واحد، وينقدون لشريعة واحدة... وسياسة واحدة...»[268]. وهذا ما يؤكد الصلة الوثيقة الموجودة بين هذا المفهوم (الوطنية) ومفهوم الدولة القومية Etat nation. غير أن الملاحظ أن الطهطاوي عند حديثه عن الوطنية كان يشير إلى مصر، تلك الأرض التي ولد فيها ونشأ عليها.

لقد شاطر محمد عبده الطهطاوي في أفكاره عن الوطن والوطنية، فقد كان محمد عبده يرى في الوطن على أنه قاعدة الحياة السياسية، ويظهر ذلك حينما يعرف الوطن على أنه «...مكانك الذي تنسب إليه ويحفظ حقك فيه... وتأمن فيه على نفسك وأهلك ومالك...»[269]، وكانت مصر هي ذلك البلد أيضا الذي يقصده محمد عبده.

تعدت فكرة الوطن حدود مصر لتسود سوريا، فقد بشّر بطرس البستاني♦ بحب الوطن ودعا

---

[267] على النحو التالي تبدأ المنظومة:

هيا نتحالف يا إخوان
بأكيد العهد والإيمان
أن نبذل صدقا للأوطان
للحرب هلمّوا يا شجعان حب الأوطان من الإيمان.

يتردد البيت الأخير بعد كل رباعية. أنظر: عبد العزيز الدوري، مرجع سابق، ص143.

[268] عبد العزيز الدوري، مرجع نفسه، ص143.

[269] عبد العزيز الدوري، مرجع نفسه، ص145.

♦ ولد سنة 1819 في الذُبِيَّة بلبنان، وهو ماروني اتصل بالمرسلين الأمريكيين عام 1840 واعتنق مذهبهم. كان يتقن اللغات السريانية واللاتينية والعبرية واليونانية والإيطالية. واشتغل أستاذا في مدرسة عبية ثم مترجما في القنصلية الأمريكية ببيروت. له آثار قيّمة منها ترجمة التوراة إلى العربية، ودائرة المعارف، ومعجم محيط المحيط. توفي سنة 1883.

إلى المصالحة الوطنية والاتفاق بين مختلف الطوائف، وذكّر أبناء الوطن – سوريا – أنه يجمعهم وطن واحد ولغة واحدة، كما أنه أبرز فكرة ارتباط الجماعة الوطنية بالعربية لأن العربية كلغة وثقافة تعتبر قاعدة مشتركة لأبناء الوطن. غير أن بطرس البستاني كان على عكس من سبقوه فقد تمسك بالشرعية العثمانية ونادى بفكرة وطن سوري في نطاق الدولة العثمانية. وقد سلك أحمد فارس الشدياق (1804 – 1887)• نفس اتجاه البستاني عند تطرقه للوطن والوطنية. فالوطني حسبه هو من يجتهد في نفع وطنه ويشعر بما يشعر به مواطنيه، وقد تمسك الشدياق أيضا بالرابطة العثمانية رغم أنه كان مستاءً من استعلاء الأتراك على العرب، وأكد في نظرته على أن اللغة العربية والجنس عاملان أساسيان في تكوين الأمة♦. هكذا تبدو فكرة الوطن والوطنية في كتابات مجموعة من المفكرين العرب خاصة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر في مصر أولا ثم في بلاد الشام. وقد أصبحت قاعدة مشتركة لتجاوز الخلافات الداخلية وخاصة الطائفية. ومن هنا يتضح أثر الأفكار الغربية لاسيما أفكار الثورة الفرنسية على ما كتب عن الوطنية في مصر وبلاد الشام، وكان لذلك أهمية خاصة في بدايات الوعي في الاتجاه القومي حتى أصبح من الصعب أحيانا التميز أو الفصل بين المفهومين.

رغم أن مصر كانت المنبر الأول لفكرة الوطنية في البلاد العربية إلا أنها واصلت مشوارها

• هو ماروني أولا ومسلم أخيرا، أسلم في تونس وسمى نفسه الشدياق عام 1854. كان رئيس تحرير مجلة "الرائد" التونسي عام 1854 ثم ذهب إلى الأستانة وأنشأ جريدة "الجوائب" عام (1860 – 1884) وقد توفي عام 1887.

♦ وفي هذا إشارة واضحة إلى القومية العربية.

مع باقي الدول العربية في خدمة القضية العربية، بل كانت معقلا لرجالات العرب الأحرار الذين فروا من الاضطهاد الحميدي[270]. فحينما توجهت مصر إلى فتح أقاليم السودان في عهد الخديوي إسماعيل باشا[271] لاح لأولئك المثقفين المصريين المعنى القومي لهذا الفتح واعتبروه توحيدا لقطريين تجمع بينهما حضارة وعاطفة واحدة، وإدماجا لغصنين من أغصان شجرة واحدة، وهذا ما عبر عنه رفاعة الطهطاوي حين فسر سبب تقبل أهلها (السودان) لهذا الفتح حيث يقول «...إن أكثرهم قبائل عربية... وجميع أهلها ما عدا بعض الجبال لسانهم فصيح... وجلهم من نسل العرب المنتجِعة القبائل قديما...» [272]. ومن هنا يتضح أن أفكار الطهطاوي فيها نوع من التمييز بين القومية العربية وهي عنده اللغة والإثنية، والدولة العربية التي تضم في نطاقها البلدان التي تتمتع بالحضارة العربية، وبما أن هذه الدولة هي نفسها الدولة المصرية في عهده فكان واضحا لديه أن مصر ستكون قاعدة حركة توحيد البلدان العربية الأخرى وما السودان إلاّ أول تلك البلدان. ونجد قادة "الحزب الوطني" الذي تأسس في مصر سنة 1876 يتبنون فكرة رفاعة الطهطاوي إذ يقول سامي البارودي أحد أبرز أولئك القادة «...كنا نرمي منذ بداية حركتنا إلى قلب مصر إلى جمهورية مثل

---

[270] زاهية قدورة، تاريخ العرب الحديث، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1975، ص232.

[271] قيل أنّ إسماعيل باشا خديوي مصر كان يريد أن يكوّن إمبراطورية عربية تضم سوريا وجزءًا من شبه الجزيرة العربية. أنظر: أحمد عبد الرحيم مصطفى، علاقات مصر وتركيا في عهد الخديوي إسماعيل (1863 –1879)، سلسلة الكتب التاريخية، دار المعارف، الإسكندرية، 1967، ص19.

[272] الطهطاوي، الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي، تحقيق وجمع محمد عمارة، ج1، (م.ع.د.ن)، بيروت، 1973، ص452.

سويسرا، وعندئذ كانت تنضم إلينا سوريا ويليها الحجاز...»[273].

لقد بدأت الحركة الفكرية في مصر تسير مع نفس الحركة في سوريا في كل ما يتعلق بالتجديد الثقافي العربي وبعث الشعور بالقومية العربية والاعتزاز بها، وأصبح كل من الإقليمين يستجيب إلى الاتجاه الذي يسير في الإقليم الثاني[274]. غير أنه في عهد إسماعيل باشا ونتيجة سياسته الفاسدة أصبحت مصر في صراع مع النفوذ الأجنبي الذي هددّ استقلالها حتى خضعت للسيطرة البريطانية عام 1882، في وقت أخذت فيه حركة اليقظة القومية العربية تتحول إلى حركة سياسية واضحة، وبعدها أصبحت مصر أملها في التحرر يرتكز على أساس من الوطنية المصرية ونسيت مصر أو تناست الظروف الموجودة في بقية بلدان العالم العربي. فقد كان على المصريين أن يقاوموا البريطانيين لتحرير بلادهم، وكان على السوريين أن يثوروا على الأتراك ليصلوا إلى الهدف. وكان على المصريين أن يناشدوا الدولة العثمانية لمساعدتهم ضد البريطانيين في حين كان على قادة الحركة العربية طلب الدعم والحماية من الخارج، أي من تلك الدول الدستورية والديمقراطية في غرب أوربا. وهذا التباين الواضح بين الحركتين دفع بكل منها إلى الحذر من الأخر[275].

---

[273] أحمد عبد المعطي حجازي، رؤية حضارية طبقية لعروبة مصر، دار الآداب، بيروت، 1979، ص182.

[274] يحي جلال، العالم العربي الحديث –المدخل–، دار المعارف، 1985، ص227.

[275] من هنا يبدو واضحا أن الحركة العربية اتجهت في نموها مع الحركة العلمانية "الدين لله والوطن للجميع" في حين اشتد ارتباط الوطنيين في مصر بحركة الجامعة الإسلامية وبدار الخلافة. أنظر يحي جلال، مرجع نفسه، ص379. ويبدو أن هذا الاتجاه الذي سارت عليه مصر كان من أهم الأسباب التي دفعت بعض منظري الحركة القومية العربية يستبعدون ضم مصر للدولة العربية الموحدة ومن أبرزهم نجيب عازوري.

إن طبيعة الظروف التي كانت تعيشها البلاد العربية ورغبة المفكرين العرب في النهوض بمجتمعاتهم كان وراء إقدام هؤلاء على مسايرة تلك التحولات الفكرية التي كانت الأمم الغربية قد سبقتهم إليها. وبدا في المنطقة العربية حركة إصلاحية سياسية كانت القومية العربية إحدى ثمارها.

ثانيا: بدايات الحركة القومية العربية ومراحلها

بدأت الحركة القومية العربية على شكل بعث للأدب العربي، أخذت بذوره تنمو في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وكان هذا بداية الطريق للنهضة السياسية وانتشار الوعي القومي الذي جاء نتيجة لانتقال النهضة الأدبية إلى الميدان السياسي القومي.

وعند التطرق لظهور الحركة القومية العربية وتطورها لابد من الأخذ بعين الاعتبار عدة مسائل تتعلق بسير الحركة، وهي أنها كانت متأخرة في ظهورها عن بعض القوميات الأخرى، بطيئة في سيرها ونموها، وأنها كانت تغير أيديولوجياتها وأهدافها من مرحلة إلى أخرى حسب الظروف الذاتية والموضوعية المحيطة بها. كما أنه لابد من تأكيد ذلك الدور الذي لعبه المسيحيون العرب في هذه اليقظة، وكذلك النظر إلى العلاقة بينها وبين القومية التركية (الطورانية). ومن أهمّ ما يمكن ابرازه في هذا الشأن أنّ الحركة القومية العربية خلال هذه الفترة مرّت بمرحلتين أساسيتين

1 – المرحلة الأولى: (النشاط الأدبي)

لقد كان للمجالس الأدبية التي شاعت في عدة مدن عربية دور كبير في خلق روابط

فكرية مهمة عملت على الربط بين مثقفي ذلك العصر وتوجهها باتجاه إحياء مآثر الأدباء والشعراء العرب في القرون الوسطى بالتّرديد أو بالتقليد، وفي هذا الصدد فقد سجّلت تراجم الأدباء ومجموعاتهم الأدبية نماذج عديدة على ما كان يدور في تلك الاجتماعات الأسبوعية المنظمة من موضوعات ثقافية عامة ومناقشات فكرية. وفي منتصف القرن التاسع عشر أخذت هذه المجالس تشكل ما يشبه أن يكون جمعيات أدبية قومية الاتجاه ينشد فيها الشعر الذي يتغنى بأمجاد ومآثر العرب، ويدعى فيها إلى العمل على استعادة مجدهم، وتنتقد الأوضاع التي آلت إليها بلادهم بسبب تسلط الأجانب على مقدراتها[276]. فكان طبيعيا أن تتطور تلك المجالس إلى جمعيات معروفة الأعضاء ذات أهداف محددة تضم أولئك المثقفين الذين جمعتهم أحاسيس ومشاعر قومية واحدة.

رغم أن عددا مهما من الجمعيات قد أعلنت عن أهداف وغايات مختلفة مثل تشجيع الأدب والخطابة وتهذيب الناشئة وترويج الأخلاق الكريمة وإحياء الكتب القديمة وإلى غير ذلك، فإن الدراسة المدققة لأمثلة مختلفة من هذه الجمعيات قد أظهرت أن جلّها كان يخفي وراء أهدافه تلك أهدافا قومية عربية غير معلنة، وتعتمد على نشر الثقافة العربية والتسمك باللغة العربية والتربية القومية كوسائل للوصول إلى تلك الأهداف. بل كان لبعضها أجنحة عسكرية وتشكيلات سرية خاصة، وتكون بذلك قد خرجت من نطاق "الجمعية" إلى نطاق "الحزب"

[276] **نوري حمودي القيسي، مرجع سابق، (م.د.و.ع)، ط1، بيروت، 1986، ص112.**

وإن كان التعبير الشائع آنذاك لا يفرق بين المصطلحين[277].وخلال هذه الفترة ظهرت عدة جمعيات نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر (الجمعية السورية) في بيروت عام 1847 و(الجمعية العلمية السورية) التي أنشئت عام 1857 على غرار الجمعية السورية، واختلفت عنها بأنها. كانت تضم خليطا من المسلمين والمسحيين وظلت عاملة حتى عام 1868، وحصلت على اعتراف الدولة العثمانية الرسمي بها[278] و(جمعية شمس البر) عام 1869 و(جمعية زهرة الأدب) عام 1873 و(جمعية المقاصد الخيرية) عام 1880، و(جمعية زهرة الإحسان) عام 1880 و(الفنية العلمية) و(المجتمع العلمي الشرقي) عام 1882 و(جمعية الصناعة) عام 1882 و(جمعية إحياء التمثيل العربي) و(الجمعية الأدبية)، وظهرت في دمشق (رابطة المحبة) عام 1874 و(الجمعية التاريخية) و(الفنون الطبية) و(الجمعية الخيرية)[279].

ما تجدر الإشارة إليه أن معظم هذه الجمعيات كانت تحمل أسماء المدن التي يقيم فيها

---

[277] إن لفظة "جمعية" هي التي كانت تطلق على الأحزاب السياسية في أواخر العصر العثماني، وهذا اللفظ لا يفرق بين الجمعيات السياسية والجمعيات الثقافية والخيرية... إلخ. وتفسير ذلك أن هذه الأحزاب اتّسمت منذ إنشائها بقلة عدد أعضائها لأنها كانت تضم النخبة المثقفة فقط، وهي قلة قليلة في المجتمعات العثمانية آنذاك. وبذلك فإنها لا تختلف من حيث الشكل عن الجمعيات الأخرى غير السياسة. أما لفظة "حزب" فقد وردت في القرآن الكريم للدلالة على فريق متكامل العقيدة والقيادة، وهو ما لم يكن منطبقا على معظم التنظيمات السياسية في تلك المرحلة. ولذا فقد كان استخدامها أقل من اللفظة السابقة، ولم تطلق إلا على عدد محدود من تلك التنظيمات. ولكن هذا الوضع تغير عندما أخذت الجمعيات السياسية توسع من قواعدها الجماهيرية وتحدد مسارها السياسي والفكري، وعند ذلك أخذت لفظة "حزب" تسود في مجالات التنظيم السياسي. أنظر: نوري حمودي القيسي، مرجع سابق، ص113.

[278] محمد بديع شريف، مرجع سابق، ص80.

[279] علي شلق، الأدب العربي، دوافعه، آفاقه، مطبعة الأبجدية، بيروت، 1969، ص ص79، 89.

أعضائها كجمعية بيروت الإصلاحية، وجمعية أحرار حمص، وجمعية البصرة الإصلاحية، أو إلى البلد الذي كانت تنشط فيه كالجمعية السورية، أو كانت تشير إلى معاني أو أهداف إصلاحية عامة كالنادي الوطني العلمي وجمعية تهذيب الناشئة[280].

لقد عبرت كل جمعية من هذه الجمعيات وحسب إمكانياتها على ذلك الجو الذي كان سائدا في الأقاليم العربية، إلا أن أكثر الشواهد قوة في دراسة هذا الجو ما حملته "الجمعية العلمية السورية" على لسان إبراهيم اليازجي (1847 – 1906) والذي كان من أبرز أعضائها في عدة قصائد من أهمها :

دَعْ مَجْلِسَ العيدِ الأَوَانِسْ * وَهَوَى لَوَاحِظِهَا النَّوَاعِسْ

أَيّ النَّعِيمِ لِمَنْ يَبِيتُ * عَلَى بِسَاطِ الذُّلِّ جَالِسْ

وَلِمَنْ تَرَاهُ بَائِساً * أَبَداً لِذَيْلِ التُّرْكِ «بَائِسْ»

فَالتُّرْكُ قَوْمٌ لَا يَفُوزُ * لَدَيْهِمْ إِلَّا الْمُشَاكِسْ

أَوَلَسْتُمُ العَرَبُ الكِرَامُ * وَمَنْ هُمُ الشُّمُّ الْمَعَاطِسْ

وقصيدته الثانية :

تَنَبَّهُوا وَاسْتَفِيقُوا أَيُّهَا العَرَبُ * فقد طَمَى الخَطْبُ حَتَّى غَاصَتِ

---

[280] توجد بعض الجمعيات لم تعرف لها أسماء أصلا كالجمعية التي زاولت نشاطها سرا في بيروت، وتلك التي كشف عنها النقّاب في طرابلس الغرب في سبعينيات القرن التاسع عشر. ومثلما يسود غموض عن حقيقة هذه الجمعيات المحلية فهناك نقص فادح في المعلومات عن دورها في تطور الفكر القومي وإغنائه. أنظر: نوري حمودي القيسي، مرجع سابق، ص113.

فِيمَ التَّعَلُّلُ بِالآمَال تَخْدَعُكُم * الرُّكَبُ

كَمْ تُظْلَمُونَ وَلَسْتُمْ تَشْتَكُونَ وَكَمْ * وَأَنْتُمُ بَيْنَ رَاحَاتِ القَنَا سُلبُ

أَقْدَاركُم في عُيُونِ التُّرْكِ نَازِلَةٌ * تُسْتَغْضَبُونَ فَلا يَبْدُو لَكُمْ غَضَبُ

لا يَسْتَقِيم لَهُمْ عَهْدٌ إِذَا عَقَدُوا * وَحَقُّكُم بَيْنَ أَيْدِي التُّرْكِ مُغتَصَبُ

فَمَا لَكُم وَيْحَكُم أَصْبَحْتُمُ هَمَلاً * وَلا يَصِحَّ لَهُمْ وَعْدٌ إِذَا ضَرَبُوا

لا دَوْلَةٌ لَكُمُ يَشْتَدُّ أَزْرَكُمُ * وَوَجْهُ عِزِّكُمُ بِالْهَوْنِ مُنْتَقِبُ

بِهَا، وَلا نَاصِرٌ لِلْخَطِبِ

يُنْتَدَبُ[281]

وهذا سعيد شقير يصف عهد السلطان عبد الحميد الثاني فيقول :

عِشْنَا بِعَصْرٍ عَجِيبٌ أَنْ يُعَاشَ * لَوْ لَمْ نَعِش فِيهِ قُلْنَا أَنَّهُ كَذِب

بِهِ * وَكَمْ أُهِنَّا وَلَا ذَنْبَ وَلَا سَبَب

فَكَمْ ظُلِمْنَا لِأَنَّ الظُّلْمَ لَذَّ لَهُمْ * فَإِنَّمَا صَبْرُنَا فِيهَا هُوَ الْعَجَب.[282]

حَالٌ إِذَا لَمْ تَكُنْ فِي ذَاتِهَا عَجَبًا

فالقصيدة الثانية بدأت أبياتها بدعوة العرب إلى اليقظة والانتباه لما يحيط بهم من أخطار، وكان هذا أول استخدام لمصطلح "اليقظة" في تاريخ العرب الحديث، وتشير إلى عدم جدوى

[281] مصطفى الشهابي، القومية العربية، مصدر سابق، ص ص46، 47.

[282] زاخورا إلياس، السوريون في مصر، جزءان في مجلد واحد، المطبعة العربية، القاهرة، 1927، ص92.

التعلق بالآمال التي طالما راودت الأجيال السابقة حول إمكانية تحقيق ما تسعى إليه شعوبهم، كما تتهم الأتراك بأنهم السبب في ذلك•. وتؤكد القصيدة أن العرب هم أصحاب أرضهم، ومع ذلك فهم يخضعون لسيطرة الأجانب وهم عنده الأتراك. كما تذكر القصيدة العرب بماضيهم المجيد وما فيه من رفعة وبطولة، ومآل إليه أمرهم في عهد الترك من انعدام للهوية القومية. ويظهر الهدف السياسي للقصيدة عندما ينعى اليازجي على العرب عدم إيجادهم الدولة التي يشتد بها أزرهم، ويختم الشاعر قصيدته بدعوة صريحة إلى إعلان الثورة المسلحة في كل بقعة من البلاد دون تحديد لها[283].

ومن هنا تجدر الإشارة إلى ذلك الدور الذي لعبته المدارس لا سيما مدارس الإرساليات التبشير في إيجاد جماعة من أبناء العرب النّابهين الذين أخذوا فيما بعد ينشرون فكرة الوعي القومي، ومقاومة الاستبداد الحميدي والمطالبة باستقلال البلاد العربية عن الدولة العثمانية ومن أشهرها ناصف وابنه إبراهيم اليازجي وبطرس البستاني، كما كان لبعض الشخصيات العربية أمثال عبد الرحمن الكواكبي ونجيب عازوري دور كبير في إذكاء نار القومية العربية في نفوس العرب، يدعّم آرائهم بعض الشعراء في قصائدهم الحماسية التي تعدد مساوئ

• كان مفتي بغداد عبد الغني آل جميل قد سبق الإحساس بهذه المسألة ولكنه لم يجعلها من مسؤولية العثمانيين كما لمح إلى ذلك اليازجي، ومن المحتمل أن يكون وضع لبنان الطائفي هو الذي حمله على هذه الدعوة.

[283] إن فكرة الكفاح المسلح من أجل قيام دولة عربية تعيد مجد العرب الماضي لم تكن جديدة كما رأى معظم من أرّخ للحركة القومية العربية، وإنما سبقه إليها عبد الغني آل جميل في العراق عندما قاد انتفاضة واسعة في بغداد ضد واليها العثماني علي رضا باشا اللاّز عام 1832. إلا أن قصيدة اليازجي جاءت أكثر عنفا ووضوحا في القول. أنظر: نوري حمودي القيسي، مرجع سابق، ص ص110، 114.

الحكم العثماني وتحت العرب على النهوض والثورة[284]. وسرعان ما انتقلت حركة الوعي العربي إلى المجال السياسي، وقد تّم ذلك في مجالين.

2 – المرحلة الثانية: (النشاط السياسي)

لقد عملت المرحلة السابقة على تهيئة الأرضية لبروز وعي عربي سرعان ما أخذ ينحو مع نهاية القرن التاسع عشر منحى العمل السياسي، وقد تمّ ذلك وفق مجالين:

أ – المجال الأول (العمل العربي التركي)

أهم ما ميز هذا المجال هو اشتراك العرب مع الأحرار الأتراك في النضال من أجل التخلص من الاستبداد الحميدي، وإعادة الدستور إلى البلاد ونشر العدالة والحرية والمساواة، ذلك أن السلطان عبد الحميد تولى الحكم على أساس تطبيق مبدأ الشورى والالتزام بالدستور. غير أنه تنكر لذلك وفرض على البلاد حكما كان من «...أفظع عهود الظلم والقسوة والرشوة والاستبداد[285]. واتخذ عددا من الإجراءات لحماية نفسه وعرشه كما سبق وأن أشرنا، إذ فرض رقابة شديدة على الجرائد والصحافة، وخلق شبكة واسعة من الجاسوسية عملت على إثارة الفتن والفساد وجعلت «...الأفواه مكمومة والأقلام محطمة، وكان الناس يعيشون عيشة

---

[284] مثال على ذلك ما قاله نجيب الحداد حين حث العرب على التخلص من نير الحكم التركي:

آن الأوان لأن أخاطر بالدم * من لم يخاطر بالدم لم يسلم

أجزيرة العرب التي أحببتها * كم من أكف قد رمتك بأسهم

لعبت أكف الترك فيك فغادروا * في كل قطر فيك نهرا من دّم

أنظر: أمجد طرابلسي، محاضرات من شعر الحماسة والعروبة في بلاد الشام في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، العربية العالمية، نهضة مصر، القاهرة، 1957، ص137.

[285] مصطفى الشهابي، محاضرات في الاستعمار، مصدر سابق، ص25.

البهائم، وكل ما اسمه جمعية أو حرية كان شيئا مخيفا محرّما...»[286]. كما أولى اهتماما بالغا بالولايات العربية، فأشرف هو بنفسه على حكمها حكما مركزيا لكي يبقى محافظا على ارتباطها بالإمبراطورية. كما لجأ إلى استعمال الوسائل المتنوعة التي تجمع بين البراعة والشدة، إلى المكر والدّهاء مع محاولة الإرضاء، إذ لم تخل الرّيب والشبهات في كثير من الأحيان[287] لكي يفرض سيطرته على جميع عناصر الإمبراطورية.

في مثل هذه الحالة كان يستلزم بروز أشخاص متنورين يعملون على تخليص البلاد مما هي فيه، فقام في هذا الوقت جماعة من العثمانيين المحدثين بتأسيس جمعية "يكي عثما ينليلر" في الأستانة، كما استطاعت بعض الشخصيات العربية الهاربة من بطش السلطان عبد الحميد في أوربا أمثال خليل غانم ويوسف ضيا بك الخالدي والأمير أمين أرسلان أن تتفق مع الشخصيات التركية الفارة أمثال أحمد رضا وتؤلف جمعية مشتركة هي "تركيا الفتاة"، كما أنشأوا جريدة "مشورت" وكان نشاطهم ضمن الرابطة العثمانية وهدفهم الإصلاح. ولقد نشط المفكرون من كلا العنصرين – العربي والتركي – في إنشاء الجمعيات مثل "الجمعية الإصلاح التركية العربية" بزعامة أمين أرسلان♦ و"جمعية الشورى العثمانية" التي أسّسها محمد رفيق العظم ورشيد رضا في القاهرة عام 1897، وقد كانت لها فعالية كبيرة

---

[286] حكمت ياسين، مرجع سابق، ص44.

[287] M. Laissy, Du panarabisme à la ligue arabe, Paris, 1984, p49.

♦ أمين أرسلان: ولد بالشويفات بلبنان وتعلم ببيروت، هاجر إلى باريس حيث شارك في إصدار جريدتي "كشف النقاب" و"تركيا الفتاة" بالعربية والفرنسية، عين قنصلا عاما في بيونس آيرس بالأرجنتين وتوفي هناك. ألف عدة كتب باللغة العربية.

بحيث أقلقت السلطان عبد الحميد الذي اعترف بأنه لم ينم ثلاث ليال حتى عرف مؤسسيها فأطلق عليها اسم "الجمعية الفاسدة"[288]. كما أسّس البرنس صلاح الدين• "جمعية التشبث الشخصي وعدم المركزية واللامركزية".

رغم الاختلافات الفكرية والسياسية الموجودة بين مختلف الشخصيات السياسية إلا أنها كانت جميعها متفقة على هدف واحد، هو محاربة السلطان عبد الحميد الثاني والقضاء على حكمه، كما أن الهدف الذي سعت إليه الشخصيات العربية خلال هذه الفترة لم يكن قوميا استقلاليا، ولم تكن تفكر أبدا في الانفصال عن الإمبراطورية العثمانية، وإنما كانت نشاطاتها محصورة في إطار الرابطة العثمانية. هذه الأخيرة التي كانت أحد الأسباب الرئيسية في تأخر ظهور الوعي القومي العربي وبطء سير الحركة القومية العربية، غير أنه كان لها إيجابيات مهمة حيث أنها تمكنت من تنوير العرب وتهيئة الوعي لديهم بوجود ظلم واستبداد والأكثر من ذلك وجود جسم عربي مميّز.

ب – المجال الثاني (العربي الخالص)

إلى جانب هذا المجال المشترك نشط بعض المفكرين العرب في مجال عربي خاص، ففي سنة 1870 تساءل سليم البستاني «...هل يصطلح العرب؟ هل يرد الزمان إليهم الاتحاد؟ هل يقيم لهم الدهر عزا؟ هل يكلل تاج النجاح جباههم؟ هل يطلع في شرقهم بدر العلم؟

---

[288] توفيق علي برو، العرب والترك في العهد الدستوري العثماني، مطبعة دار الهنا، القاهرة، 1960، ص52.

• البرنس صلاح الدين: ابن الداماد محمود صهر السلطان عبد الحميد الثاني، هرب من والده إلى باريس وعقد أول مؤتمر للأحرار العثمانيين. كان متأثرا بالفلسفة الفرنسية، وكان قوميا عثمانيا.

...». وقد أجاب عن ذلك كل بقوله «...إن من تصفح صفحات التاريخ وأمعن النظر في تقلبات الزمان وتمكن من معرفة أحوال الشعوب والدول، ويبحث في أسباب ارتفاعها وهبوطها... وقاس ما يأتي على ما فات، يجيب قائلا: أنه لابد من أن يرجع بنا الزمان إلى الأفق الذي حجبته عنا غيوم السياسة، ودفعتنا عنه صواعق القوة والانشقاق...»[289]. كانت هذه أفكار لم يطرحها سليم البستاني وإنما أحسن التعبير عنها، إذ سرعان ما تحولت هذه الأفكار في أول برنامج سياسي محدد ترفعه جمعية عربية وهي "جمعية بيروت السرية" التي تأسست عام 1875 على يد خمسة شبان من الذين تخرجوا من الكلية (الكلية البروتستانتية)، إذ كان إبراهيم اليازجي أحد أعضائها. فقد نددت هذه الجمعية بالحكام الأتراك ودعت العرب إلى استعادة مجدها العريق، وعرضت بانتزاع السلطان العثماني – سليم الأول – للخلافة واصفة إياه بأنه اغتصاب لحق العرب. كما اتهمت الأتراك صراحة لمخالفتهم شريعة الإسلام[290]. وقد جاء في مطالب وأهداف الجمعية ما يلي :

1) منح سوريا الاستقلال متحدة مع جبل لبنان.
2) الاعتراف باللغة العربية لغة رسمية في البلاد.
3) رفع الرقابة التي تحد من حرية التعبير ونشر التعليم.
4) المطالبة باستخدام القوات المجندة داخل البلاد وحسب.

---

[289] عليّ المحافظة، مرجع سابق، ص129.

[290] إن برنامج الجمعية لم يعِد بتطبيق الشريعة على نحو أفضل، الأمر الذي يبعث إلى الظن أن الجمعية حاولت إثارة الشعور الديني الإسلامي في الدعوة إلى الفكرة القومية. لمزيد من التوضيح أنظر: نوري حمودي القيسي، مرجع سابق، ص114.

من الملاحظ أنه هناك تباين واضح حول طبيعة المطالب التي نادى بها إبراهيم اليازجي من خلال الجمعية العلمية السورية وجمعية بيروت السرية بعد ذلك، فقد نادى في الجمعية السورية بدولة تشد أزر العرب وتمثلهم، أما الجمعية فقد ركزت هدفها على دمج لبنان بسوريا. فما الذي حدث بين التاريخين؟

يرى بعض المؤرخين بأن هدف توحيد القطرين لم يظهر إلا بعد سنة 1860، أي بعد أن أدت فتنة ذلك العام –مذابح لبنان– إلى قيام نظام حكم مستقل ذاتيا في جبل لبنان تحت إشراف وضمانة الدول الأوربية، كما أن بعض المسؤولين البريطانيين يرون أن الجمعية كانت تعبر من رغبة السوريين على أن يكون وضعهم السياسي مماثلا لسكان جبل لبنان الذين يتمتعون بالاستقلال الذاتي[291].

ورغم ذلك الغموض الذي يكتنف طبيعة الدولة التي تنادي بها إلى أنها كانت نداءاتها أول صرخة استنفار أطلقتها الحركة العربية الوليدة، وكانت أول جمعية تؤلف والهدف السياسي غايتها[292]، كما كانت دوافع ظهورها روحية معنوية نابعة من صميم النفس المتألمة، وكانت بسبب صرامة الرقابة التي فرضها نظام عبد الحميد الثاني غاية في السرية، إذ كانت تلجأ لنشر آرائها إلى المنشورات والملصقات التي كانت تلصقها أثناء الليل على جدران المحلات القريبة من السفرات الأجنبية.

---

[291] نوري حمودي القيسي، مرجع سابق، ص115.

[292] حكمت ياسين، مرجع سابق، ص46.

لقد ظهرت هذه المناشير عام 1880 في عهد مدحت باشا وكتب عنها الكثير. فقد ظهر المنشور الأول في مطلع جوان 1880 وأزالته الشرطة بسرعة، وبعد أيام فقد ظهر منشور جديد، وفي 27 جوان ألصق منشوران أو ثلاثة في شوارع بيروت، وفي جويلية من نفس السنة ظهر منشور في دمشق[293] بعد عزل مدحت باشا[294]. غير أنه ثمة سؤال ينبغي طرحه ألا وهو: ما هي طبيعة مضامين هذه المنشورات والتي جعلت من الجمعية بهذه الدرجة من الخطورة على الدولة العثمانية ومن الأهمية في دفع وإنماء الوعي القومي العربي؟ للإجابة عن هذا السؤال لابد من التطرق للمناشير الثلاثة التي ظهرت حسب تسلسلها الزمن :

يدعو المنشور الأول إلى السّيف ويخاطب أبناء سوريا ويناشدهم للتحرك باسم النخوة العربية والحمية السورية، ويندد بالركود الذي أدى إلى عبودية الترك[295].

يخاطب المنشور الثاني أبناء سوريا ويبين أن لا أمل في الإصلاح من قبل الترك، وبعد أن يندد بفساد الترك وجهلهم يتساءل «...ألا يوجد بين عقلائنا وأبناء وطننا أناس يقدرون أن يتولوا أمورنا... وإنهاض وطننا، ونحن مليونان فقط من أبناء وطن

---

[293] عبد العزيز الدوري، مرجع سابق، ص156.

[294] كان من أسباب عزل مدحت باشا اتهام السلطات العثمانية إياه بنشر منشورات الجمعية سعيا منه لإنشاء مملكة في بلاد الشام يتوارثها أبناؤه من بعده كما فعل محمد علي في مصر. وهو نفس الاتهام الذي وجه في أثناء الحرب العالمية الأولى إلى الوالي العثماني جمال باشا. أنظر: نوري حمودي القيسي، مرجع سابق، ص115.

[295] يبدأ المنشور بالبيت: [بالسيف يضرب كل أمر ينزح * فاطلب به إن كنت ممّن يفلح]. أنظر: عبد العزيز الدوري، مرجع نفسه، ص157.

واحد...»[296]. ويقول أصحاب المنشور أنهم نذروا أنفسهم وأموالهم "فدية عن الوطن" ويتعهدون بإيقاظ الناس من رقدتهم مهما كلفهم ذلك.

أما المنشور الثالث فيخاطب أهل الوطن ويندد بظلم الأتراك، ويبين أن فئة منهم تحكمت في رقاب أهل الوطن واستعبدتهم. وفي نفس الوقت يذّكر أهل الوطن أنهّم كانوا في الماضي أصحاب الحل والعقد، ومنهم ظهر أولو العلم، وبهم امتدت الفتوحات. كما يلفت نظرهم إلى الطريقة التي يقاد بها رجالهم إلى الحرب عند الشدة ن وكيف تصرف أوقاتهم، وكان كل منشور ينتهي بخمسة أبيات من البائية التي مطلعها :

تَنَبَّهُوا وَاسْتَفِيقُوا أيُّهَا العَرَبُ * فقد طَمَى الخَطْبُ حَتَّى غَاصَتِ الرُّكَبُ

لقد عملت السلطة العثمانية جاهدة لمعرفة مصدر هذه المناشير، حتى أنّ تقارير القناصل الأوربيين التي تناولت محتواها لم يتبينوا مصدرها الحقيقي[297]، وهذا يدل على السرية التامة التي أحاطت بعمل هذه الجمعية، وذلك نتيجة الجو المليء بالخوف والحذر والاضطهاد الذي ساد البلاد العربية في عهد السلطان عبد الحميد، كما يبين في الوقت نفسه على تلك

---

[296] عبد العزيز الدوري، مرجع سابق، ص157.

[297] أشارت تقارير القناصل إلى صلة مدحت باشا بهذه التحركات وإلى أن الدور الأساسي كان لجمعية "المقاصد الخيرية" التي أنشأها هذا الأخير ورعاها ليعزز نشاط الجمعية الثوري. أنظر: زين نور الدين زين، نشوء القومية العربية مع دراسة تاريخية في العلاقات العربية – التركية، بيروت، دار النهار للنشر، 1968، ص ص62، 65. أما المنشور الثالث فقد نسب إلى جمعية حفظ حقوق الملّة العربية التي كان لها فروع في دمشق وبيروت وصيدا وطرابلس. أنظر: محمد عزة دروزة، نشأة الحركة العربية الحديثة: انبعاثها ومظاهرها وسيرها في زمن الدولة العثمانية إلى الحرب العالمية الأولى، بيروت، المكتبة العصرية، 1971، ص ص94، 97.

الاحترافية وتطور في الأداء الذي أصبح يميز سلوك المتنورين العرب خلال هذه الفترة.

إن هذا المنهج الذي سارت عليه الجمعية وطبيعة المطالب التي رفعتها من جهة، وزيادة تردي أوضاع البلاد العربية خاصة منذ العقد الأخير من القرن التاسع عشر من جهة أخرى، كلها عوامل شجعت على زيادة تنامي الحس القومي عند العرب. كما برز هناك ولأول مرة اتساعا أفقيا في عدد الجمعيات التي أصبحت مطالبها وأهدافها تتبلور من حين لأخر، وأصبحت الصورة القومية العربية هي السّمة البارزة فيها.

ففي سنة 1881 أنشئت جمعية سرية أخرى هي جمعية "حقوق الملّة العربية" ضمّت المثقفين العرب في بيروت ودمشق وطرابلس وصيدا، وتعتبر أول جمعية تحمل اسما قوميا لا محليا أو عاما مجردا. ويسجل ظهور هذه الجمعية استخدام مصطلح "الملّة العربية" كمرادف للأمة العربية وبديلا عن استخدام لفظة "العرب" مطلقا[298]، هذا ما يدل على نمو الإحساس بوجود "جماعة" أو "هيئة" عربية مميزة لها من الحقوق ما يدّعم الحفاظ عليها. وقد نشرت الجمعية بيانات موجهة إلى الأمة العربية (مسلمة ومسيحية) تدعوهم فيها إلى للاتحاد والمطالبة بالحقوق القومية. وقد كانت هذه الجمعية على عكس جمعيات أخرى تتميز باتساع أفقها القومي ونفي الصفة الإقليمية، كما لجأت هذه الأخيرة إلى توزيع المنشورات المخطوطة باليد

[298] **نوري حمودي القيسي، مرجع سابق، ص116.**

التي تحت العرب على اليقظة والتمرد على الاستبداد الحميدي[299]. وهكذا تشكلت الجمعيات السرية وبلغ من انتشارها أنه ما أن قارب القرن التاسع عشر على نهايته حتى كادت لا تخلو مدينة من مدن سوريا وحتى القرى في لبنان منها، وكان معظمها يتستر وراء التعليم والخطابة في نشر آرائه ومبادئه.

وفي عهد ولاية مدحت باشا (1878 – 1881) على سوريا ظهرت حلقة الشيخ طاهر الجزائري♦ التي كانت تضم صفوة المتعلمين والنبهاء العرب، إذ كانت تعتبر أكبر حلقة أدبية وثقافية. فكان يجتمع حوله عدد من شباب دمشق مثل الشيخ جمال الدين القاسمي والشيخ عبد الرّزاق البيطار والشيخ سليم البخاري[300]، كما التحق بها أيضا كل من رفيق العظم، محمد كرد علي، فارس الخوري، عبد الحميد الزهراوي، شكري العسلي، عبد الوهاب الإنجليزي، عبد الرحمن الشهبندر، سليم الجزائري ودرويش الطرابلسي[301]. وفي الفترة نفسها ظهرت حركة جديدة تدعو إلى إقامة خلافة عربية مقام الخلافة العثمانية تزعمها عبد الرحمن الكواكبي في كتابه "أم القرى" الذي صدر في مصر. فقد تناول الكواكبي مسألة الخلافة

---

[299] لقد جاء في أحد منشوراتها ما يلي «أين أنتم وأين هم، من منكم اليوم أمير، ومن منكم اليوم وزير، ومن فيكم اليوم مدير. بل كل واحد فيكم فقير، وكبيركم مثل صغيركم حقير، والمال والآمال في أيدي الترك؟ اتحدوا واستعدوا لنيل حريتكم من المعتدين». أنظر: محمد عزة دروزة، مصدر سابق، ص ص94، 95.

♦ الشيخ طاهر الجزائري: ولد بدمشق عام 1852، كان مولعا بالبحث عن المخطوطات واقتفائها، أنشأ دار الكتب الظاهرية في دمشق وساهم في إنشاء المكتبة الخالدية في القدس. كان من أعضاء المجمع العلمي العربي وله عدة مؤلفات في الدين واللغة. وكان يجيد اللغات العربية، الفارسية، العبرية والسريانية. وقد توفي عام 1920.

[300] مصطفى الشهابي، القومية العربية، مصدر سابق، ص48.

[301] مصطفى الشهابي، مصدر نفسه، ص ص50، 51.

وألقى بذور الشك في صحة اعتبار السلاطين العثمانيين خلفاء للمسلمين، وأوضح أنّ الكتب الفقهية الأساسية تذكر بين شروط الخلافة "النسب القرشي"، وحسبه فإن العرب أحق بالخلافة[302]، كما أنّ الكواكبي لم يتوان في دعوة العرب للثورة على الأتراك[303]. وبذلك اعتبر عبد الرحمن الكواكبي بدون شك أول من استطاع تغيير زعامة وقيادة القومية العربية من المسحيين إلى المسلمين[304].

لقد مهدت دعوة الكواكبي وحلقة الشيخ طاهر الجزائري الطريق لتشكيل الجمعيات والمنظمات السرية في مطلع القرن العشرين، ففي سنة 1903 كان محب الدين الخطيب قد دعا في مجلة "الزهراء" إلى تأسيس حلقة أطلق عليها اسم "حلقة دمشق الصغيرة" تمييزا لها عن حلقة الشيخ طاهر الجزائري الكبيرة[305]، وقد ضمت هذه الحلقة السرية طلاب السنة النهائية في المدرسة الحكومية الثانوية، وحددت الحلقة الجديدة هدفها في بعث التراث العربي وإيقاظ العرب من سباتهم، وجعل لغتهم اللغة الرسمية في بلادهم. وقد انتقل بعض أعضاء هذه الحلقة إلى بيروت واتصلوا بطلاب الكلية الأمريكية (البروتستانتية) وكلية الشيخ عباس الأزهري ومنهم عارف النكدي، عبد الغني العريسي، محمد المحمصاني والأمير عادل

---

[302] في هذا الصدد يقول الكواكبي «...العرب أنسب الأقوام لأن يكونوا مرجعا في الدين وقوة للمسلمين...». أنظر: عليّ المحافظة، مرجع سابق، ص133.

[303] كانت دعوته للثورة من خلال هذا النداء «يا قوم جعلكم الله من المهتدين... كان أجدادكم لا ينحنون إلا ركوعا لله، وأنتم تسجدون لتقبيل أرجل المنعّمين ولو بلقمة مغموسة بدم الإخوان...». أنظر: عليّ المحافظة، مرجع نفسه، ص133.

[304] يحي جلال، مرجع سابق، ص226.

[305] حكمت ياسين، مرجع سابق، ص47.

أرسلان.

وفي سنة 1905 انتقل بعض أعضائها إلى الأستانة واتصلوا هناك بالطلبة العرب[306] حيث أعلنوا عن تأسيس جمعية "النهضة العربية" سنة 1906 برئاسة محب الدين الخطيب وعارف الشهابي مع عبد الكريم الخليل وشكري الجندي لتكون دمشق مركزها الثابت[307].

لقد لعبت هذه الجمعية دورا كبيرا في نشر الوعي القومي العربي قبل إعلان الدستور عام 1908، إذ كانت أول جمعية قومية أنشئت في أوانها، فكل أعمالها كانت تصدر من عقيدة وطنية راسخة وخطط محكمة[308]. وخلال هذه الفترة أنشأ نجيب عازوري• عصبة الوطن العربي في باريس، إذ طالب من خلالها ضرورة تحرر العرب من الحكم التركي[309]، وعملت العصبة على نشر حوالي خمسين نداءً موجها إلى العرب تدعوهم فيها إلى الثورة على الأتراك. وفي سنة 1905 قام عازوري بنشر كتاب باللغة الفرنسية "يقظة الأمة العربية"، وفيه دعا إلى فصل الولايات العربية عن الدول العثمانية. كما طالب بتوحيد الكنائس الكاثوليكية

---

[306] عليّ المحافظة، مرجع سابق، ص134.

[307] مصطفى الشهابي، مصدر سابق، ص ص53، 54.

[308] مصطفى الشهابي، مصدر نفسه، ص55.

• نجيب عازوري: مسيحي سوري عاش في باريس، لعب دورا هاما في الدعوة إلى القومية العربية في أوربا. أسس "عصبة الوطن العربي" وجريدة "الاستقلال العربي"، وله كتاب "يقظة الأمة العربية" الذي طبع في باريس سنة 1906.

[309] من أهداف عصبة الوطن العربي حسب نجيب عازوري «فهي ترغب قبل كل شيء في فصل السلطة الزمنية عن السلطة الروحية من أجل صالح الإسلام ومصلحة الأمة العربية، وفي إقامة إمبراطورية عربية تمتد من دجلة والفرات إلى قناة السويس، ومن البحر المتوسط إلى عمان. أما شكل الحكم فهو سلطنة دستورية قائد على حرية المعتقد والمساواة بين جميع المواطنين أمام القانون...كما أنه من أهداف العصبة إنشاء دولة مستقلة استقلالا تاما، وتظم ولاية الحجاز مع المدينة المنورة وتمتد حتى العقبة شمالا». أنظر: جورج أنطونيوس، مصدر سابق، ص98.

تحت اسم "الكنيسة الكاثوليكية العربية". وبعد عامين من هذا التاريخ أصدر مجموعة من الكتّاب الفرنسيين مجلة شهرية باسم "استقلال العرب" "L'indépendance arabe" صدر العدد الأول منها في أبريل 1907، وقد كان الغرض منها التعريف بالبلاد العربية وإثارة اهتمام الناس بقضية تحريرها♦. غير أنّ عازوري كان تأثير أفكاره ضعيفا ولم ينجح في إثارة اهتمام العرب بهذا الموضوع، وقد يكون ذلك له علاقة بحالة الرقابة والجاسوسية التي سادت هذه الفترة والتي منعت منشوراته من الوصول إلى البلاد العربية.

لقد استمر عدد هذه الجمعيات العربية المحلية بالتزايد ونشاطها بالتنامي حتى بعد الانقلاب الدستوري في تركيا سنة 1908 وخلع السلطان عبد الحميد الثاني سنة 1909، ودليل هذا التطور والتواصل هو ظهور الجمعيات والأحزاب القومية العامة. والملاحظ أن بداية ظهور هذه الأخيرة – الجمعيات والأحزاب القومية العامة – لم ينه نشاط وعمل التنظيمات المحلية، وإنما تزامنت الحركتان وتعاونتا إلى حد الاندماج أحيانا لتحقيق هدف مركزي واحد المتمثل في تحقيق حكم ذاتي قومي للعرب ضمن إطار لامركزي عثماني•. ثم تحول بعضها خاصة

♦ في هذا الصدد نشير إلى أن عازوري لم يتوان في طلب المساعدة من الدول الأجنبية خاصة فرنسا لتحقيق الاستقلال، وهذا ما يثير الشك في نزاهة الحركة التي دعا إليها خاصة إذا علمنا أن جل أعماله كانت تصدر من عاصمة أوربية (باريس).

• لا بد من الإشارة بأن معنى "الاستقلال الذاتي" هنا ليس له علاقة باستقلال "الأمة العربية" وإنما هو استقلال كل ولاية بحدودها آنذاك في إدارة بعض أمورها المحلية. ومما يبدو من خلال البرامج التي تطرقنا إليها، أنه لم تكن هناك خطة خاصة تجمع بين الولايات العربية في الدولة والتي بفضلها يمكن التوصل إلى سياسة قومية مشتركة ولو ضمن إطار الدولة المركزية، وإنما الذي ظهر هو ذلك الاتجاه الذي يقوم على ربط كل ولاية بحكومة تلك الدولة. وهذا كله يدل على أن أغلب البرامج لم يفكر من خلالها في إقامة مملكة عربية أو حتى نظام عربي موحد ضمن الإطار العثماني العام.

أثناء الحرب العالمية الأولى إلى المطالبة بالانفصال النهائي عن جسم الدولة المركزية – العثمانية –، وأبرز ما يؤكد ذلك الاتجاه هي الدعوات التي نادت بها "لجنة الإصلاح" التي تأسست في بيروت منذ 1912[310].

ورغم خلو برامج الجمعيات وأدبيّاتها من أي تصور أو إيديولوجيا لقيام نظام عربي موحد ومميز ضمن الإطار العثماني تندمج فيه الولايات العربية ليعبر عن الشخصية العربية الواحدة، إلاّ أن أعضاء هذه الجمعيات حملوا على عاتقهم مهمة نشر مقالات في الصحف تناولت بالتحليل بعض القضايا الفكرية العربية الهامة، كقضية الفهم العربي المعاصر للمرحلة الجاهلية في حياة الأمة، وعلاقة العروبة بالحرية وكذا مقالات تناولت خصائص الأمة العربية وشخصيتها المستقلة، وغيرها من المقالات التي أسهمت كثيرا في تعميق الوعي القومي العربي[311].

[310] لم نتمكن من العثور على معلومات تشير إلى تطور أحدثته اللجنة أو إضافة شيء جديد للفكر القومي العربي آنذاك. كما أن اللجنة لم تقم بإصدار المنشورات والأعمال السياسية التي تؤكد هذا الاتجاه. أنظر: جورج انطونيوس، مصدر سابق، ص179.

[311] جاء في مقالة كتبها أحد القوميين الناشطين (لم يذكر اسمه) في جمعية "الحرية الائتلاف البغدادية" التي تأسست سنة 1911 «...إذا حللنا بعض آداب العرب في جاهليتهم وفي تاريخهم الجامع لمعتقداتهم وأخلاقهم... وانتهينا إلى مناقب الأبطال والعلماء، وانتقلنا إلى بواعث حروبهم المتواصلة... فإننا نجد من العناصر ما يجعلنا نعتقد بأن هذه الأمة لها نفسية تختلف عن نفسيات الأمم. فهي حليمة وهي طاغية في آن واحد... لا تقيم على الضّيم ولا تستكين ولا تخضع للسيطرة مهما كان نوعها ومصدرها...» أنظر: هليل الجابري، الحركة القومية العربية في العراق، بغداد، 1978، ص263.

الخاتمة

ظهرت بذور الحركة القومية العربية في بيروت ثم كانت في دمشق حركة أخرى امتدت أغصانها لتخطي جميع اراضي البلاد العربية المجاورة. ويتفق المؤرخون على أن المسيحيين كانوا هم رواد الوعي القومي العربي، وكان من الطبيعي أن يكون الأمر كذلك لاعتبارات متعددة لعل أهمها اختلاف نظرة الحكومة العثمانية للطائفتين المسلمة والمسيحية. فقد كان المسيحيون غير مرتبطين ارتباطا قلبيا بالدولة العثمانية، لأنهم كانوا يعانون من سوء معاملة الدولة العثمانية، فهم مجرد رعايا أو "أهل ذمة" يؤدون الجزية مقابل إعفائهم من الخدمة العسكرية التي كان يتحمل أعبائها المسلمون. وبهذا فقد كانوا محرومين من شرف الدفاع عن وطنهم، وكان هذا كافيا لإثارة الحقد والكراهية في نفوسهم، وتأييدهم لأي تيار مضاد للدولة العثمانية. فكانت فكرة القومية العربية التي تدعو إلى وحدة العرب على اختلاف مذاهبهم وأديانهم هي القطب المعادل للحركة الإسلامية التي تقوم على أساس الدين وتحرمهم من التمتع بحقوقهم الوطنية.

في ظل هذه الوضعية كان سهلا على المبشرين الأجانب الاتصال بالعرب في لبنان وسوريا، إذ كان لهم أثر فعال في إثارة الفكرة القومية في نفوسهم وحثهم على الانفصال عن الدولة العثمانية. وازداد توافد هذه الإرساليات إلى البلاد العربية خاصة وأنها كانت تلقى الدعم والتأييد من الدول الاوروبية التي لعبت على وتر القوميات لضرب العرب والأتراك بعضهم ببعض باعتبارهم أكبر الأمم المشكلة للدولة العثمانية، وخدمة لمصالحها الاستراتيجية في حوض البحر الابيض المتوسط.

لقد نشطت هذه الإرساليات خاصة البروتستانتية، في فتح المدارس والمعاهد العربية، وركزت في بداية نشاطها على إحياء اللغة العربية إلى درجة أن اللغة العربية عندما أهملتها الدولة العثمانية لم تجد إلا ملجأ واحدا هو الإرساليات التبشيرية المسيحية التي عملت على تخريج أوائل فحول اللغة العربية في العصر الحديث أمثال إبراهيم اليازجي، وبطرس البستاني، وفارس الشدياق، وجرجي زيدان، وصحافيين أمثال يعقوب صروف، فارس نمر، وسليم وبشارة تقلا، وكانوا جميعهم مسيحيين. وقد كان من نتائج ذلك أن عادت اللغة العربية بفضل جهودهم إلى سابق عهدها أداة طيّعة للفكر والمعرفة، وبفضل جهودهم أيضا أعيد اكتشاف تراث العرب الأدبي لدراستهم من جديد.

ويلاحظ على وجه العموم أن نمو الوعي القومي العربي في عهد عبد الحميد الثاني كان بطيئا لا يكاد يلحظ، وكان لهذا التأخر في الظهور والبطء في النمو أسباب عديدة يرجع بعضها إلى طبيعة حكم السلطان عبد الحميد الثاني، وبعضها الآخر بالعرب أنفسهم، وبعضها الآخر بفعل أطماع الدول الأجنبية.

لقد كان لنظام حكم عبد الحميد الثاني وصرامة الرقابة التي فرضها، وكثرة الجواسيس الذي كان يبثهم في أوساط الشعب أول هذه الأسباب، ثم أن فكرة الرابطة الإسلامية التي كان ينظر بها العرب إلى العثمانيين ساعدت على تأخر التفكير القومي العربي، ومما ساعد على هذا التأخر والبطء أيضا سياسة عبد الحميد العربية التي استعمل فيها لاستمالة العرب إليه أساليب الترغيب والترهيب، والإغراء والوعيد. ومنها عدم نضوج فكرة الطموح للاستقلال

الذاتي، وعدم توافق أفكار العرب أنفسهم.

ومن الواضح أن الحركة القومية العربية بدأت كغيرها من الحركات القومية الأخرى بالآداب والحركة الرومانتيكية بصفة خاصة، وتجسد ذلك في شكل إحياء اللغة العربية وآدابها القديمة، وبعث ذلك المجد الكبير من التراث العربي الفكري. لكن سرعان ما دخلت الحركة القومية العربية في طور العمل السياسي وظهرت إلى الوجود جمعيات سرية متعددة، تضمنت برامجها مساوئ الحكم العثماني ودعت بشكل غامض إلى قيام حكم ذاتي.

ومما يميز الحركة القومية العربية في هذا الدور أنها كانت تعمل من أجل الوفاق من الحركة القومية التركية، وتناضل معها ضد نظام حكم عبد الحميد الثاني الذي فرض حكمه المطلق على كامل أرجاء الإمبراطورية العثمانية ومنها الولايات العربية. ومن أجل ذلك حمل المفكرون العرب الأحرار عليه بنفس العنف الذي حمل به عليه الأتراك الأحرار الذين عملوا على تأسيس أحزاب وجمعيات تركية منذ أواخر القرن التاسع عشر خاصة "جمعية الاتحاد والترقي" سنة 1894.

لقد كان لهذه الجمعية أثرا في حركة " تركيا الفتاة " المعارضة لحكم عبد الحميد الثاني، إذ هدفت إلى منح الحريات العامة للسكان والرعايا في الإمبراطورية العثمانية على اختلاف جنسياتهم، ومللهم وأديانهم. وقد استمرت حركتهم في الامتداد والتطور حتى تمكنوا من إحداث انقلاب على السلطان العثماني في 23 جويلية 1908 وإجباره على إعادة العمل بالدستور.

قوبل الدستور الجديد بحماس شديد من جانب العرب، وتعزّز التوافق العربي التركي خلال فترة 1908–1909 والذي من مظاهره افتتاح العرب والأتراك (سكة حديد الحجاز)، كما أسس العرب في الأستانة مع الأتراك "جمعية الإخاء العربي العثماني" بهدف حماية الدستور وتوحيد جميع الأجناس في ولائها للسلطان، وتحسين حالة الأجزاء العربية على أساس المساواة الصحيحة بين العرب والعناصر الأخرى في الدولة العثمانية.

غير أنه ابتداءً من سنة 1909 بدأ هذا الوفاق ينفصم، إذ قامت حكومة "تركيا الفتاة" بتعطيل جمعية "الإخاء العربي العثماني"، وبدأ الاتحاديون يمارسون مركزية إدارية شديدة، كما اتجهوا إلى فرض سياسة التّتريك على جميع الولايات العربية، وبدت النزعة الطورانية هي السّمة البارزة في الولايات العثمانية بما فيها الولايات العربية. فما هي العوامل الرئيسية التي أدت إلى قطع حبل الوفاق بين العرب والأتراك؟ وكيف استقبل القوميون العرب هذا التغير في سياسة الاتحاديين؟ وما مصير الحركة القومية العربية أمام تحديات الحركة الطورانية؟

الملاحق

ملحق رقم (1)

تقرير لسكين، قنصل بريطانيا في حلب، في 31 -07-1858، حول رغبة المسلمين في شمال سوريا في التخلص من الحكم العثماني وإنشاء دولة عربية مستقلة برئاسة أشراف مكّة.

Inclosure in No. 43.

Consul Skene to Mr. Alison.

Sir,

Aleppo, July 31, 1858.

I HAVE the honour to report to you that some excitement has existed in this town during the last ten days. Intelligence of the outbreak in the Island of Crete and the massacre at Jedda, which arrived here during the festivities of the Courban Bairam, and instigation on the part of one or two of the leading Mussulman inhabitants, who considered themselves aggrieved in their private interests by the local government, raised a feeling of hostility between the Christian and Mahometan classes of the population, and a seditious spirit against the constituted authorities. Fire-arms and ammunition were hurriedly purchased wherever they could be found. Young men of doubtful character were seen assembling in the streets. One of these, a Greek Catholic, by name Butros Tawil, appeared in the bazaar, fully armed, and loudly called on the Christians to attack the Mussulmans. Some of the latter secretly announced to respectable European families, with whom they were on friendly terms, that a general massacre was about to commence, and advised them to take refuge in places of safety, if any such could be found. Great apprehensions were thus entertained. The civil and military Pashas, meanwhile, were taking all possible means of securing the tranquillity of the town. Butros Tawil was arrested, and is now under sentence of banishment. The sale of arms and ammunition was prohibited. The town was patrolled by 600 soldiers in 12 detachments of 50 each, under the command of field officers. The principal inhabitants of the different quarters were assembled and ordered to do their utmost to keep the townspeople in their neighbourhood quiet. These measures proved perfectly successful, and all alarm has for the present subsided.

It is worthy of remark that the hatred felt by the Arab population of this part of Syria for Turkish troops and officials in general, whom they regard as degenerate Mahometans, is little less violent than their fanaticism against the Christians. The garrison of Aleppo is only 2,000 strong. Were a serious insurrection to take place, this force would be altogether unable to quell it, each Turkish soldier having about thirty Arabs arrayed against him, all more or less inured to the use of arms, and looking upon him as a national enemy. The insurgents, moreover, might not be without the advantage of military organization, as it is said that the survivors of the Janissaries, who numbered no less than 25,000 affiliated in Aleppo when that corporation was suppressed in 1826, have kept up some species of secret union amongst themselves. The recent incidents, reported above, have given rise to much talking on these subjects, from which it would also appear that the Mussulman population of northern Syria harbours hopes of a separation from the Ottoman Empire and the formation of a new Arabian State, under the Sovereignty of the Shereefs of Mecca. However this may be, it is certainly desirable that the garrison of Aleppo should be augmented without loss of time, more especially as the consequences of the massacre at Jedda will in all probability soon furnish a motive and opportunity for a dangerous ebullition of Mussulman fanaticism.

I have, &c.

(Signed) J. H. SKENE.

المرجع: عبد الرؤوف سنو، النزعات الكيانية الإسلامية في الدولة العثمانية (1877-1881)، بيان للنشر والتوزيع، ط1، بيروت، 1998، ص185.

ملحق رقم (2)

رسالة من ايلدريدج إلى ساليزبوري في 18-07-1878 حول رغبة السوريين، مسلمين ومسيحيين، في أن تفرض بريطانيا حمايتها على بلادهم.

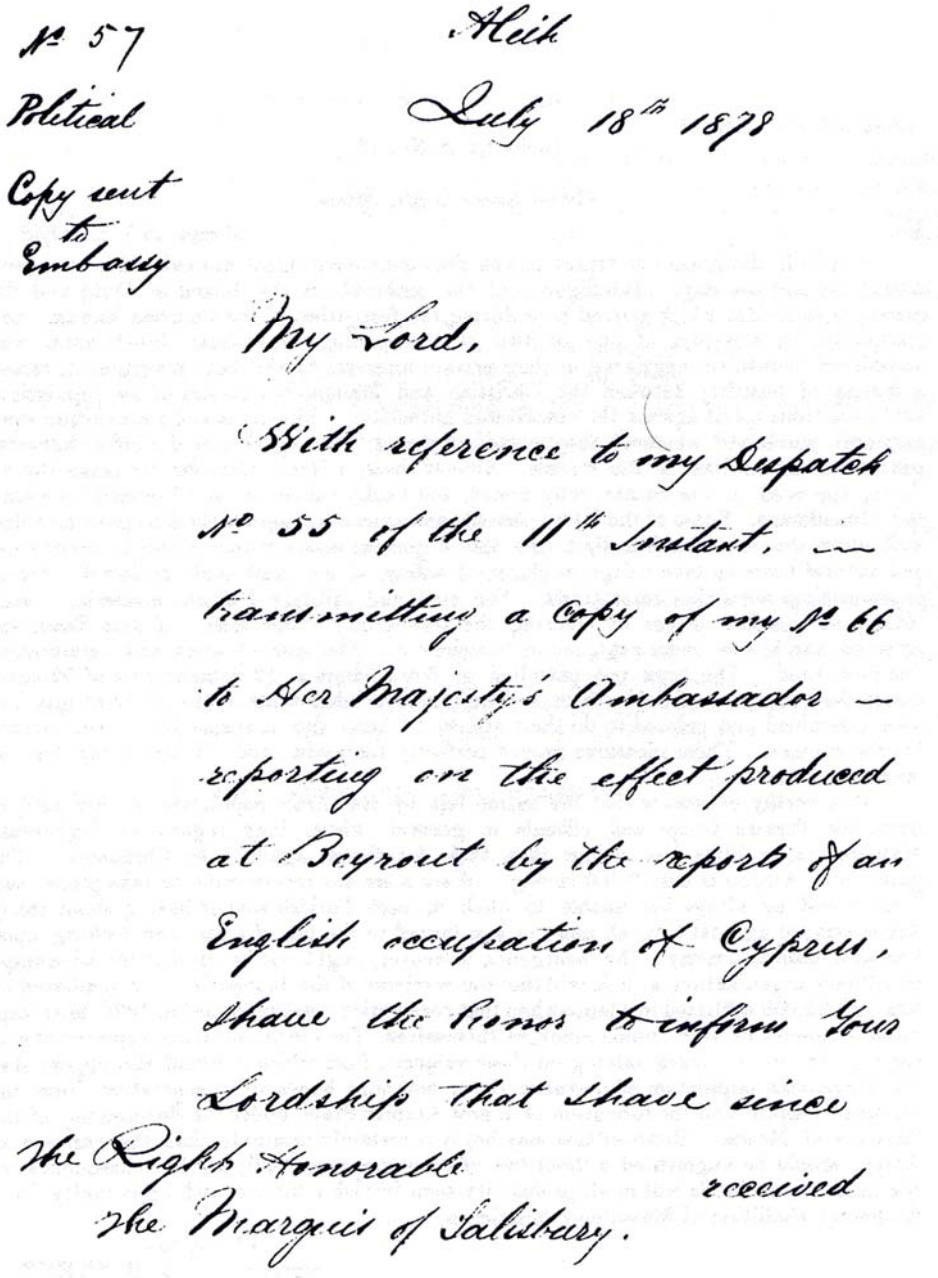

No 57
Political
Copy sent to Embassy

Heik
July 18th 1878

My Lord,

With reference to my Dispatch No 55 of the 11th Instant, — transmitting a Copy of my No 66 to Her Majesty's Ambassador — reporting on the effect produced at Beyrout by the reports of an English occupation of Cyprus, I have the honor to inform Your Lordship that I have since received

The Right Honorable
The Marquis of Salisbury.

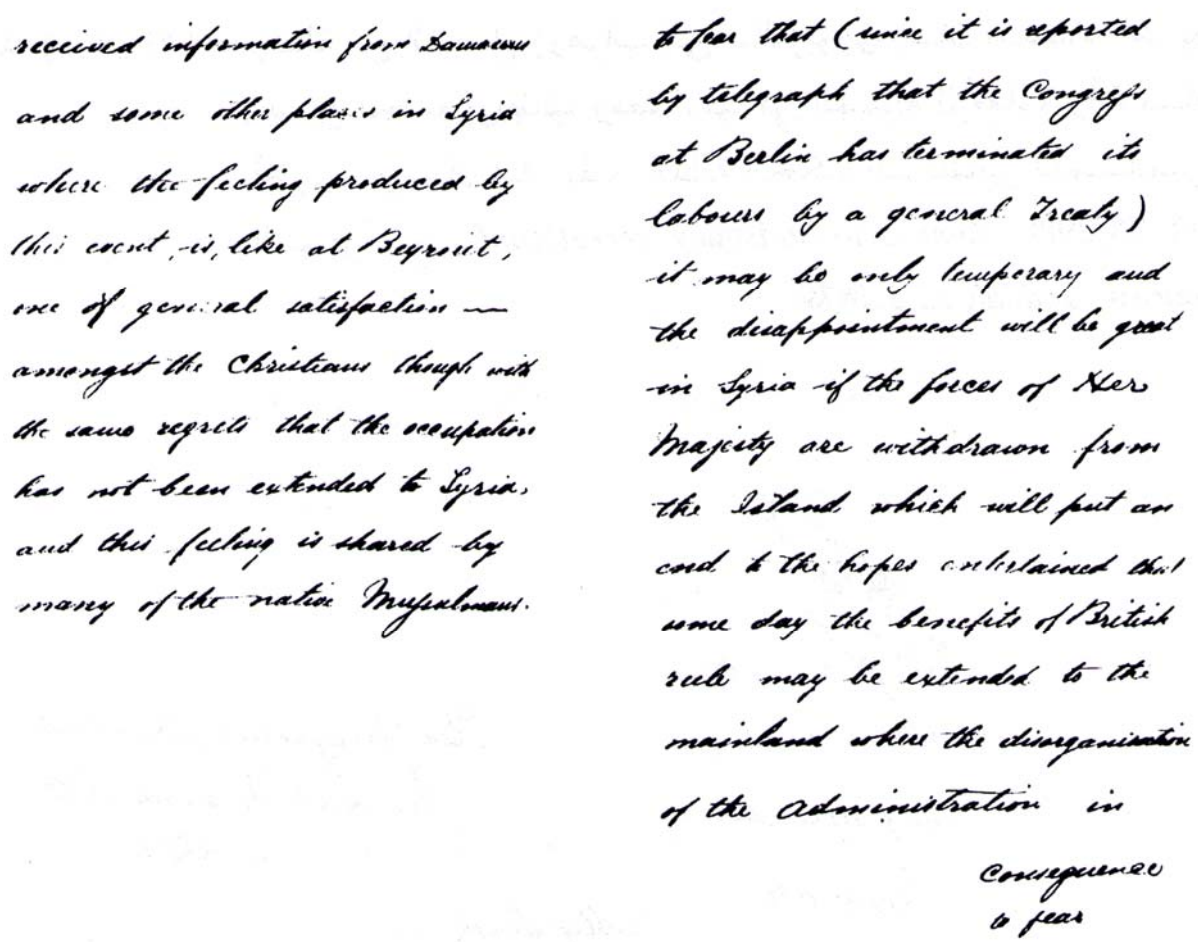

received information from Damascus and some other places in Syria where the feeling produced by this event, is, like at Beyrout, one of general satisfaction — amongst the Christians though with the same regrets that the occupation has not been extended to Syria, and this feeling is shared by many of the native Mussulmans.

to fear that (since it is reported by telegraph that the Congress at Berlin has terminated its labours by a general Treaty) it may be only temporary and the disappointment will be great in Syria if the forces of Her Majesty are withdrawn from the Island which will put an end to the hopes entertained that some day the benefits of British rule may be extended to the mainland where the disorganization of the administration in consequence to fear

المرجع: عبد الرؤوف سنو، النزعات الكيانية الإسلامية في الدولة العثمانية (1877-1881)، بيان للنشر والتوزيع، ط1، بيروت، 1998، ص186، 187.

ملحق رقم (3)

زوهراب يبلغ ساليزبوري بتاريخ 06-08-1879 عن جمعية سرية في مكّة غير راضية عن نتائج الحرب الروسية-العثمانية تقوم باتصالات مع القيادات في العالم الإسلامي لإزاحة العثمانيين، عن الخلافة الإسلامية. كما أبلغه عن مشروع دولة عربية يجري إعداده، وأنه يتوقع عما قريب حدوث اضطرابات في الحجاز.

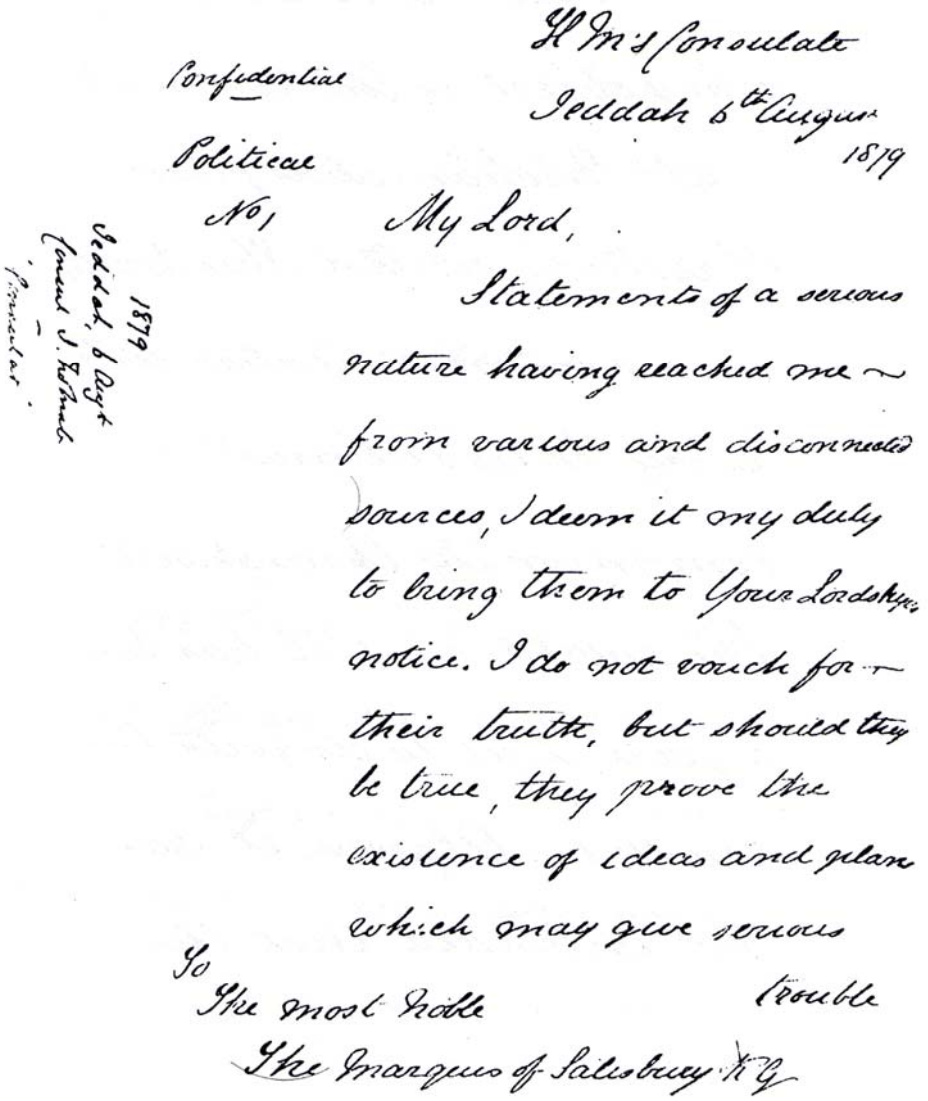

H.M.'s Consulate
Jeddah 6th August
1879

Confidential
Political
No 1

My Lord,

Statements of a serious nature having reached me from various and disconnected sources, I deem it my duty to bring them to Your Lordship's notice. I do not vouch for their truth, but should they be true, they prove the existence of ideas and plans which may give serious trouble

To
The most Noble
The Marquess of Salisbury K.G.

Jeddah, 6 Aug.
1879
Consul J. Zohrab
Confidential

trouble in the future.

From a Gentleman who has resided here for some years I hear, that at Mecca there exists a secret society whose object is the removal all Mohamedans from Christian control. This society is in communication with every Mussulman community throughout the world, and it has had a good deal to do with the revolt in Algeria. it was not intended that the revolt should commence when it did, the plan was that it should begin there when the brand of war or revolt could at the same time be applied to the diff countries. Similar informati has reached me from another source.

The society, which is composed of Mollahs Sheiks and Sheriffs is, I am told, so dissatisfied with the result of the late war with Russia that the question of withdrawing from

from the Sultan the title of Temporal Head of the Mussulman Faith is being seriously discussed. It is declared that as the Sultan is under the control of the Christians Powers, he can no longer be regarded as independent and cannot and cannot, therefore continue to be the true Representative of the Prophet and the mantle must be laid on other shoulders.

This

2nd Sheet
Confidential
Political
No 1

This opinion, it appears, had its rise in Damascus and that City was at first decided on as the future Seat of the Head of Islam The Society at Mecca were averse to this, it was argued that Damascus being within easy reach of European influence, it would not be a safe home; whereas Medina, which combined within itself all requirements that is, remotness from Europe, difficulty of access sacredness

sacredness of the city and purity of the Mussulman character, indicated itself as the natural centre of the faith - Medina has, though it is said, been fixed upon.

Mr Kruyt the Netherlands Consul, who has many subjects residing in Mecca has also received similar information and and he considers it of such importance that to enable him to try to get further and more minute details, he is applying to his government for authority to purchase information.

A Turkish Officer with whom I was conversing a few days ago assured me, that the Authority of the Sultan in Arabia was merely nominal and as the Arabs hated the Turks he believed grave events would shortly take place. He told me that his life had been warned by

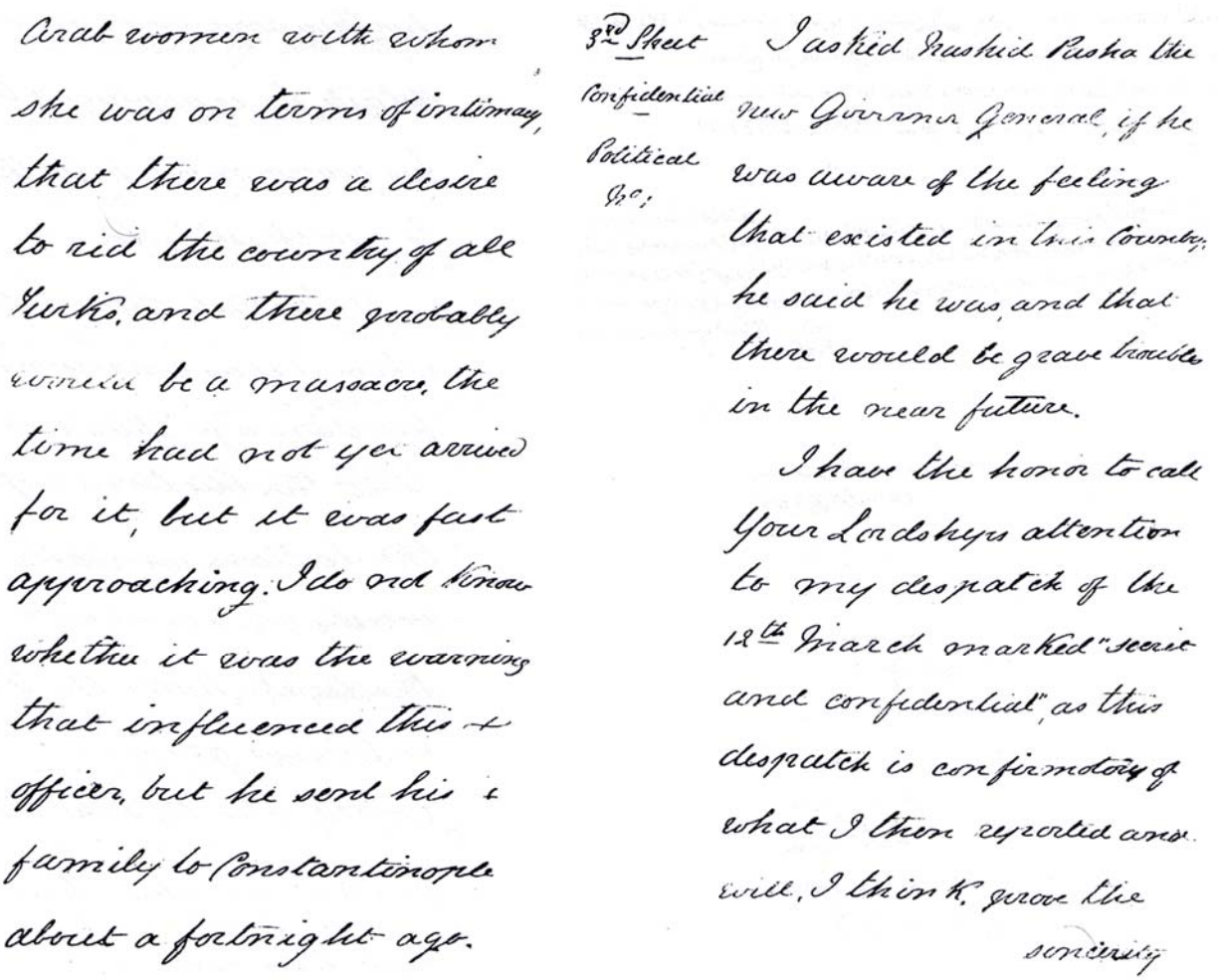

3rd Sheet
Confidential
Political
&c.,

I asked Rushdi Pasha the new Governor General, if he was aware of the feeling that existed in this country, he said he was, and that there would be grave trouble in the near future.

I have the honor to call Your Lordships attention to my despatch of the 12th March marked "secret and confidential", as this despatch is confirmatory of what I then reported and will, I think, prove the sincerity

Arab women with whom she was on terms of intimacy, that there was a desire to rid the country of all Turks, and there probably would be a massacre, the time had not yet arrived for it, but it was fast approaching. I do not know whether it was the warning that influenced this officer, but he sent his family to Constantinople about a fortnight ago.

المرجع: عبد الرؤوف سنو، مرجع نفسه، ص ص195، 203.

ملحق رقم (4)

رسالة من لايارد إلى غرانفيل مؤرخة بـ 25-05-1880 حول سياسة الجامعة الإسلامية للسلطان عبد الحميد، الهادفة إلى إثارة مسلمي الهند ضد بريطانيا، وأن الدعاية العثمانية خلال موسم الحج تُروّج بأن بريطانيا هي عدو الإسلام وأنها تسعى للقضاء على الخلافة العثمانية.

Sir A. H. Layard to Earl Granville.—(Received June 1.)

(No. 542. Confidential.)

My Lord, *Therapia, May 25*, 1880.

BEFORE leaving this Embassy, I think it my duty to call the serious attention of Her Majesty's Government to the intrigues which are being carried on from Constantinople with Mahommedans in India. I have every reason to believe that they are directed by the anti-English party in the Palace, and that the Sultan himself is not ignorant of them, if he does not actually encourage and connive at them.

I have been frequently warned that Ghazi Osman Pasha is in secret communication with leading Mussulmans in India. I have no actual proof that such is the case, but from his well-known fanaticism and his undisguised opposition to the policy of England, I think it very probable that it is. I have, on various occasions, brought to the notice of Her Majesty's Government the suspicious proceedings of certain Indians in this city. Some of them have access to the Palace, and appear to be treated with special favour by the Sultan. His Majesty has been persuaded that, as Caliph of Islam, he has immense influence over the Mussulmans of India, and he appears to have been induced to establish and subsidize the "Peik Islam," the newspaper of which I sent your Lordship a copy in my despatch No. 531 of the 21st instant, in order still further to extend it.

The danger which may arise from this state of things is that if, in consequence of the course of events, England is compelled to enter upon a policy hostile to Turkey, or which, in the Sultan's opinion, may threaten his independence or his sovereign rights, or may deprive him of further territory, he may have recourse to every means in his power to cause us trouble and embarrassment.

With this object in view, he may endeavour to excite the Mussulmans of India against British rule, and to bring about another rebellion in that country. To effect this he will make use of all the power and influence he possesses as head of the Mahommedan faith. Turkish agents will work upon Indian Mussulman pilgrims at Mecca, who, on their return, will spread disaffection, and the Indians who are established here will be used to carry on secret communications with the Princes and Chiefs in India. England will be represented as the enemy of Islam, and as aiming at the overthrow of the Caliphate and the destruction of the Mahommedan religion.

I cannot doubt that, in these intrigues, the Sultan and his advisers will receive every encouragement and support from Russia. There are very strong grounds for suspecting that Ghazi Osman Pasha has been completely gained over to her interests. I have been informed, from an apparently trustworthy source, that the new Russian Ambassador, M. de Novikoff, has been instructed to maintain him in his present high and influential position in the Palace, "coûte que coûte." Russian agents will lose no opportunity of persuading His Majesty and his Ministers that England is the real enemy of the Turkish Empire, and that Russia alone is its friend. The more hopeful the prospect of a good understanding between the Powers as to the policy to be adopted with regard to this country, the more determined will be the attempt of Russia to increase the suspicions of the Sultan as to the motives and designs of England, and to bring about a quarrel between her and Turkey.

What Russia most dreads is a cordial understanding between the Great Powers, which may have the effect of improving the Administration of this Empire, of restoring to it something of its former power, strength, and prosperity, and of frustrating her ambitious designs with regard to it.

It may, in my opinion, be considered almost absolutely certain that she will secretly do all in her power to prevent such an understanding, whatever may be the assurances to the contrary Her Majesty's Government may receive from St. Petersburgh.

I have, &c.

(Signed) A. H. LAYARD.

المرجع: عبد الرؤوف سنو، مرجع نفسه، ص219.

ملحق رقم (5)

نظامات لبنان ٩ يونية ١٨٦١

المـــادة الأولى :

يتولى ادارة جبل لبنان متصرف مسيحى ينصبه الباب العـــالى ويكون مرجعه اليه رأسا ، ويعطى هذا الموظف القابل للعزل كل حقوق الســـلطة التنفيذية ويسهر على حفظ النظام والامن العام فى كل انحاء الجبل ويحصـــل الاموال الاميرية وبمقتضى الرخصة التى ينالها من لدن الحضرة الشاهانيـــة ينصب تحت مسئولية مأمورى الادارة المحلية وهو يولى القضاء ويعقد المجلس الادارى الكبير ، ويتولى رئاسته ، وينفذ الاحكام الصادرة عن المحاكم ما عدا الامور التى ستذكر فى المادة التاسعة ، وكل عنصر من عناصر سكان الجبـــل يمثله لدي المتصرف وكيل يعينه الكبراء والوجهاء فى كل طائفة .

المـــادة الثانيـــة :

ينبغى ان يكون للجبل كلـــه مجلس ادارة كبير ، يؤلف من اثنى عشر عضوا (٩٦٨) وهم اثنـــان مارونيان ، واثنـــان درزيان ، واثنـــان من الروم الكاثوليك ، واثنان من الروم الارثوذكس ، واثنان من المتاولة ، واثنـــان من المسلمين ، يوكلف هذا المجلس بتوزيع الضرائب ، والبحث فى ادارة مـــوارد الجبل ونفقاته وبيان آرائه الشورية فى المسائل التى يعرضها عليه المتصرف كلهـــا .

المـــادة الثالثـــة :

يقسم الجبل الى ست مقاطعات ادارية هى : ــ الأولى : الكورة بمـــا فيها الجهة السفلى وباقى قطع الارض المجاورة الاهله بالروم الارثوذكس ما عدا بلدة القلمون الكائنة على ساحل البحر وكل سكانها تقريبا من المسلمين . الثانية : الجهة الشمالية من لبنان ما عدا الكورة حتى نهر الكلب . الثالثة :

زحلة وما يتبعها من الارض . الرابعة : ـــ المتن بما فيه ساحل النصـــارى وأراضى القطاع وصليما . الخامسة : الارض الكائنة فى جنوبى طريق الشام حتى جزين . والسادسة : جزين وأقليم التفاح ، ويكون فى كل من هذه المقاطعات مأمور ادارى يعينه المتصرف ويختار من بين الطائفة الغالبة سواء بعـــدد نفوسها أو بأهمية أملاكها .

المـــادة الرابعـــة :

يجب ان يكون فى كل مقاطعة مجلس ادارة محلى مؤلف من ثلاثة أعضاء الى ستة يمثل عناصر السكان ومصالح الملكية العقارية فى المقاطعة ، ويجب ان يجتمع هذا المجلس مرة فى السنة برئاسة مدير المقاطعة وبدعوة منه . وعليه ان ينظر قبل كل شىء فى الامور القضائية الادارية ويسمع مطالب الاهلين ويبلغ المعلومات الاحصائية اللازمة لتوزيع الضرائب فى المقاطعة ويعطى رايه الشورى فى كل المسائل المتعلقة بالمنافع المحلية .

المـــادة الخامســـة :

تقسم المقاطعات الى نواحى على نمط قريب الشاكلة من تقسيم الاقاليم القديمة ولا يكون فيها ما أمكن الاجماعات متجانسة من الســـكان . وتقسم النواحى الى قرى تتألف من ٥٠٠ نسمة على الاقل، ويكون فى كل ناحية موظف يعينه المتصرف بناء على اقتراح مدير المقاطعة ، ويراس كل قرية شيخ ينتخبه الاهلون ويعينه المتصرف . وفى القرى المختلطة يكون لكل عنصر كافى العـــدد من السكان ، شيخ خاص لا شأن له الا مع ابناء مذهبه .

المـــادة السادســـة :

الجميع متساوون امام القانون وتلغى كل الامتيازات الاقطاعية ولا سيما امتيازات المقاطعجية .

المـــادة السابعـــة :

يكون فى كل ناحية قاضى صلح لكل طائفة ، ومجلس قضائى ابتدائى فى

كل مقاطعة ويؤلف من اثنى عشر عضوا بنسبة اثنين لكل طائفة من الطوائف الستة المذكورة فى المادة الثانية ، ويضاف اليهم عضو من المذهب البروتستانتى أو الاسرائيلى كلما كان لاحد من هذه المذاهب مصلحة أو دعوى وتكون رئاسة المجالس القضائية لكل من أعضائها بدوره كل ثلاثة أشهر .

المـــادة الثامنـــة :

لقضاه الصلح ان يحكموا فى الدعاوى التى لا تتجاوز قدرها ٥٠٠ قرش حكما غير مستأنف . واما الدعاوى التى يتجاوز قدرها ٥٠٠ فهى من صلاحية المحاكم الابتدائية ، على انه لو عرضت شئون مختلطة وهى الدعاوى الواقعة بين أشخاص مختلفى المذاهب ، ايا كانت قيمتها ، يجب عرضها على المحاكم الابتدائية الا اذا اتفق الفريقان على الرضى بصلاحية قاضى الصلح الذى من طائفة المدعى عليه . ثم انه من حيث المبدأ يجب الحكم فى كل دعـــوى باتفاق الآراء بين أعضاء المجلس . الا انه اذا كانت كل الفـــرق الداخلة فى الدعوى من طائفة واحده فلهم ان يردوا الحاكم لاختلاف مذهبه . غير ان الحكام المردودين من هذا الوجه لابد من حضورهم المحاكمة .

المـــادة التاسعة :

تقتضى المحاكم فى الدعاوى الجزائية ان تكون على درجات وهى ان ينظر فى دعوى المخالفات ، قضاه الصلح ، وفى الجنح المحاكم الابتدائية ، وفى الجنايات مجلس المحاكمة الكبير . واما علامات الحكم الصادرة من هذا المجلس فـــلا يمكن وضعها موضع التنفيذ ما لم تستكمل الاجراءات المعمول بها فى بقيـــة ممالك الســـلطنة .

المـــادة العاشرة :

كل دعوى تنظر فيها محكمة بيروت التجارية . وكل دعوى ولو مدنيـــة بين رعية أو حماية دولة أجنبية وبين أحد أهالى الجبل تجرى المحاكمة فيهـــا أمام هذه المحكمة ذاتهـــا .

المـــادة الحادية عشر :

كل أعضاء المحاكم ومجالس الادارة بلا استثناء وقضاه الصلح أيضـــا ، ينتخبهم ويعينهم رؤساء طوائفهم بالآتفاق مع كبراء الطائفة وتنصبهم الحكومة واما أعضاء المجالس الادارية فيجدد انتخاب نصفهم كل سنة ويجوز تجديد الانتخاب للذين انتهت مدتهم .

المـــادة الثانية عشر :

كل القضاه يكون لهم مرتبات واذا ثبت بعد التحقيق أن أحدهم ارتشى أو انه يقوم بأى عمل كان ، اصبح غير أهل للوظيفة فيجب عزله ، بل يستوجب التأديب أيضا على قدر ذنبه .

المـــادة الثالثة عشر :

جلسات كل المجالس القضائية تكون علانية ويضبطها كاتب معين لهذه الغاية وعلى الكاتب المذكور ان يكون لديه سجل لكل عقود بيع العقـــارات ولا تكون هذه العقود قانونية ما لم تتم فيها عملية التسجيل .

المـــادة الرابعة عشر :

أهالى الجبل الذين يرتكبون جناية أو جنحة فى سنجق آخر ، تجـــرى محاكمتهم فى ذلك السنجق وهكذا اذا ارتكب أهالى السناجق الاخرى جناية أو جنحة فى منطقة لبنان تجرى محاكمتهم امام محاكم الجبل . وعليه فلاشخاص الوطنيون أو غير الوطنيون الذين يقترفون جنحة أو جناية فى لبنان ويلجأون الى سنجق آخر فبناء على طلب حكومة الجبل تلغى القبض عليهم حكومـــة السنجق الذى يكونون فيه ، وتسلمهم الى حكومة لبنان وهكذا اذا ارتكب أهالى الجبل أو سكان ولايات أخرى جناية أو جنحة فى أى سنجق كان غير لبنـــان والتجأوا اليه فعلى حكومة الجبل ان تلقى القبض عليهم حالا بناء على طلب حكومة السنجق صاحب الشأن وتسلمهم الى هذه الســـلطة الاخيرة . واذا تهامل مأمورو الحكومة أو تأخروا ـــ بدون أسباب مشروعة ـــ فى تنفيذ الاوامر

المتعلقة بارجع المجرمين الى المحاكم المختصة ، تجرى عليهم العقوبات طبقا للقوانين ، كما تجرى على من يحاول اخفاء هؤلاء المجرمين من ملاحقات البوليس .

والخلاصة فان علاقات الادارة فى لبنان مع ادارة كل من السناجق الاخرى تكون نفس العلاقات الموجودة والتى يصير استعمالها بين سائر سناجق السلطنة .

المادة الخامسة عشر :

ان حفظ النظام وتنفيذ القوانين فى الاوقات العادية انما يناط بالحاكم بواسطة هيئة بوليس مختلطة تؤلف بنسبة سبعة انفار عن كل ألف من السكان. ولما كان قد تقرر الغاء طريقة التنفيذ بواسطة الحوالية ، والاعتياض عنها بطرق أخرى اكراهية ، كالقاء القبض أو الحبس فيحرم على مأمورى البوليس تحت طائلة اشد العقوبات ان يغتصبوا من الاهالى أية اجره كانت سواء مالا أو عينا ويجب عليهم ان يلبسوا الكسوة الرسمية أو يكون لهم علامة ما خارجية تدل على وظيفتهم . الى ان يرى الحاكم ان الجند المحلى أصبح كفؤا للقيام بكل ما يفرض عليه من الواجبات فى الاوقات العادية وتبقى العساكر النشاهانية محتلة الطرق التى بين بيروت والشام وبين صيدا وطرابلس . وتكون هذه العساكر تحت أومر حاكم الجبل .

وفى الظروف غير الاعتيادية والضرورية وبعد أخذ رأى مجلس الادارة المركزى ، يمكن الحاكم ان يطلب مساعدة العساكر النظامية من السلطه العسكرية فى سورية . وعلى الضابط قائد هذه العساكر بذاته ان يتفق مع حاكم الجبل على ما يجب أخذه من التدابير ، ومع رعاية فكره الخاص فى كل المسائل العسكرية البحته كمسائل خطط ونظامات الجيش ، ويكون تحت أمر حاكم الجبل طول الوقت الذى يقضيه فى لبنان ويعمل تحت مسئولية هذا الاخير . وتنسحب هذه العساكر من الجبل حين يعلن الحاكم رسميا قائدها بانهم بلغوا الهدف التى من أجله طلبوا .

المـــادة السادسة عشر :

لما كان الباب العالى يحتفظ بحق تحصيل الـــ ٣٥٠٠ كيس بواســـطة حاكم لبنان ، وهى قيمة المال المضروب على لبنان حاليا ـــ الذى يجوز ابلاغه الى ٧٠٠٠ كيس متى سمحت الظروف ـــ فمن المفهوم ان هذا المال يخصص قبل كل شىء بمصاريف ادارة الجبل ونفقات منافعة العامة ولا يرجع الى خزينة الدولة الا ما قد يزيد فقط . واذا كانت المصاريف العامة الضرورية لســـير الادارة بنظام تزيد عن مجموع الاموال المضروبة فعلى خزينة الدولة ان تقوم بما زاد من هذه المصاريف . وبما ان محاصيل الاملاك الهمايونية هى مستقله عن الاموال المضروبة فهى تدفع لصندوق لبنان من أصل المطلوب لهذا الصندوق من خزينة الدولة .. اما فيما يختص بالاشغال العمومية والنفقات الاخرى غير الاعتيادية فمن المفهوم ان الباب العالى لا يكون ملزما الا اذا كان قـــد صـــدق عليها .

المـــادة السابعة عشر :

يشرع فى اقرب وقت ممكن باحصاء الاهالى بلدة بلده وملة ملة ويمســـح كل الاراضى المزروعة .

البروتوكول الملحق بالنظامات

ينص على أن يتولى ادارة لبنان حاكم مسيحي يختاره الباب العالى ويكون مرجعه اليه رأسا ويمنح رتبة مشير ويقيم عادة فى دير القمر التى توضع تحت سلطته المباشرة . وتحدد ولايته بثلاث سنوات ، يكون فيها قابلا للعزل ولكن عزله لا يتم الا بعد اجراء محاكمته . وقبل نفاذ مدة ولايته بثلاثة شهور يخطر الباب العالى ممثلى الدول ويدعوهم للاتفاق معه على مرشح جديد .

وتقرر أيضا ان يعطى حق تعيين الموظفيين للحاكم من الباب العالى مرة واحدة وليس بمناسبة كل تعيين . وبخصوص المادة العاشرة المتعلقة بالاجراءات بين رعايا أو محيمى دولة اجنبية من جهة وبين سكان الجبل من جهة اخرى ، اتفق على ان تكلف لجنة مختلطة تقيم فى بيروت بالتحقق فى مستندات الحماية ومراجعتها .

ومن أجل صون الامن والحرية على طريق الشام بيروت فى جميع الاوقات سينشىء الباب العالى حصنا فى نقطة مناسبة على الطريق المذكور . ويمكن لحاكم لبنان ان يشرع فى اجراءات نزع السلاح من الجبل عندما يجد ان الظروف والوقت ملائم .

بيرا ٩ يونية ١٨٦١
(التوقيع)

نظامات جبل لبنـــان (٦ سبتمبر ١٨٦٤)

المـــادة الأولى :

يتولى ادارة لبنان حاكم مسيحى ينصبه الباب العالى ويكون مرجعه اليه رأسا ، ويعطى هذا الموظف القابل للعزل كل حقوق السلطة التنفيذية ويسهر على حفظ النظام والامن العام فى كل انحاء الجبل ويحصل الاموال الاميرية ، وبمقتضى الرخصة التى ينالها من جلالة السلطان يقيم تحت مسئوليته مأموى الادارة وهو يولى القضاه ويعقد ويترأس مجلس الادارة المركزى ويجـرى تنفيذ كل الاحكام التى تصدرها المحـــاكم قانونيا مع النظر الى الاستدراكات المنصوص عنها فى المادة الثامنة .

المـــادة الثانية :

يكون لكل الجبل مجلس ادارة مركزى مؤلف من اثنى عشر عضـــــوا مبعوثين من المديريات كالتالى :

١ ، ٢ ، كل من مديريتى كسروان ترسل عضوا مارونيا .

٣ ــ مديرية جزين ، مارونيا ودرزيا ومسلما .

٤ ــ مديرية المتن ، مارونيا ، روما ارثوذكسيا ، درزيا ومتواليا .

٥ ــ الشـــوف درزيـــا .

٦ ــ الكورة روما ارثوذكســـيا .

٧ ــ زحلة روما كاثوليكيـــا .

ويكلف المجلس الآدارى بتوزيع الاموال الاميرية وبمراقبة ادارة الداخل والخارج وباعطاء رايه الشورى فى كل المسائل التى يطرحها عليه الحاكم .

المـــادة الثالثة :

يقسم الجبل الى سبع مناطق ادارية هى :

١ ـــ الكورة بما فيها الجهة السفلى وباقى قطع الارض المجاورة وسكانها على مذهب الروم الارثوذكس ما عدا بلدة القلمون الكائنة على الساحل وكل سكانها تقريبا بين المسلمين .

٢ ـــ الجهة الشمالية من لبنان بما فيها جبة بشرى والزاوية وبلاد البترون .

٣ ـــ الجهة الشمالية من لبنان بما فيها بلاد جبيل وجبة المنيطرة والفتـــوح وكسروان ذاته حتى نهر الكلب .

٤ ـــ زحلة وضـــواحيها .

٥ ـــ المتن بما فيه الساحل المسيحى وأراضى القاطع وصليما .

٦ ـــ الاراضى الكائنة فى جنوبى طريق الشام حتى حزين .

٧ ـــ حزين والتفـــاح .

ويكون فى كل هذه المناطق مأمور ادارى يقيمه الحاكم ويختاره من الطائفة الغالبية سواء بعدد سكانها أو بأهمية املاكها .

المـــادة الرابعة :

يصير تقسيم المناطق الادارية الى مقاطعات تنظم مساحتها تقريبا على مساحة الاقاليم القديمة . وفى كل مقاطعة يقيم مأمور يعينه الحاكم بناء على اقتراح رئيس المنطقة . ولكل قرية شيخ يختاره الاهالى ويوليه الحاكم .

المـــادة الخامسة :

الجميع متساوون امام القانون ، وتلغى كل امتيازات الاعيان لا ســـيما المقاطعجية .

المـــادة السادسة :

يكون فى الجبل ثلاث محاكم ابتدائية تؤلف كل محكمة من قاض ونائب يقيمهما الحاكم ، ومن ستة مدافعين رسميين تنتخبهم الطوائف وفى مركز الحاكم مجلس قضائى أعلى مؤلف من ستة قضاه يختارهم ويوليهم الحاكم من الطوائف الست : ــ المســـلمين ، الســـنيين ، المتاولة ، الموارنة ، الدروز ، الروم الارثوذكس ، الروم الكاثوليك ، ومن ستة مدافعين رسميين تنتخبهم كل من هذه الطوائف ويضاف اليهم قاضى ومدافع رسمى عن المذهب البروتســـتانتى والاسرائيلى كلما كان لاحد من هاتين الطائفتين مصلحة فى الدعوى . ويترأس المحكمة العليا مأمور يقيمه الحاكم لهذه الغاية . وللحاكم الحق بمضاعفة عدد المحاكم الابتدائية اذا اقتضت ذلك ظروف المكان ويتعينه منذ الآن المحلات التى تشتغل فيها المحاكم الابتدائية الثلاث بهدف اقامة العدالة بطريقة منظمة .

المـــادة السابعة :

يحكم مشايخ القرى ــ الذين يقومون بوظيفة قضاه صلح ــ بلا استئناف بحد اقصى مائتى قرش ، والدعاوى التى تتجاوز مائتى قرش تكون مـــن اختصاص المجالس القضائية الابتدائية ــ والقضايا المختلطة ــ اى الواقعة بين أفراد ليسوا من طائفة واحده ــ مهما بلغت قيمة الدعوى ، تعرض مباشرة امام المحكمة الابتدائية ما لم يتفق المتداعون على القبول بصلاحية قاضى صلح المدعى عليه . ومبدئيا يحكم فى كل دعوى كل أعضاء المجلس، الا انه اذا كان كل المتداعين من طائفة واحده فلهم اذ ذاك الحق برد القاضى الذى يكون من طائفة أخرى . وفى هذه الحالة يجب على القضاه المردودين أن يحضروا الحكم .

المـــادة الثامنـــة :

فى الامور الجنائية تكون المحاكمة على ثلاث درجات : المخالفات يحكم فيها شيوخ القرى القائمون بوظيفة قضاه الصلح . والجنح تحكم فيها المحاكم الابتدائية ، والجنايات تحكم فيها مجلس المحاكمة الكبير . واحكام هذا المجلس لا يجوز اجراء تنفيذها الا بعد تتميم المعاملات المعتادة فى سائر السلطنة .

المـــادة التاسعة :

كل دعوى تجارية تنظر فيها محكمة بيروت التجارية ، وكل دعوى حتى ولو كانت مدنية بين رعية أو حماية دولة أجنبية وبين احد أهالى الجبـــل تجرى المحاكمة فيها امام هذه المحكمة نفسها ـــ الا ان المنازعات التى تحدث بين أهالى الجبل وبين الرعايا الاجانب يجوز ـــ على قدر الامكان وبعد اتفاق المتداعين ـــ ان يحصل النظر فيها امام مجلس تحكيم وفى هذه الحالة يجب على الســـلطة المحليـــة فى لبنـــان وعلى قناصـــل الدول المتحـــابة ان تنفـــذ احـــكام مجلس التحكيم . اما اذا عرضت هـــذه المنازعات على محكمـــة بيروت لعدم اتفاق المتداعين على عرض خلافهم على مجلس تحكيم ، فالفريق الذى يخسر الدعوى يلزم بدفع مصاريف الانتقال بمقتضى تعريفه يضعها حاكم لبنان بالاتفاق مع هيئة القناصل فى بيروت . ويصدق عليها الباب العالى وعلى كل حال يلزم ضبط عقود الاتفـــاق طبقا قانونيا وتوقيعها من المتداعين ثـــم يصير تسجيلها فى محكمة بيروت ومجلس الجبل الاعلى .

المـــادة العاشرة :

القضاه ينصبهم الحاكم ، وأعضاء مجلس الادارة ينتخبهم الاهالى فى كل قرية ، ويجدد ثلث أعضاء مجلس الادارة كل سنتين ، والاعضاء الخارجون يجوز اعادة انتخابهم .

المـــادة الحادية عشر :

كل القضاه يكون لهم مرتبات ، واذا ثبت بعد التحقيق ان احدهم ارتشى أو انه عمل بأى عمل كان ، اصبح غير أهل للوظيفة فيلزم عزله ويكون فوق ذلك تحت طائلة عقوبة تناسب ما ارتكبه من ذنب .

المـــادة الثانية عشر :

تكون جلسات كل المجالس القضائية علانية ويضبطها كاتب معين لهذه

الغاية وعلى الكاتب المذكور ان يكون لديه سجل لكل عقود بيع العقارات ولا تكون هذه العقود قانونية ما لم تتم فيها معاملة التسجيل .

المـــادة الثالثة عشر :

أهالى الجبل الذين يرتكبون جناية أو جنحة فى سنجق آخر ، تجـــرى محاكمتهم فى ذلك السنجق ، وهكذا اذا ارتكب أهالى السناجق الاخرى جناية أو جنحة فى منطقة لبنان تجرى محاكمتهم امام محاكم الجبل .. وعليه فالاشخاص الوطنيون أو غير الوطنيين الذين يرتكبون جنحة أو جناية فى لبنان ويلجأون الى سنجق آخر بنـــاء على طلب حكومة الجبل تلقى القبض عليهم حكومـــة السنجق الذى يكونون فيه وتسلمهم الى حكومة لبنان . وهكذا اذا ارتكب أهالى الجبل أو سكان ولايات أخرى جناية أو جنحة فى اى سنجق كان غير لبنان والتجأوا اليه فعلى حكومة الجبل ان تلقى القبض عليهم حالا بناء على طلب حكومة السنجق صاحب الشأن وتسلمهم الى هذه السلطة الاخيرة . واذا تهامل مأمورو الحكومة أو تأخروا ـــ بدون أسباب مشروعة ـــ فى تنفيذ الاوامر المتعلقة بارجاع المجرمين الى المحاكم المختصة تجرى عليهم العقوبات طبقا للقوانين كما تجرى على من يحاول اخفاء هؤلاء المجرمين من ملاحقـــات البوليس .

والخلاصة فان علاقات الادارة فى لبنان مع ادارة كل من الســـناجق الاخرى تكون نفس العلاقات الموجودة والتى تجرى استعمالها بين ســـائر سناجق السلطنة .

المـــادة الرابعة عشر :

ان حفظ النظام وتنفيذ القوانين فى الاوقات العادية انما يعهد للحـــاكم بواسطة هيئة بوليس مختلط تؤلف بنسبة سبعة أشخاص عن كل ألف مـــن السكان ، ولما كان قد تقرر الغاء طريقة التنفيذ بواسطة الحوالية والاعياض منها بطرق أخرى اكراهية كالقاء القبض والحبس ، فيحرم على مأمورى البوليس تحت طائلة اشد العقوبات ان يغتصبوا من الاهالى اية اجره كانت سواء مالا أو

عينا ويجب عليهم ان يلبسوا الكسوة الرسمية أو يكون لهم علامة ما خارجية تدل على وظيفتهم . الى ان يرى الحاكم ان الجند المحلى أصبح كفوءا للقيام بكل ما يفرض عليه من الواجبات فى الاوقات العادية وتبقى العساكر الشاهانية محتله الطرق التى بين بيروت والشام وبين صيدا وطرابلس . وتكون هذه العساكر تحت أوامر حاكم الجبل .

وفى الظروف غير الاعتيادية والضرورية ، وبعد أخذ رأى مجلس الادارة المركزى ، يمكن الحاكم ان يطلب مساعدة العساكر النظامية من السلطة العسكرية فى سورية . وعلى الضابط قائد هذه العساكر أن يتفق مع حاكم الجبل على ما يجب أخذه من التدابير ، ومع رعاية فكره الخاص فى كل المسائل العسكرية البحته كمسائل خطط ونظامات الجيش ، ويكون تحت أمر حاكم الجبل طوال الوقت الذى يقضيه فى لبنان ويعمل تحت مسئوليته . وتنسحب هذه العساكر من الجبل حين يعلن الحاكم رسميا بانه قد بلغ الغاية من أجلها طلب هؤلاء العساكر .

المادة الخامسة عشر :

لما كان الباب العالى يحتفظ بحق تحصيل الـ ٢٥٠٠ كيس بواسطة حاكم لبنان وهى قيمة المال المضروب على لبنان حاليا ـ الذى يجوز ابلاغه الى ٧٠٠٠ كيس متى سمحت الظروف ـ فمن المفهوم ان هذا المال يخصص قبل كل شىء بمصاريف ادارة الجبل ونفقات منافعة العامة . ولا يرجع الى خزينة الدولة ما قد يزيد فقط ـ واذا كانت المصاريف الضرورية لسير الادارة بنظام ، تزيد عن مجموع الاموال المضروبة فعلى خزينة الدولة ان تقوم بما زاد من هذه المصاريف . ولان محاصيل الاملاك الهايونية هى مستقله عن الاموال المضروبة فهى تدفع لصندوق لبنان من أصل المطلوب لهذا الصندوق من خزينة الدولة . اما المنشآت العمومية وسائر النفقات الاخرى غير العادية فلا يكون الباب العالى ملزما بها الا اذا كان قد صدق عليها .

المادة السادسة عشر :

يبدء فى اقرب وقت ممكن بعمل احصاء للاهالى بلده بلده وملة ملة ويجب عملية مسح لكل الاراضى المزروعة .

المـــادة السابعة عشر :

كل الدعاوى الكائنة بين أفراد رهبان الاديرة وخوارنة الكنائس يكون فيها المظنون به أو المتهم ، تابعين للحكومة الرهبانية الى ان تطلب الاسقفيات احالة ذلك الى مجلس الدعاوى العادية .

المـــادة الثامنة عشر :

لا يجوز للاماكن الاكليريكية ان تجير من تتعقبهم النيابة العمومية ، سواء أكانوا اكليريكيين أو عاميين .

وضع الاتفاق فى الاستانة فى ٦ سبتمبر ١٨٦٤

عالى ، بولور ، لافايت ، بروكش اوستين ، غولتر ، لوبانون

المرجع: سوسن سليم، الجذور التاريخية للأزمة اللبنانية، ج1: فتنة الشام (أسبابها ونتائجها السياسية) 1860–1864، مكتبة نهضة الشرق، جامعة القاهرة، 1985.

ملحق رقم (6)

رسالة السير شارل نابيير (Charles Napier) عام ١٨٤٠ إلى اهل الشام يعلمهم فيها باتفاق الدول الأوروبية والدولة العثمانية على إنهاء حكم محمد علي[١]

أيها السوريون

إن بريطانيا العظمى والنمسا وروسيا وبروسيا بالاتفاق مـــع عظمة السلطان قد اتفقت جميعاً على إنهاء حكم محمد علي في سوريا. وقد أرسلت على رأس قوة بحرية متقدمة لأساعد في إزالة نير الحكم الذي بسطه باشا مصر على هذه البلاد.

إنكم تعلمون أنه قد صدر عن عظمة السلطان «خط شريف» يضمن سلامة رعاياه وضمان ممتلكاتهم، وينطبق مفعول هـذا «الخط الشريف» على جميع أجزاء الأمبراطورية العثمانية بما في ذلك هذه البـلاد بالذات. كما أن الدول الحليفة قد رفعت توصية إلى عظمـة السلطان من شأنها أن توفر لكم الخير والراحة ...

المرجع: حسان علي حلاق، موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية 1897-1909، الدار الجامعية، ط2، بيروت، 1980، ص349.

ملحق رقم (10)

أيها العرب*

القصيدةالبائية اليازجية (ابراهيم اليازجي)

تنبهـــوا واستفيقـوا أيهـــا العـــرب
فقـد طمى الخطـب حتى غاصت الركـب

فيـمَ التعـــلل بالآمـــال تخـدعـكـــم
وأنتـــم بين راحـات القنـــا سـلبُ

اللّـه أكبـر مـا هـذا المنـــام فقـــد
شكاكـــم المهـــد واشتاقتكـــم التـرب

كـم تظلمـــون ولستـم تشتكـون وكـم
تستغضبـــون فـلا يبـدو لكـم غضـب

ألفتـم الهـــون حتـى صـــار عندكـــم
طبعـــاً وبعض طبـــاع المـــرء مكتسـب

وفارقتكـــم لطـــول الـذل نخوتكـــم
فليس يـؤلمكـــم خسـف ولا عطـب

للّـــه صبركـم لـــو أنّ صبركـــم
في ملتقـى الخيـل حين الخيـل تضطـرب

كـــم بين صبـــر غـــدا للـــذل مجتلبـــــاً
وبين صبـــــر غـــدا للعـــــز يجتلـــــب

فشمـــــروا وانهضـــــوا للأمـــــر وابتـــدروا
من دهـــركـــم فرصـــة ضنت بهـــا الحقـــب

لا تبتغـــوا بالمنـــى فـــوزاً لأنفسكـــــــم
لا يصـــدق الفـــوز ما لـــم يصـــدق الطلـــب

خلـــوا التعصـــب عنكـــم واستووا عصـــباً
عـــلى الوئـــام ودفـــع الظلـــــم تعتصـــب

لأنتـــم الفئـــــة الكثـــرى وكـــم فئـــــة
قليلـــــة تمّ إذا ضمـــت لهـــــا الغلـــب

هـــذا الـــذي قـــد رمـــــى بالضعـــف قوتكم
وغـــادر الشمـــــل منكـــــم وهـــو منشعـــب

وسلـــط الجـــــور فـــي أقطاركـــم فغـــدت
وأرضهـــا دون أقطـــار المـــــلا خـــــرب

وحكـــــم العلـــــج فيكـــــم مـــع مهانتـــه
يقتادكـــــم لهـــــواه حيـــث ينقلـــــب

مـــن كـــل وغـــــد زنيـــم مالـــه نســـب
يدرى وليس لـــــه ديـــــن ولا أدب

وكـــل ذي خنـــث فـــي الفحـــش منغمـــس
يـــزداد بالحـــك فـــي وجعائـــــه الجـــــرب

سلاحهـــم فـي وجـوه الخصـم مكرهـم
وخيـــر جنـدهـــم التدليـس والكـذب

لا يستقيـم لهـم عهـــد إذا عقـــدوا
ولا يصـح لهـــم وعـــد إذا ضربـــوا

إذا طلبـت إلـــى ود لهـــم ســـبباً
فمـــا إلـــى ودهـم غير الخنـى سبب

والحـــق والبطـــل فـي ميزانهـم شـرع
فـلا يميـــل سـوى ما ميـــل الـذهب

أعناقكـــم لهـــم رقّ ومالكـــم
بين الدمـى والطـــلا والنـــرد منتهـب

باتـت سمـان نعـاج بيـــن أذرعكـــم
وبـات غيـركـــم للـــدر يحتلـب

فصاحب الأرض منكـــم ضمـن ضيعتـــه
مستخـــدم وربيـــب الـــدار مغتـرب

ومـا دماؤكـم أغلـى إذا سفـكـــت
مـن مـاء وجـه لهـم في الفحش ينسكـب

وليس أعراضكـــم أغـــلى إذا انتهكـت
مـن عرض مملوكهـــم بالفلس يجتلـب

باللّـه يا قـومنـــا هبـــوا لشأنكـــم
فكـــم تناديكـــم الأسفـار والخطـب

الستم من سطوا في الأرض وافتتحوا
شرقاً وغرباً وعزوا اينما ذهبوا

ومن اذلوا الملوك الصيد فارتعدت
وزلزل الأرض مما تحتها الرهب

ومن بنوا لصروح العز أعمدة
تهوى الصواعق عنها وهي تنقلب

فمالكم ويحكم اصبحتموا هملا
ووجه عزكم بالهون منتقب

لا دولة لكم يشتد ازركم
بها ولا ناصر للخطب ينتدب

وليس من حرمة أو رحمة لكم
تحنو عليكم إذا عضتكم النوب

أقداركم في عيون الترك نازلة
وحقكم بين أيدي الترك مغتصب

فليس يدرى لكم شأن ولا شرف
ولا وجود ولا اسم ولا لقب

فيالقومي وما قومي سوى عرب
ولن يضيع فيهم ذلك النسب

هب أنه ليس فيكم أهل منزلة
يقلد الأمر أو تعطى له رتب

وليس فيكـــم أخـــو حـــزم ومخبـرة
للحـل والعقـد فـي الأحكـــام ينتخـب

وليس فيكـــم أخـــو علـــم يحكّـم في
فصـل القضـاء ومنكـم جـاءت الكـتب

اليـس فيكـــم دم يهتـاجـــه أنـف
يـومـاً فيدفـع هـذا العـار إذ يثـب

فاسمعـونـي صليـل البيـض بـارقـة
فـي النقـع إنـي إلـى رنـاتهـا طـرب

واسمعـونـي صـدى البـارود منطلقـاً
يـدوي بـه كـل قـاع حيـن يصطخـب

لـم يبـق عندكـم شيء يضـن بـه
غيـر النفـوس عليهـا الـذل ينسحـب

فبـادروا المـوت واستغنـوا بـراحتـه
عـن عيش مـن مـات مـوتـاً ملؤه تعب

صبـراً هيـا أمـة الترك التـي ظلمـت
دهـراً فعـما قليـل ترفـع الحجـب

لنطلبـن بحـد السيـف مأربنـا
فلـن يخيـب لنـا فـي جنبـه أرب

ونتركـن علـوج التـرك تنـدب مـا
قـد قدمتـه أيـاديهـا فتنتحـب

ومـن يعـش يـر والأيـام مقبلـة
يلـوح للمـرء فـي أحداثهـا العجـب

المصدر: مجلة سركيس (نقلاً عن محمد كامل الخطيب، الإصلاح والنهضة، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1992، ص ص85، 89.

البيبليوغرافيا

1 – قائمة المصادر

أ – باللغة العربية

1) أحمد أمين، رواد الفكر الإنساني في الشرق الإسلامي، القاهرة، 1945.

- أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، القاهرة، 1949.

2) توفيق علي برو، العرب والترك في العهد الدستوري العثماني، مطبعة دار الهنا، القاهرة، 1960.

- توفيق علي برو، القومية العربية في القرن التاسع عشر، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1965.

3) جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، ج4، دار الهلال، القاهرة، (ب ت).

4) جمال الدين الأفغاني، الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني، تحقيق ودراسة محمد عمارة، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1968.

- جمال الدين الأفغاني، الوحدة الاسلامية، الوحدة والسيادة، صبيح، القاهرة، 1933.

5) جورج أنطونيوس، يقظة العرب، تقديم نبيه أيمن فارس، ترجمة ناصر الدين أسد وإحسان عباس، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1987.

6) حازم نسيبة، القومية العربية، ترجمة عبد الله شرارة، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، بيروت، 1959.

7) خالدي مصطفى وفروخ عمر، التبشير والاستعمار في البلاد العربية، دار المكتبة العلمية، بيروت، 1953.

8) رفاعة رافع الطهطاوي، مناهج الألباب المصرية في مناهج الآداب العصرية، مطبعة شركة الرغائب، القاهرة، 1912.

9) زاخورا إلياس، السوريون في مصر، جزءان في مجلد واحد، المطبعة العربية، القاهرة، 1927.

10)طرازي، فليب دي، تاريخ الصحافة العربية، ج1، المطبعة الأدبية، بيروت، 1913.

11)الطهطاوي، الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي، تحقيق وجمع محمد عمارة، ج1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1973.

12)عبد الرحمن الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، تحقيق وشرح حسن محمد جوهر وآخرون، لجنة البيان العربي، القاهرة، 1958.

13)عبد الرحمن الكواكبي، الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي، تحقيق محمد عمارة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1975.

14)لويس شيخو، الآداب العربية في القرن التاسع عشر، ج1، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت 1926.

15)محمد المخزومي، خاطرات جمال الدين الأفغاني، المطبعة العلمية ليوسف صادر، بيروت، 1931.

16)محمد عزة دروزة، نشأة الحركة العربية الحديثة: انبعاثها ومظاهرها وسيرها في زمن الدولة العثمانية إلى الحرب العالمية الأولى، بيروت، المكتبة العصرية، 1971.

17)محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق إحسان حقي، دار النفائس،

بيروت، ط2، 1983.

18)مذكرات السلطان عبد الحميد، ترجمة محمد حرب، دار القلم، دمشق، ط3، 1991.

19)مصطفى الشهابي، القومية العربية، معهد الدراسات العربية العليا، جامعة الدول العربية، ط2، القاهرة، 1961.

- مصطفى الشهابي، محاضرات في الاستعمار، ج2، مطبعة نهضة مصر، القاهرة، 1957، ص128.

20)نجيب عازوري، يقظة الأمة العربية، تعريب وتقديم: أحمد بو ملحم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، (ب ت).

ب – باللغة الأجنبية

1) Eugene, J., Les puissances devant la révolte arabe, Charles Herissy, Paris, 1906.
2) H.A.R. Gibb, Les tendances modernes de l'islam, Traduction française de Bernard Vernier, Paris, 1949.
3) Henry Richard, La Syrie et la guerre. Déssaint et Cie, 1916.
4) M. Laissy, Du panarabisme à la ligue arabe, Paris, 1984.
5) Pino, René, L'Europe et l'empire ottoman, Paris, 1916.

2 – قائمة المراجع

أ – باللغة العربية

1) أحمد حامد إبراهيم القضاة، نصارى القدس، دراسة في ضوء الوثائق العثمانية، (م.د.و.ع)، ط1، بيروت، 2007.

2) أحمد عبد الرحيم مصطفى، علاقات مصر وتركيا في عهد الخديوي إسماعيل

(1863 –1879)، سلسلة الكتب التاريخية، دار المعارف، الإسكندرية، 1967.

3) أحمد عبد المعطي حجازي، رؤية حضارية طبقية لعروبة مصر، دار الآداب، بيروت، 1979.

4) أحمد عزت عبد الكريم، دراسات في تاريخ العرب الحديث، دار النهضة العربية، بيروت، (ب ت).

5) أسد رستم، بشير بين السلطان والعزيز (1804م/1840م)، منشورات المكتبة البوليسية، بيروت، ط2، 1985.

6) أمجد طرابلسي، محاضرات من شعر الحماسة والعروبة في بلاد الشام في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، العربية العالمية، نهضة مصر، القاهرة، 1957.

7) أنور الجندي، الفكر العربي المعاصر في معركة التغريب والتبعية الثقافية، مطبعة الرسالة، القاهرة (ب.ت).

8) أنيس محمد، الدولة العثمانية والمشرق العربي (1516–1914)، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، (ب ت).

9) أوزطونا، يلماز، تاريخ الدولة العثمانية، تعريب عدنان محمود سليمان، منشورات مؤسسة فيصل للتموين، استنبول، ج2، 1990.

10)البطريق، ونوار، التاريخ الأوربي الحديث من عصر النهضة إلى مؤتمر فيينا، دار النهضة العربية، بيروت، 1971.

11)حجار جوزيف، أوربا ومصير الشرق العربي، ترجمة الحلاق وماجدة نعمة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1976.

12)حسن مؤنس، الشرق الإسلامي في العصر الحديث، مكتبة الثقافة الدينية، 1992.

13)حكمت ياسين، السياسة الفرنسية تجاه الثورة العربية (1916–1920)، الدار التونسية للنشر، تونس، 1981.

14)حلمي محروس إسماعيل، تاريخ العرب الحديث من الغزو العثماني إلى نهاية الحرب العالمية الأولى، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية، (ب ت).

15)حليم بركات، المجتمع العربي المعاصر، بحث استطلاعي اجتماعي، (م.د.و.ع)، بيروت، 1985.

16)خوري إميل، واسماعيل عادل، السياسة الدولية في الشرق العربي من 1789–1958، ج3، بيروت، 1960.

17)رأفت الشيخ، تاريخ العرب الحديث، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، طبعة معدلة ومزيدة، الكويت، 2005.

18)رفيق رؤوف، إشكالية النهوض العربي من التردي إلى التحدي، (م.د.و.ع)، ط1، بيروت، 2005.

19)زاهر رياض، استعمار إفريقيا، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، 1965.

20)زاهية قدورة، تاريخ العرب الحديث، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1975.

21)زين نور الدين زين، نشوء القومية العربية مع دراسة تاريخية في العلاقات العربية–التركية، بيروت، دار النهار للنشر، 1968.

22)ساطع الحصري، آراء في التاريخ والاجتماع، القاهرة، 1992.

- ساطع الحصري، آراء وأحاديث في الوطنية والقومية، (م.د.و.ع)، بيروت، 1992.
- ساطع الحصري، الأعمال القومية لساطع الحصري، (م. د. و. ع)، ج 1، بيروت، 1985.
- ساطع الحصري، البلاد العربية الدولة العثمانية، دار العلم للملايين، بيروت، 1960.
- ساطع الحصري، دراسات في القومية العربية والوحدة، (م د وع)، بيروت، ط 2، 1992.
- ساطع الحصري، ماهي القومية؟، أبحاث ودراسات على ضوء الأحداث والنظريات، دار العلم للملايين، بيروت، 1959.
- ساطع الحصري، نشوء القومية العربية، (م.د.و.ع)، بيروت، 1985.

23)شوقي عطا الله الجمل، وآخرون، تاريخ العالم العربي الحديث والمعاصر منذ الفتح العثماني للعالم العربي حتى الوقت الحالي، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1998.

24)شيلشر ليندا، تاريخ دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ترجمة عمرو الملاح وديانا الملاح، مراجعة عطاف مارديني، دار الجمهورية، دمشق، ط1، 1989.

25)طعيمة الجرف، أبحاث في المجتمع العربي، مكتبة القاهرة الحديثة، ط 1962-1963.

26)عادل الصلح، سطور من رسالة: تاريخ حركة استقلالية قامت في المشرق العربي سنة 1877، بيروت، 1966.

27)عبد العزيز الدوري، التكوين التاريخي للأمة العربية، (م. د. و. ع)، ط1، بيروت، 1984.

28)عبد العزيز الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، مكتبة الانجلومصرية، ج3، القاهرة، 1983.

29)عبد الكريم محمود غرابية، تاريخ العرب الحديث، الأهلية للنشر والتوزيع، ط2، بيروت، 1987.

30)عليّ المحافظة، الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة (1798-1914)، الأهلية للنشر والتوزيع، ط3، 1980.

31)علي حسين الخربوطلي، القومية العربية من الفجر إلى الظهر، دار إحياء الكتب العربية، (ب ت).

32)علي شلق، الأدب العربي، دوافعه، آفاقه، مطبعة الأبجدية، بيروت، 1969.

33)علي محمد الصلابي، الدولة العثمانية، عوامل النهوض وأسباب السقوط، مكتبة الإيمان، المنصورة، الجزائر، ط1، (ب ت).

34)عمر عبد العزيز عمر، محاضرات في تاريخ الشعوب الإسلامية في العصر الحديث،

دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2007.

35)غربي الغالي، دراسات في تاريخ الدولة العثمانية والمشرق العربي، (د. م. ج)، ط2، 2011.

36)فرغلي علي تسن، تاريخ مصر الحديث، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، 2001.

37)فليب عبد الله، تاريخ نجد والحركة السلفية لمحمد بن عبد الوهاب، تعريب عمر الدراري، منشورات المكتبة الأهلية، بيروت (ب ت).

38)قلعجي قدري، جمال الدين الأفغاني حكيم الشرق، دار العلم للملايين، ط3، بيروت، 1956.

39)لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية الحديث، دار الفارابي، بيروت، ط9، 2007.

40)لوشاتولييه، الغارة على العالم الإسلامي، ترجمة مساعد اليافي ومحب الدين الخطيب، المطبعة السلفية، القاهرة، 1950.

41)ليلى الصباغ، الجاليات الأوربية في بلاد الشام في العهد العثماني، مؤسسة الرسالة، ط1، 1989.

42)محمد بديع شريف، دراسات تاريخية في النهضة العربية الحديثة، مكتبة الأنجلومصرية، القاهرة، 1954.

43)محمد حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة، دار القلم، دمشق، ط1، 1989.

44)محمد سهيل طقوس، تاريخ العثمانيين من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة،

دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2008.

45)محمد فاروق التيهان، الاستشراق: تعريفه، مدارسه، آثاره، الرباط، (ب ت).

46)محمد فهمي لهيطة، تاريخ مصر الاقتصادي في العصور الحديثة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1944.

47)محمد فؤاد شكري، مصر في مطلع القرن 19م (1801 – 1811)، ج3، القاهرة، 1958.

48)محمد كامل الخطيب، الإصلاح والنهضة، ج2، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1992.

49)محمد يوسف موسى، ابن تيمية، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة، مكتبة مصر، 1962.

50)محمود أبو ريه، جمال الدين الأفغاني، تاريخه ورسالته، تقديم ومراجعة عبد الرحمن الرافعي، مؤسسة نصار، القاهرة، 1958.

51)مونتران روبير وآخرون، تاريخ الدولة العثمانية، ج2، ترجمة بشير السباعي، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، 1989.

52)نجلاء عز الدين، العالم العربي، ترجمة محمد عوض إبراهيم وآخرين، دار إحياء الكتب العربية، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، ط2، 1962.

53)نوري حمودي القيسي، تطور الفكر القومي العربي، (م.د.و.ع)، ط2، بيروت، 1986.

54)الهاشمي عبد المنعم، الخلافة العثمانية، ط1، دار ابن حزم، بيروت، 2004.

55)هافز كوهن، القومية (معناها وتاريخها)، ترجمة أمين محمود الشريف، مطبعة نهضة مصر، (ب ت).

56)هشام شرابي، المثقفون العرب والغرب، عصر النهضة، (1875–1914)، ط2، دار النهار للنشر، بيروت، 1978.

57)هليل الجابري، الحركة القومية العربية في العراق، بغداد، 1978.

58)هند فتال، ورفيق سكري، تاريخ المجتمع العربي الحديث والمعاصر، ط1، 1988.

59)هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، ترجمة أبو القاسم سعد الله، الدار التونسية للنشر، (ب ت).

60)وجيه كوثراني، الاتجاهات السياسية والاجتماعية في جبل لبنان والمشرق العربي 1860–1920، معهد الإنماء العربي، ط2، 1978.

61)وهيبة قطوش، الصراع الفرنسي البريطاني في المشرق العربي (1798–1899)، دار الخلدونية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013.

62)يحي جلال، العالم العربي الحديث –المدخل–، دار المعارف، 1985.

ب – باللغة الأجنبية

1) Benoist, Mechin, Mustapha Kamel ou la mort d'un empire, Ed. Albin Michel, France, 1954.
2) Gontaut, R.D., Comment La France s'est installée en Syrie, Nourrit et Cie, Paris.
3) Lyautey, Pierre, Le Drame oriental et le rôle de la France, Paul Brodard, Coulommiers, 2eme éd, 1924.
4) Montran, R., Histoire de la Turquie, P.U.F. 3eme éd, Paris, 1968.

5) Nada Tomiche, La littérature arabe contemporaine, Roman, nouvelle, théâtre, orientation, 3 Paris, Maison neuve et la rose, 1993.
6) Samir Amine, La nation arabe. Nationalisme et lutte de classe, Édition de minuit, Paris.

3 – المجلات

1) فواز ليلى، الأزمة السياسية والتحول الاجتماعي: الحرب الأهلية سنة 1860 بجبل لبنان والوضعية الداخلية في سوريا، بحوث المؤتمر الخامس للجنة العالمية للدراسات ما قبل العهد العثماني والفترة العثمانية، المجلة التاريخية المغاربية، تونس، ط1، 1982.
2) محمد مزالي، الولايات العربية ومصادر وثائقها في العهد العثماني، المجلة التاريخية المغاربية، ط1، تونس، 1989.

4 – الدوريات

Maghreb – Machrek, monde arabe, nov–déc., 1974, n° 66.

5 – المعاجم

سهيل صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات التاريخية العثمانية، مراجعة عبد الرزاق حسن بركات، مكتبة الملك فهد، 2000.

الفهرس

الفهرس

الإهداء

شكر وتقدير

مقدمة

المدخل

الفصل الأول: أثر الحكم العثماني والغزو الغربي على نمو الوعي القومي العربي

أولا: أوضاع البلاد العربية في ظل الحكم العثماني 27

1 – الأوضاع السياسية..... 27

2 – الأوضاع الاقتصادية..... 41

3 – الأوضاع الثقافية والاجتماعية..... 48

ثانيا: الصراع الأوربي على الحوض المتوسطي وتأثيراته على المنطقة العربية 54

1 – ظروف قيام الصراع..... 56

2 – أسبابه..... 57

3 – مجالاته..... 60

الفصل الثاني البعث العربي الجديد وفجر اليقظة الفكرية

أولا: عوامل التهيؤ للمد القومي العربي 69

1 – الحملة الفرنسية على مصر وسوريا..... 69

2 – الإرساليات التبشيرية في البلاد العربية 72

3 – محمد علي ومشروع الدولة العربية الحديثة..... 83

4 – التنظيمات العثمانية وآثرها..... 102

ثانيا: اليقظة الفكرية العربية..... 109

1 – إشكالية النهضة..... 109

2 – تيارات النهضة 121

ثالثا: الاتجاهات السياسية الجديدة في العالم العربي 127

1 – رفاعة رافع الطهطاوي: 1801م، 1873م..... 128

2 – جمال الدين الأفغاني: (1839م، 1897م) 130

3 – محمد عبده: (1849م – 1905م). 133
4 – عبد الرحمن الكواكبي: (1849م – 1903م)..... 135
5 – رشيد رضا: (1865م، 1935م)..... 138

الفصل الثالث: الوعي السياسي العربي في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين

أولا: ملامح التطور السياسي العربي..... 142
1 –الفكر العربي في عصر اليقظة و علاقته بفكرة القومية العربية..... 142
2 – التراث العربي اللاّمادي واسهاماته الفكرية..... 156
3 – الهجمة الغربية وتأثيراتها الفكرية على البلاد العربية 163
ثانيا: بدايات الحركة القومية العربية ومراحلها..... 169
1 – المرحلة الأولى: (النشاط الأدبي)..... 169
2 – المرحلة الثانية: (النشاط السياسي) 175

الخاتمة

الملاحق

البيبليوغرافيا

الفهرس